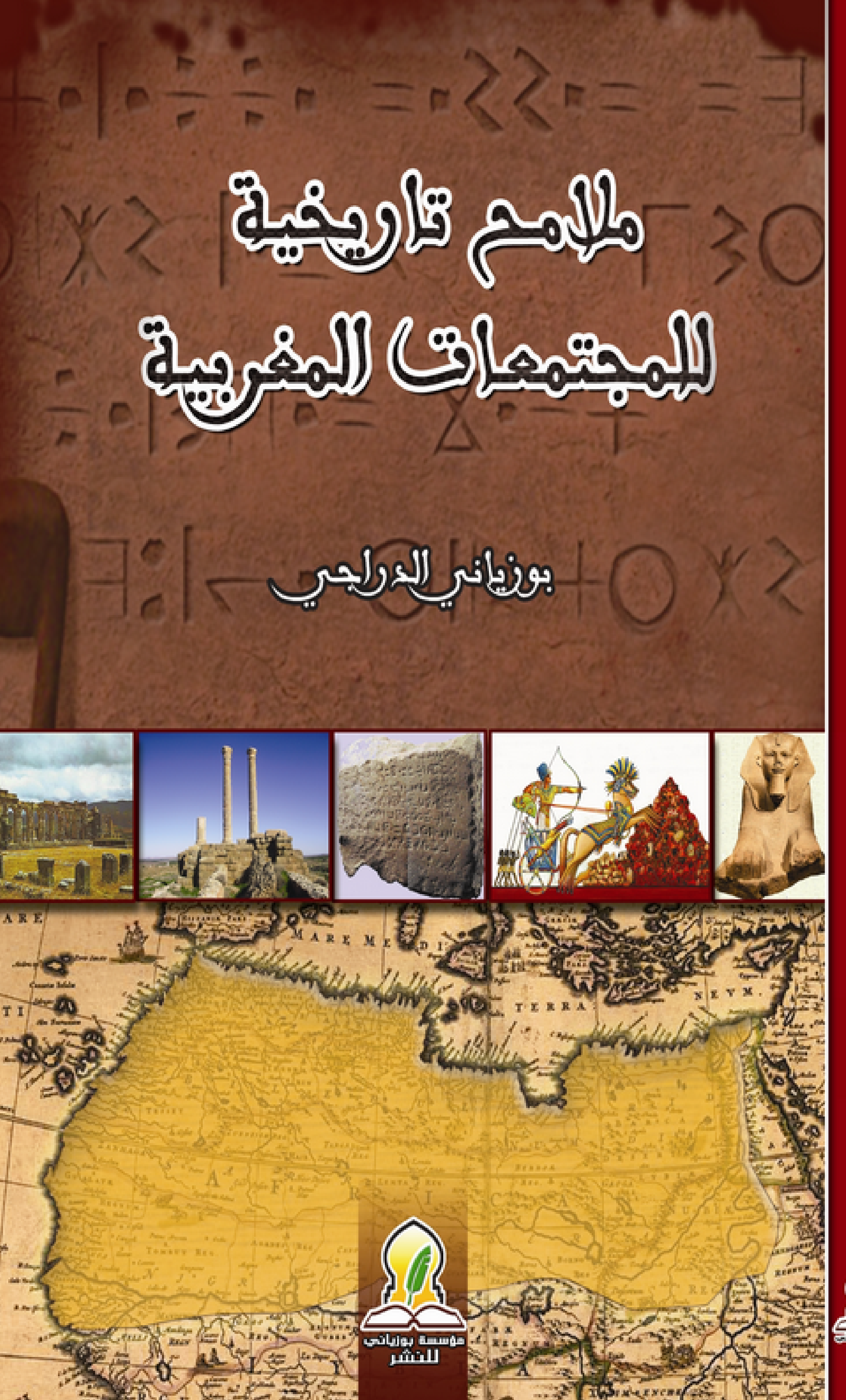


بوزياني الدراجي

ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية

بوزياني الدراجي

ملامح
تاريخية للمجتمعات المغربية



مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع

3 شارع بلحاج عثمان السحاولة الجزائر

الهاتف : 0559308889

الإيداع القانوني : 2013-1230

ردمك : ISBN -978-9961-9863-3-2



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــداء

- إلى الشمـوع الـتي احترقـت لكـي تنيـر دروب أفكـاري.
- إلى الأيـادي الـتي حملـت أثقـال هـمي وآلام أشجـاني.
- إلى أمي الـتي قادتـني إلى نـور الحيـاة.
- إلى أبي الذي زرع بذرتي ونمّا نبتتي وسقى بماء الطهر مهجتي.
- إليهمـا أهـدي مـا خطـه يـراعي ومـا جـادت بـه يـدي.

المقدمـة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة يشملها عنوان "**العصبيـة القبليـة**". وقـد دُرِسَـت فيـه الملامـح التاريخيـة العامـة للمجتمعـات المغربيـة ؛ بـدءاً بالعصور القديمة، وانتهاء بعصر ما بعد الموحدين. وقد كان عنوان هذه الدراسة في بداية الأمر: ((**ملامح المجتمع في بلاد المغرب**)) ؛ ولكن تبين بعد ـ تأمل ـ أن هذا العنوان لا يكفي، إذ يحتاج لوضوح أكثر ؛ لذا فقد تقرر اختيار عنوان: ((**ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية**)) ؛ لأن عبارة "**الملامـح التاريخيـة**" تـوحي للقـارئ بمعالـم الموضـوع المحصـور في الملامـح التاريخية.

أما اختيار كلمة "**مجتمعات**" ـ بدلاً من مجتمع ـ فيعني أن الموضوع يتعلق بمجتمعات ؛ وليس مجتمعاً واحداً ؛ إذ ثمة مجتمعات قبلية متباينة ؛ فضلاً عن كونها: إما بدوية بفئاتها المختلفة ؛ وذلك تبعاً لاختلاف سبل عيشها ؛ وإما مجتمعات متحضرة تتصنف إلى فئات متنوعة ؛ حسب مهنها المتباينة في الحواضر.

كما أن عنوان الكتاب ـ في الحالتين ـ يتضمن كلمة "**المغـرب**" أو "**المغربية**" ؛ وليس المقصود بهاتين الكلمتين ـ طبعاً ـ المغرب الأقصى ؛ بل المقصود هي بلاد المغرب بأقطارها كلها ؛ **أقصى وأوسط وأدنى**. علماً بأن الكتاب قد خلا من كلمة "**مغاربية**" ؛ لأن هذه الكلمة مصنعة، وليست مستساغة. ومع أن كلمة "**المغاربة**" لا تفي بالمقصود بالشكل المثالي ؛ فقد استعملت على اعتبار أنها يمكن أن تكون صفة لكل من سكن البلاد المتواجدة غرب بلاد النيل ؛ دون اعتبار للجنس أو اللون. وهي تماثل عبارة "**شمال إفريقيا**" ؛ غير أن هذه العبارة تشمل مصر كذلك.

ومـن جهـة أخـرى استعملـت كلمـة "**المغاربـة القدمـاء**" بـدلاً مـن "**الأمازيـغ**". ويرجع ذلك لعدة أسباب منها:

ـ أولاً: أن كلمة "**أمازيغ**" متأخرة زمنياً بعض الشيء؛ لأن التسمية القديمة المخصصة لأبناء هذه الديار هي: "**اللوبيين والليبيين**"؛ وهي أقدم تسمية لسكان هذه البلاد حتى الآن؛ حيث عرفوا بها منذ 3000 سنة ق.م تقريباً؛ إذ سماهم بهذا الاسم قدماء **المصريين**. كما ورد ذكرهم في التوراة بهذا الاسم أيضاً؛ مع بعض الاختلافات في النطق؛ ثم نقل **الإغريقيون والفينيقيون** هذه التسمية عن المصريين.

وقد أطلق **هيرودوت** هذا الاسم على أبناء البلاد الممتدة من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي بكاملهم؛ دون استثناء. أما ما ذكره ـ بعد ذلك ـ من أسماء فهي تُعَرِّف بمجموعة من القبائل الليبية المختلفة؛ وهذا الأمر اتبع ـ أيضاً ـ من قبل قدماء المصريين؛ الذين أشاروا لأسماء بعض القبائل الليبية **كالمشوش، والثمحو، وربو، والتحينو، والإسبد، ومي**..إلخ. ثم أن اسم "**أمازيغ**" لم يطلق على سكان هذه الديار بكاملهم ـ عبر التاريخ القديم ـ لأن الأسماء المتداولة بتوسع آنئذ هي: **لوبي وإفري وبربر**.

ـ ثانياً: أن اسم "**أمازيغ**" ـ كما هو ثابت ـ كان يطلق على فئة معينة، أو قبيلة نبيلة من القبائل الليبية؛ متواجدة في موريطانيا الشرقية؛ على ضفاف وادي شلف. وقد عرفت في العهد الروماني؛ وربما كانت متحالفة مع القبائل الخمسة المدعوة بـ"**الخماسية**".

غير أن بعض المسميات الشبيهة عرفت في القرن السادس قبل الميلاد؛ حيث أورد المؤرخ اليوناني هيكتايوس *Hekatoios* كلمات شبيهة مثل: مازييس *Mazyes*، كما ذكر هيرودوتس *Herrodotos* في القرن الخامس قبل الميلاد اسماً شبيهاً أيضاً هو ماكسييس *Maxyes*؛ وقد

استعمل الرومان من بعده هذه الكلمة ؛ بكيفية أقرب إلى كلمة اليوم ؛ حيث أطلقوها على الشعب النوميدي وكتبوها هكذا : مازكيس أو مازيكس *Mazikes* ـ *Mazax* ـ *Mazaces*. وذكر المؤرخون المسلمون أن جماعة من القبيلة الأمازيغية لواتة ؛ أرسلهم عمر بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة ؛ فسألهم عن نسبهم ؛ فقالوا : جدنا "**مازيغ**" [1].

وعلى هذا ؛ فقد اخترت كلمة مغاربة ؛ لاستعمالها الواسع في هذه الأيام ، واشتمالها على سكان البلاد الممتدة غرب نهر النيل إلى المحيط الأطلسي.

المهم ؛ لقد اتضح ـ من خلال هذه الدراسة ـ أن المجتمعات المغربية عموماً عجزت عن التخلص من المظهر القبلي الذي ساد في هذه الربوع ، وهيمن على حياة السكان وعاداتهم. على الرغم من قدم المجتمعات المغربية وصلاتهم الوثيقة بمختلف الأمم المعاصرة لهم ، ومواكبتهم لشتى الحضارات الإنسانية التي انبثقت على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط. فعلى الرغم من ذلك كله ؛ فإن المجتمعات المغربية بقيت على حالها الأول ؛ متمسكة بالنظم القبلية المتحجرة ، والعادات القديمة الساذجة.

وحتى عندما واتت المغاربة بعض الفرص الثمينة ـ حينما قامت بعض الدول الواعدة في بلاد المغرب ؛ تلك الدول التي تطلع أصحابها لدواعي التطور ، واللحاق بركب التحضر ، وبناء نظم قوية قابلة للاستمرار والبقاء عبر العصور المتتابعة ـ فإن المجتمعات المغربية أجهضت تلك الإنجازات العظيمة ؛ بسبب رواسب الماضي المظلم ؛ تلك الرواسب

[1] طبقات مشائخ المغرب ج: 2، ص ص: 16 ـ 17.

المتمثلة في بعض العادات العقيمة، وبعض النظم البالية التي يحن إليها المغاربة باستمرار.

وهكذا؛ كلما خطا المستنيرون من أهل هذه الديار خطوة نحو الأمام؛ يتعرضون لكبوات رهيبة؛ مبعثها الحواجز النفسية والاجتماعية الكأداء التي تهيمن على نفوس وعقول الشريحة العظمى من المجتمعات المغربية. لذا فالركب يعود أدراجه؛ عندما يتقهقر المصلحون وينكسر المجتهدون؛ فتتراجع المسيرة إلى منطلقها الأول؛ وبذلك "**تعود حليمة لحكايتها القديمة**" كما يقول المثل المأثور. وبذلك تطفوا إلى السطح ـ من جديد ـ النظم القبلية المكبلة لحركة الأعضاء والمثبطة للعزائم؛ تلك النظم التي تبرز الظواهر السلبية، وتشجع التفتت وتفرز العصبيات المقسمة للمجتمع إلى فئات عديدة.

بوزياني الدراجي

الجزائر في 2005/05/24م

مجتمع قبلي

((إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية. ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته؛ ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها...... وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلة؛ إلا عناصر للملحمة الإنسانية؛ منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن. فهي حلقات لسلسلة واحدة؛ تؤلف الملحمة البشرية منذ هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها؛ ويا لها سلسلة من النور..! تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة في خطواتها المتصلة في سبيل الرقي والتقدم)).

مالك بن نبي: (شروط النهضة)

&&&

ليست جذور القبلية في بلاد المغرب كلها ظاهرة ولدت في العصور الوسطى فحسب؛ بل لها امتداد يغوص في أعماق التاريخ البعيد. إذ تزخر المصادر القديمة بالشواهد والأمثلة؛ التي جعلت تاريخ هذه البلاد يكاد يكون **تاريخاً للقبائل**؛ أكثر من كونه **تاريخاً لدول وحضارات**؛ [1]

[1] تعرضت كلمة حضارة إلى تأويلات وتفسيرات كثيرة؛ الأمر الذي نجم عنه خلط بينها وبين عبارات أخرى كـ: عمران ومدنية. وفي وقت سابق نظر ابن خلدون للحضارة على أنها تعني الاجتماع والحضور ثم التفنن والابتكار في العيش؛ إذ يقول: ((ويختلقون [أي يبتدعون] في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر؛ ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة؛ وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو)). (المقدمة، ج: 2، ص ص: 578 ـ 579). وبالمقابل فثمة من يخالف هذا الرأي؛ إذ تبنت هيفاء الشنواني الرأي القائل بوجوب استبعاد كل ما من شأنه اشتراط زيادة في مشاكل معينة، أو بعض الخصائص المتعلقة بالمعيشة بين الحضر؛ لتحقيق التحضر. وهذا القول غير صحيح ـ

ذات نظم مرنة ومتطورة ؛ ترتكز على **روح المواطنة والانتماء الإقليمي**. لذا تعتبر هذه الظاهرة ـ في الواقع ـ إحدى العوامل التي تتسم **بالسلبية** وتؤدي إلى **التعثر** في مسيرة هذه البلاد الحضارية ، وهي علامة من علامات **التحجر والجمود** ؛ اللذين أصابا هذه المجتمعات ؛ خلال فترات عديدة من تاريخها الممتد عبر العصور كافة. وكما هو واضح ؛ فهذه الظاهرة هي التي جعلت **ابن خلدون** يصرح ضمن : "**فصل في أن**

حسب هذا المفهوم ـ لأنه يخلط بين العلة والمعلول، أو السبب والنتيجة؛ كما أن ذلك القول يفترض ـ أيضاً ـ وجود المدن قبل عملية التحضر. وهذا خطأ واضح ـ كما يرى أصحاب هذا القول ـ نظراً لكون عملية التحضر تصل في المدينة إلى أقصى مداها. أنظر كتاب النمو الحضري في الوطن العربي، ص: 1. ولتوضيح ما هو المقصود حسب المفاهيم الحديثة ـ من الحضارة؛ نستشهد بما اتفق عليه، وما كتبه نخبة من العلماء العرب: ((حضارة [جمع] حضارات... الحضارة ضد البداوة؛ وتقابل الهمجية والوحشية، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، [وهي] جملة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي؛ التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع أو مجتمعات متشابهة. وهناك حضارات قديمة وأخرى حديثة؛ شرقية وأخرى غربية. والحضارات متفاوتة فيما بينها. ولكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها. [1] أورينياك: أولى حضارات الحجري القديم الأعلى؛ وتنسب إلى كهف أورينياك؛ في حوض الجارون [القارون] بفرنسا؛ وهي معاصرة للحضارة القفصية في تونس؛ وأدواتها من شظايا الصوان؛ وتتميز بطولها وضيقها وإتقان صنعها. [2] السولترية: ثانية حضارات الحجري القديم الأعلى؛ وتنسب إلى بلدة سولتري بفرنسا؛ وأدواتها من الشظايا المستخلصة بالضغط؛ وهو أول ظهور هذا النوع. [3] الشيلية: أقدم الحضارات الحجرية؛ وتنسب إلى بلدة شل على نهر المارن بفرنسا؛ ومعظم ادواتها من الفؤوس اليدوية والمكاشط؛ ويقل التنوع في شكل أدواتها [4] المودلينية: نهاية حضارات الحجري القديم الأعلى؛ وتنسب إلى كهف لامادلين في الدوردوني [بفرنسا]؛ وأدواتها استمرار لأدوات حضارة أورينياك، ولا تحمل شيئاً من صفات الأدوات السوليترية؛ وتعرف بعصر الرنة؛ إذ انتشر فيها هذا الحيوان، وتوغل جنوباً حتى البحر المتوسط؛ ومن الأدوات التي تميزها: عصا الرياسة التي تصنع من قرون الرنة؛ وفيها تقدم الفن؛ ممثلاً في تعدد الألوان على جدران الكهوف. [5] الموستيرية: هي حضارة الحجري القديم الأوسط؛ وتنسب إلى كهف موستير في حوض الدوردوني بفرنسا؛ وفيها ظهرت الآلات المحددة الأطراف؛ التي كان يستعمل بعضها رؤوس حراب، كما ظهرت الأدوات المصنوعة من العظم والخشب. [6] الهيلينية: هذا المصطلح كان يقصد به ـ أساساً ـ حضارة أثينا وتوابعها من المدن؛ زمن بريكليس؛ ويطلق على الحضارة والمثل والمبادئ السائدة في بلاد اليونان في العصور القديمة. [7] الحضارات الأشولية: ثانية حضارات الحجري القديم الأسفل؛ وتنسب إلى سنت أشيل؛ في وادي السوم بفرنسا؛ وأدواتها أكثر تهذيباً من أدوات الحضارة السابقة؛ إذ أصبحت حافتها حادة منتظمة؛ وفيها ظهرت الأدوات المصنوعة من الشظايا)). (الصحاح في اللغة والعلوم، ج: 1، ص: 274). ومن خلال هذا النص؛ نلاحظ ـ أيضاً ـ تعارضاً بين ما جاء في البند (6) الخاص بالحضارة الهيلينية، وبين ما كتبته هيفاء الشنواني؛ التي قالت: ((قد استبعد تعديل آلْدْردج [*Eldrige*] التعريف الخاص بأن التحضر عملية إشعاع للأفكار والخبرات من مركز حضري إلى المناطق المحيطة به؛ ذلك أن هذا التعريف يعني أن المدينة مصدراً للتحضر؛ لا نتيجة عملية التحضر، ولا يعطي تفسير النشوء ونمو المدن)). (النمو الحضري في الوطن العربي، ص: 1.)

الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة" فيقول: ((**فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات .. والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى، وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها، وإلى دينها من الخلاف والردة؛ فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)). [1]

وفي هذا السياق ـ أيضاً ـ سار "**أندري جوليان**"؛ متبعاً نهج "**أ. ف. غوتييه**" [2] الذي اقتبس بدوره ـ بطريقة مشبوهة ـ **فكرة ابن خلدون**. وعليه فـ"**جوليان**" يعتقد أن ما كان موجوداً في بلاد المغرب؛ هو عبارة عن قبائل موحدة ضمن حلف تقف وراء زعيم جريء. قد يدوم ذلك الحلف فترة زمنية ما؛ قصد تأسيس ملك لتلك القبائل المتحالفة؛ ولكن ذلك المُلْك لا يصمد طويلاً؛ بسبب قيام زعيم آخر بالدور نفسه؛ فيسقط الدولة القائمة ويقيم دولته.. وهكذا دواليك؛ في محيط تنعدم فيه الممالك المستقرة التي تتسع تدريجياً، وتتوفر على الشروط الضرورية لنشأة الدولة؛ إذ لا تعتبر **المدينة أو التراب** ـ هنا ـ مقوماً رئيساً للوحدة الأساس؛ بل المقوم الصحيح **هي القبيلة**؛ سواء كانت ضمن حلف، أم وحدة. كما أن **الأحلاف القبلية** عجزت عن **بعث كيان دائم**؛ على الرغم من بروز بعض الملوك العظام في فترات تاريخية محددة. [3] وإذا تأملت في هذا القول ستجد أنه مقتبس من نظرية **ابن خلدون** ضمن فصل "**في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**" [4] وفصل "**في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد**" [5]

---

[1] المقدمة، ج :2، ص ص: 646 ـ 647.
[2] *Le Passé de L' Afrique du Nord ; pp* : 11- 12
[3] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 35.
[4] المقدمة: ج:2، ص ص: 609 ـ 610.
[5] نفسه: ج: 2 ، ص ص: 649 ـ 650.

ويؤيد هذا الرأي ـ أيضاً ـ كاتب مغربي معاصر ؛ وهو **محمد عابد الجابري** ؛ إذ يقول : ((**لقد كان مجتمع المغرب العربي ـ في القرون الوسطى ـ مجتمعاً قبلياً ؛ فسكان البلاد هم ـ الأعم الأغلب ـ عبارة عن مجموعات من القبائل المتحالفة حيناً ، المتطاحنة حيناً آخر. لقد كانت الوحدة الاجتماعية هي القبيلة ؛ التي قد تكبر بالتحالف أو غيره ؛ حتى تغطي منطقة بكاملها ، وتصبح قوة عسكرية ـ سياسية يحسب لها حسابها. ذلك لأن حمل السلاح ـ في هذا العصر ـ لم يكن مقصوراً على فئة دون أخرى ؛ فأفراد القبيلة الذكور ؛ كانوا كلهم محاربين ، وغالباً ما كان دورهم الاجتماعي تابعاً لدورهم الحربي ؛ قوة وضعفاً**)). [1]

على أن **ابن خلدون** لم يقتصر ـ برأيه هذا ـ على بلاد المغرب فحسب ؛ بل يرى أن **بلاد الشام** ـ في عهد بني إسرائيل ـ مرت بالظروف نفسها ؛ التي عرفتها بلاد المغرب ؛ أين تواجدت **قبائل كثيرة** ـ آنذاك ـ في تلك الديار ؛ وكانت كلها منغمسة في صراعات وفتن دائمة ؛ الأمر الذي صَعَّبَ على الإسرائيليين تمهيد دولتهم وترسيخ أسسها. وفي النهاية أدَّى ذلك كله إلى نشر الاضطراب في صفوفهم ، وانهيار سلطانهم. وعلى العكس من ذلك كله ؛ يرى **ابن خلدون** أن الأرض الخالية من القبائل والعصبيات ؛ يمكن تشييد الدولة فيها ، وتمتين أسسها ؛ نظراً لكون سلطان الدولة هنا يعتبر **وازعاً** ؛ بسبب انعدام الهَرْج. [2]

وكما هو واضح من سطور التاريخ القديم والوسيط ؛ بل الحديث أيضاً ؛ فإن ظاهرة القبلية ظلت قائمة ، ومهيمنة في هذه الديار ؛ على الرغم من الروابط والعلاقات التي كانت ـ قائمة منذ القدم ـ بين أبناء البلاد ومجتمعات ودول وإمبراطوريات أجنبية عظمى ؛ تتميز بنظم وصلت

[1] العصبية والدولة، ص ص: 26 ـ 27.
[2] المقدمة، ج : 2، ص ص: 647 ـ 648.

إلى ذروة ما عرفته الإنسانية آنذاك من نظم: **اجتماعية وسياسية وإدارية وعسكرية**. وبذلك نتساءل: هل عجز قدماء المغاربة عن **الابتكار، أو التكيف، وتقليد الآخرين**؛ باقتباس ما هو صالح وبَنَّاء، والحفاظ عليه زمناً طويلاً..؟

وهذا التساؤل شغل جملة من الباحثين؛ ببحثهم عن السبب الذي منع المجتمعات المغربية من توحيد بلادها ضمن دولة واحدة. ويبدو أن بعضهم ـ ممن اتبع سبيل **غوتييه** ـ [1] قد نسبوا العلة إلى ظاهرة الصراع المستديم بين البدو والحضر؛ [2] حيث رأوا أن ذلك الصراع قد استعصى حسمه؛ وعليه فقد بقيت الحال هكذا على مر العصور؛ وذلك أنه كلما توصل المتحضرون إلى إنجاز أثر أو معلم حضاري، جاء البدو في موجة من الموجات ليهدموا ما تم تشييده من قبل. [3]

---

[1] أنظر *Le Passé de l'Afrique du nord pp* : 24- 25. 396- 397. 409- 418. 425- 440.

[2] المقصود بالحضر ـ هنا ـ هم السكان المستقرون: أهل المدن والريف على السواء. وهذا يخالف فكرة ابن خلدون؛ التي يميز فيها بين سكان المدن وهم الحضر، وأهل الريف؛ الذين يصنفهم ضمن البدو.

[3] على أن بعض الباحثين الآخرين يخالفون هذا الرأي المستمد ـ في الأصل ـ من مقولة أ. ف. غوتييه؛ ذلك المؤرخ الفرنسي المتهم بأنه يفسر نظرية ابن خلدون حسبما يمليه عليه هواه.. ومن هؤلاء المعارضين لغوتييه وأمثاله ـ على سبيل المثال ـ إيف لاكوست؛ الذي يقول بشدة وحزم: ((على هذا الهذيان الأدبي؛ جهد هؤلاء لوضع ختم المؤرخ والجغرافي. إن واضع نظرية النزاع البدوي والحضري، وغزوات العرب؛ هو أ. ف. غوتييه؛ فبعدما أسهم ـ سنة 1897م إلى جانب غاليان [1916 - 1849 *Gallieni Joseph*] ـ في القمع الرهيب لثورة "الفاهافالو" "*Fahavalos*" [قبيلة ملغاشية]في مدغشقر؛ عين أستاذاً في مدينة الجزائر، وأصبح ألمع منظري الاستعمار... إن تاريخ إفريقيا الشمالية بأسرها ـ بالنسبة لغوتييه ـ ليس منذ القدم سوى مبارزة شاسعة ودائمة بين "جنسين متعارضين أساساً من وجهة بيولوجية في تصرفهما الأبدي"...)).. ((إن الصراع الأبدي بين الحضري والبدوي "يجعل من المغرب الحالي مركب عناصر متنافرة؛ لا يمكن مصالحتها"، ولا يمكن أن تجد تلاحمها إلا تحت سيطرة أجنبية. فقاطعة البربر لم تكن أبداً أمة، كما لم تكن أبداً دولة مستقلة إدارياً؛ لقد كانت دائما جزءاً من إمبراطورية... المغاربة ليسوا سوى تابعين مؤيدين...ولم يستطيعوا أبداً أن يطردوا سيدهم". إننا لنظل مضطربين من كون أستاذ جامعي يستطيع ـ بمثل هذه السفاهة ـ أن يطور هذا النسيج من الأكاذيب الفظة المضادة للتاريخ)). كتاب العلامة ابن خلدون، ص ص: 84. 94 ـ 95.

ويشارك **أندريه جوليان قوتييه** ـ في هذا الأمر ـ حين يصرح بأن البلاد المغربية لم تر عبر تاريخها عاصمة دائمة وقارة. كما أن بلاد المغرب ـ في رأيه ـ لم تتمكن من تحقيق وحدتها حول عاصمة معينة. ثم يؤيد التعليل الذي تبناه غيره من الباحثين ومنهم **غوتييه**. ذلك التعليل الذي ينسب أسباب الفرقة والتشتت وصعوبة وحدة بلاد المغرب إلى عوامل عديدة منها: التجزؤ الجغرافي، وصعوبة المواصلات، وانعدام الأودية المترابطة، وحاجة البلاد للأنهر الصالحة للملاحة، وافتقارها للأراضي المفيدة، وعداء البحر. ومن ثمة يقول: ((**ولربما يجب أكثر من ذلك أن نذهب مذهب أ. ف. غوتيه؛ الذي يلاحظ سعة الغزوات، وقلة ثباتها في نفس الوقت؛ فنحمل المسئولية على الصراع الدائم بين البدو والحضر؛ الذي لم ينته بفوز واحد على الآخر؛ فإن هذه الثنائية التي تعذر القضاء عليها هي التي تعلل في الظاهر كيف أن بلاد البربر كان لها دائماً أسياد أجانب**)). [1]

وإذا جاز لنا التحفظ على بعض ما ورد في هذا النص من جزم وتعميم ـ وذلك بإحالة القارئ إلى بعض العينات الحضارية؛ التي وجدت في بلاد المغرب ـ فإنه لا يمكن نكران ظاهرة العجز الكامن في نفوس من كانوا يوصفون بصفات التمدن [2] أو التحضر [3] في هذه الديار آنذاك.

---

[1] تاريخ افريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 34.

[2] ((مَدَنَ بالمكان: أقام به. ومنه سميت المدينة... التمدُّن: التحضر... مجموعة من المساكن المستقلة؛ لها كيان ذاتي، وتمنح الشخصية المعنوية، ويوكل إليها الإشراف على المرافق المحلية التي تعني سكانها)). الصحاح في اللغة والعلوم. ص: 484. وقد شارك ابن خلدون ـ من قبل ـ في تفسير معنى التمدن؛ حين تكلم عن مفهومه بخصوص الاجتماع والعمران؛ إذ قال: ((في أن الاجتماع ضروري. ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدني بالطبع"؛ أي لابد له من الاجتماع؛ الذي هو المدينة في اصطلاحهم؛ وهو معنى العمران)). المقدمة، ج: 1، ص: 420.

[3] ((يُعَرَّفُ التحضر بأنه عملية تركيز سكاني؛ يتم بوسيلتين: إما بزيادة عدد أماكن التجمع السكاني، أو نمو حجم التجمعات السكانية. وتمشياً مع هذا الاصطلاح تعَرَّفُ المدن بأنها مراكز للتجمعات... عملية التحضر تبلغ ذروتها في المدينة. وعملية التحضر تحدث قبل وجود المدينة، وتستمر بعد قيامها.. والتحضر ينبئ عن حركة انتقال للسكان ـ قد تكون مستمرة أو متقطعة ـ من أقل تركيزاً إلى مكان أكثر تركيزاً في السكان)). النمو الحضري في الوطن العربي، ص ص: 1 ـ 2.

وذلك لأنهم عجزوا عن التخلص نهائياً من ميراثهم القبلي ؛ المستمد من ماضيهم البعيد.. ذلك الميراث المنحصر في العادات والتقاليد القبلية المنكمشة ؛ إذ كان هؤلاء المتمدينون ـ حتى وإن طبعت بعض مظاهرهم بطابع مدني بعض الشيء ـ يعيشون في أمصارهم وقراهم بعقليات وسلوكيات قبلية خالصة. وعلى هذا فقد عجزوا عن تحقيق النمو الحضري. وهذا القول يتبلور أكثر فأكثر عندما نسلم بالمفهوم الحديث القائل : بأن التجمعات الحضرية (أو المدنية) ترتبط نشأتها تاريخياً ببعض العوامل منها :

1 ـ **الاستقرار السكاني في بعض المواقع** [الهامة والحساسة].

2 ـ **تحرر نسبة من السكان من العمل في الزراعة.**

3 ـ **توفر مستوى معين تكنولوجي ؛ يعتمد على استعمال المعادن والآلة ؛ بدلاً من الأدوات البدائية.**

4 ـ **نوع جديد من التنظيم، والضبط الاجتماعي ؛ لم يعرفه من قبل المجتمع الزراعي)).** [1]

وهذا الشكل من التجمعات قد عرفته ـ طبعاً ـ مجتمعات قديمة ؛ تمكنت من تحقيق النمو الحضري في ربوعها ؛ مثل مجتمعات : **بلاد ما بين النهرين، والصين، ومصر** ؛ بالإضافة إلى مدن أخرى انتشرت على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ؛ شمالاً وجنوباً.

وحتى إذا ما ظهرت بعض البوادر الإيجابية ؛ التي يكون قد تحمس لها بعض الحكام الأفذاذ ـ الذين سعوا لاقتباس نظم جديدة، ونقلها عن الآخرين ؛ قصد تطوير وتمتين أسس الدولة في بلاد المغرب ؛ بالانتقال بها من مرتبة دنيا ؛ تهيمن عليها روح القبيلة إلى مرتبة أعلى ؛ تضبط فيها

[1] النمو الحضري في الوطن العربي، ص: 4.

الدولة مؤسساتها، وتتحكم في مسار نهضتها؛ بواسطة نظم جديدة فعالة؛ تضمن شروط الرفاهية والأمن، وتهيِّئ المجتمع للقيام بمسيرة مستقيمة؛ لها أبعاد حضارية مضمونة ـ فالواقع يظهر بروز أحداث، ووقائع وقفت ـ دوماً ـ حجر عثرة أمام أولئك الحكام الطموحين..

وقد أشار "**أندري جوليان**" إلى وجود شكل من أشكال الدولة في بلاد المغرب قديماً حين قال: ((**والغالب على الظن أن الممالك البربرية تكوَّنت على هذا النحو** [1] [أي توحيد القبائل أولاً] **قبل الدول التي يرتبط تاريخها بتاريخ قرطاج ورومة**)). [2] إذن؛ لا حاجة ـ هنا ـ لإثبات **قيام دول قديمة** ـ في بلاد المغرب ـ حيث كانت بمثابة **دولة مدينة وقرية**؛ شبيهة بما حدث في بلدان أخرى: **كسومر وبابل وفينيقيا واليونان وأوروبا** في تلك الأثناء.. كما أنه لا سبيل لإنكار تشكيل كيان متقدم في ديار المغرب؛ له صفات الدولة؛ حتى وإن غلب عليه طابع الكتلة القبلية..

وهذا الأمر ـ طبعاً ـ يكاد يصبح من المسلمات؛ إذ تتكلم الوثائق التاريخية عن "ملك **ليبي**"؛ ربما كان اسمه **معارايو** ***Mâraïou*** [3] اشتبك بجيشه المتكون من "**المشْوش**"؛ [4] ضد الجيش المصري بقيادة "**مرنبتاح" في سنة** 1220 أو 1230 **ق. م**. وحدث ذلك في وقت تعرضت فيه مصر لغزوات "**شعوب البحر**". [5]

---

[1] المقصود بقوله: "على هذا النحو" هو التدرج نحو الملك عن طريق توحيد القبائل ضمن اتحاد؛ ينتهي إلى مرتبة الملك. وهذا القول يتضح بكيفية جيدة حين يقول أيضاً: ((قد يجمع بعض القواد قبائل عديدة تحت سلطانه؛ بما له من هيبة، أو عن طريق القسر والغلبة، أو يصبح إغليداً لها، أو ملكاً عليها)). (تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 81). وهذا التفسير ـ كما ترى ـ متطابق مع نظرية ابن خلدون في العصبية، وقيام الدولة بواسطتها.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 81.

[3] *L'afrique du nord dans l'antiquité p*: 43.

[4] ربما يكون "المشْوش" *Meshwesh* عبارة عن قبيلة كبيرة جاءت من النواحي الغربية. أي من نوميديا كما عرفت فيما بعد؛ وبالتحديد من الفئة التي سماها هيرودوت بالمكسيين *Maxyes* أو ماكاي *Macae*.

[5] ((ففي السنة الخامسة من حكم مرنبتاح فرعون مصر 1220 [ق.م]؛ قام ملك الليبيين *Libu* بهجوم على مصر مستعيناً بخمسة من "شعوب البحر"؛ أي الوافدين من أقطار البحر؛ هم: الترشا *Tursha* والشردن *Sherden* واللوكا أو الليكا *Luka* والشكلش *Sheklesh*

وشعوب البحر هؤلاء؛ قدموا إلى هذه المناطق في شكل هجرة واسعة؛ قامت بها الشعوب المعروفة باسم "**الهندو ـ أوروبية**". وقد تميزت الفترة الزمنية المحصورة بين سنتي: 1400 و 1100 ق. م. بتحولات عظيمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط بكاملها، وما جاورها من البلدان. [1] ويعتبر الباحثون أن هذا العصر؛ يشكل منعرجاً دولياً خطيراً؛ ففيه استقرت شعوب عديدة في **أوروبا**؛ بحيث تشكل ما عرف ـ فيما بعد ـ بـ"**اليونان، واللاتين**".

إذن؛ ففي هذا العصر المصيري؛ لم تكن **البلاد المغربية** غائبة، أو مهملة؛ بل كانت تشارك في الأحداث التاريخية؛ إلى جانب أبرز الشعوب آنئذ؛ مثل: **الشعب المصري، والشعب اليوناني، والشعب اللاتيني**، وشعوب أخرى في: **أرض الرافدين وسوريا**.. ويبدو أن هذه الحركة الكبرى **لشعوب البحر**؛ قد سمحت **لسكان بلاد المغرب** بالانغماس في ذلك التيار الدولي المتنامي، والاختلاط مع شعوبه، والتأثر بهم أو التأثير فيهم..

وعليه؛ قد يكون قدوم **الفينيقيين** إلى هذه الديار داخل في هذا الإطار؛ وليس كما ترويه أسطورة "**عليسة**" أو "**ميدون**".. كما أن وصول **اليونانيين** إلى "**القريني**" *Cyrenaica* في منطقة **برقة**؛ كان ـ أيضاً ـ ضمن حركة شعوب البحر؛ وليس كما سردته أسطورة "مينوس *Minos*

والأكواشا *Aqawasha* وقد ثار جدل طويل حول هوية هذه الشعوب؛ التي يعتقد بعض الباحثين أن أسماءها ترادف أسماء شعوب تآلفها منذ فجر العصر الهلليني. ويرون أن "الترشا" هم التيرسينيون *Tyrsenoi* أي أجداد الأتروسكيين؛ الذين يرجح الآن ـ وفقاً لرواية هيرودوت ـ أنهم ارتحلوا فيما بعد "القرن الثامن؟" من ليديا بآسيا الصغرى، واستقروا على الساحل الغربي لإيطاليا. وأن الشردن؛ هم السردينيون "أم هم من سارديس؟". وأن اللوكا أو الليكا؛ هم الليكيون [قد يكون موطنهم في آسيا الصغرى]. والشكلش؛ هم الصقليون "أم هم السجلاسون *Sagalassi* من إقليم بيسيديا بآسيا الصغرى؟". وأهم من ذلك اتفاق كثير من الباحثين على أن "الأكواشا" ليسوا سوى الأخايويين ـ *Achaioi* ؛ أي الأخيين؛ وهم الإغريق؛ وإن كان هذا الرأي لا تزال فيه ثغرات؛ لم يستطع أحد أن يسدها بما يقنع الباحثين كافة)) التاريخ اليوناني، ج: 2، ص ص: 782 ـ 785.

[1] أنظر تاريخ الحضارة الهلينية، ص ص: 33 ـ 37.

الإقريطي" مع ابنته **أكاكاليس** *Akakalis*، أو خرافة أبطال اليونان؛ الذين قدموا من **حرب طروادة**.. وأسطورة **الأطلنطس** واحتمال وجودها في جهات **قابس** حيث شط الجريد، أو رواية **الميديين والفرس** الذين انتقلوا من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى إفريقيا الشمالية؛ فأضحوا نوميديين.. إلخ. فتلك الحكايات كلها ولدت في خضم التحولات العظمى التي حدثت على شواطئ البحر المتوسط.



ممالك وأغاليد

المهـم ؛ أن ثمـة دلائـل تشيـر إلى وجـود شكـل مـن أشكـال التنظيـم السياسي ـ في بلاد المغرب خلال تلـك الفتـرة القديمـة وبعدهـا ـ وقـد تصـل تلك الكيانات إلى مرتبة ممالك، أو إمارات ؛ وبذلك يمكن أن نسمي حكامها ملوكاً أو أمراء ؛ وإن كانت التسمية المتعارف عليها بينهم هي "**إغليد**".. مثل :

ـ **إغليـد قدمـاء الليبيـن المشْـوش** *Meshwesh* **معارايـو** Mâraïou : هـو الذي حالف شعوب البحر، وهاجم معهم مصر في سنة 1220 أو 1230ق.م.

ـ **والإغليـد الليـبي "حيربـاس** *Hiarbas* **" أو "يوبـاس أليـاس هياربـاس** *Hiarbas Alias Iopas***"** : يكـون قد عـاش في أواخـر القـرن التاسـع ق. م. وهـو الـذي زعمـت أسطـورة "**عليسـة**" أنـه طلـب الـزواج منهـا.

ـ **والإغليـد الليـبي إلمـاس** *Ylmace* أو *Ailymas* : الـذي عـاش في سنـة 310 ق.م. وتقـول المصـادر أنـه حالـف **أغاثوكليـس** *Agathocles* الإغريـقي (ملـك سرقسطة) ؛ حينمـا غـزا السواحـل القرطاجيـة سنـة 310 ق.م. ويرجـح أن يكـون هـذا الملـك مـن الأسـرة الـتي انحـدر منهـا **مسنيسـا**. ويقـول ديـودور الصقلي أنـه يحكـم مقاطعـة واسعـة ؛ ربمـا تشكـل جـزءاً مـن تونـس وشـرق الجزائـر ؛ حيـث يرجـح أن تكـون عاصمتـه هي **دقـة**. [1]

ـ **والإغليـد النوميـدي نارافـاس** *Naravas* : وهـو الـذي سانـد القرطاجيين مـع فرسانـه النوميدييـن سنـة 240 ق.م ؛ في مواجهـة الحمـلات الـتي قادهـا الثائـر الليبي **ماتـوس** *Mathos*.

---

[1] *Aguellids et Romains en Berberie; p:* 12.

- **وإغليد نوميديا الشرقية (ماسيليا *Massylie*) غايا** *Gaya*: الذي عاش في الربع الأخير من القرن الثالث ق.م. إذ ظهر بعد الملك **نارافاس**. وتقول المصادر أن **غايا** قد شن حرباً على قرطاج في سنة 220 ق.م.

- **وإغليد نوميديا الغربية (مازيسيليا *Masaessyli*) سيفاكس** *Syphax*: الذي عاش في الربع الأخير من القرن الثالث ق. م. وقد عاصر الملك **غايا**. وابنه الملك **مسينيسا** وتذكر المصادر أنه أعلن الحرب على قرطاج، واصطلح معها في سنة 213 ق.م.

- **الإغليد فرمينا** *Vermina*: شارك أباه **سيفاكس** في الحكم؛ ولما قُبِضَ على أبيه خلفه في سنة 202 ق. م؛ ثم اعتكف في حكم إمارة بالجهات الغربية؛ مازالت المعلومات حولها غامضة. وربما تكون نهاية حكمه في سنة 192 ق. م.

- **وإغليد موريطانا باغا** *Vaga*: الذي عاش في سنة 206 ق.م. وهو الذي انتصر **لمسنيسا** ضد **سيفاكس**.

- **والإغليد النوميدي إزيلصيس** Aezalces: الذي تولى الحكم بعد وفاة والده **غايا** سنة 207 ق.م. ولكنه مات في السنة نفسها.

- **والإغليد النوميدي كابوسا** *Capaussa*: وهو ابن **إزيلصين**؛ ولكنه أجبر على التخلي عن الحكم.

- **والإغليد النوميدي لكومازيس** *Lacumazes*: الذي حكم في سنة 206 ق.م. إذ تولى الحكم بعد قتل أخيه **كابوسا؛** بغرض الإطاحة بحكمه. ولما كان **لكومازيس** أصغر من **مسنيسا**؛ فقد أخل بنظام الوراثة المتبع عند المغاربة القدماء. وهذا ما أسخط **مسينيسا** عليه.

ـ الإغليـد مسينيسـا *Massinissa* : وهـو أعظـم الملـوك النوميديين عـلى الإطلاق. تولى الحكم في سنة 202 ق.م. وكانـت لـه مآثـر جليلـة ؛ إذ شيـد دولتــه في أحســن هيئــة ، وضبــط شئونهــا ، ونظــم إدارتهــا ، ونهــض باقتصادها ، وشجع أعمال الفلاحة فيها ؛ فازدادت ثرواتها ، ونمـت مدنهـا وقراها. وبذلـك يكـون **مسنيسـا** قـد خطـا الخطـوات الأولى نحـو بنـاء دولـة الكبرى لبلاد المغرب ؛ ولـو أن خلفـاءه واصلـوا السير في النهج الـذي اتبعـه هـذا الإغليد العظيـم ؛ لتغير واقـع هـذه الديار بالكـل..

ـ الإغليـد مسبسا *Micipsa* : وهـو ابـن **مسينيسـا** ؛ تـولى الحكم بعد وفـاة أبيه في سنة 148 ق.م. والظاهر أن هـذا الإغليـد لـم يكـن في منزلـة والـده ، وكمـا يبدو فأنه تراخى عن مواصلة بناء الصرح الذي شيـده **مسنيسـا** ؛ في مجــالات : الفلاحــة ، وتشجيــع حركــة الاستقــرار والتمديــن ، والتنظيــم الإداري والاقتصادي وغيره..

ـ الإغليـد يوغرطـا *Jugurtha* : (وهـو ابـن **مسطنبعـل** بـن **مسينيسـا**) ؛ حكـم في سنة 118 ق. م. لـم يتمكـن هـذا الإغليد مـن فعـل شـيء بخصـوص مواصلــة بنــاء الدولــة ، وتمتيــن مؤسساتهــا ؛ وذلــك بسبــب المضايقــات الداخليـة ، والتحرشـات الرومانيـة.. الأمـر الـذي شغلـه وأغرقـه في حـروب وفتـن لا نهاية لهـا..

ـ الإغليـد أذربعـل *Adherbal* : نصبه الرومان ملكاً على الجـزء الشـرقي مـن نوميديا سنة 116 ق.م ؛ بعد إسقـاط دولـة يوغرطـا.

ـ إغليـد موريطانيـا بوخـوس الأول *Bocchus 1* : وقـف في البدايـة إلى جانب صهره **يوغرطـا** ضـد الرومـان سنـة 108 ق.م. ولكنـه خانـه في سنـة 105 ق. م. وسلمه إليهم ؛ فكافأه الرومان بمنحه الثلث الغربي من مملكة يوغرطا.

ـ **الإغليد غودا** *Gauda* : وهو شقيق **يوغرطا** ؛ وكان مريضاً ؛ إذ يقال أنه يعاني من عجز عقلي ؛ نصبه الرومان على الثلث الشرقي من نوميديا سنة 105 ق. م ؛ بعد أن قسمت إلى ثلاثة أقسام.

ـ **إغليد نوميديا الشرقية يمبسال الثاني** *Hiempsal 2* : وهو ابن **غودا** ؛ حكم بعد وفات والده سنة 88 ق. م. وكان أديباً ويتحلى بثقافة عالية.

ـ **الإغليد مسنيسا الثاني** *Massinissa 2* : الابن الثاني **لغودا ؛** ربما يكون قد انتزع ملك أجداده (نوميديا الغربية) من الملك **بوخوس الأول** قبل سنة 81 ق. م ؛ في ظروف غامضة. وكان قد تحالف هو ويوبا الأول مع **بمبايوس** ضد خصمه **يوليوس قيصر**.

ـ **الإغليد حيرباص** *Herbaes* : أطاح بالملكين **ماسينيسا الثاني** و**يمبسال الثاني** في حدود عام 81 ق. م ؛ ثم أعلن نفسه ملكاً على نوميديا بشقيها : الشرقي والغربي ؛ ولكنه لم يستقر طويلاً ؛ إذ تغلب عليه الرومان، ثم أعادوا الملكين : **يمبسال الثاني ومسنيسا الثاني** إلى سدة الحكم من جديد.

ـ **إغليد مورطانيا الشرقية بوخوس الثاني** *Bocchus 2* : حكم بعد موت أبيه سنة 70 ق. م. وقف ـ مع بوغود ـ في صف **يوليوس قيصر** ضد **بمبايوس** وتمكن في سنة 38 ق. م من الاستيلاء على مملكة **بوغود** مورطانيا الغربية ؛ وقد دام ملكه إلى سنة 33 ق. م. وبما أنه لم يخلف وريثاً له ؛ فقد حول إمبراطور روما مملكته إلى ولايتين رومانيتين ؛ وقد استمر ذلك الحال إلى عام 25 ق. م ؛ أين وضعت مورطانا تحت حكم **يوبا الثاني**.

ـ **إغليد موريطانيا الغربية بوغود** *Baugod* : حكم في حدود سنة 70ق.م. وقد انضم ـ مع بوخوس الثاني ـ إلى أنصار **يوليوس قيصر** ضد

بمبايوس. ومع هذا فقد أضاع ملكه سنة 38 ق. م ؛ الذي استولى عليه حليفه بوخوس الثاني.

ـ إغليد نوميديا الشرقية يوبا الأول *Juba 1* : يكون قد تولى الحكم بعد وفاة والده **يمبسال الثاني** سنة 67 ق. م. وقف **يوبا الأول** ـ مع مسنيسا الثاني ـ في صف **بمبايوس** ضد **يوليوس قيصر**؛ وقد انتهت الخصومة بين الطرفين بانتصار يوليوس قيصر؛ فلم يتحمل **يوبا الأول** الهزيمة ففضل الانتحار سنة 46ق.م.

ـ إغليد نوميديا الغربية أرابيون *Arabion*: وهو ابن **مسنيسا الثاني**؛ تمكن من انتزاع ملك أبيه؛ بعد موت **يوليوس قيصر** في سنة 44 ق. م. ولكنه لم يدم طويلاً؛ إذ قتله الوالي الروماني سكستيوس *Sextius*.

ـ إغليد مورطانيا الجديدة الموسعة يوبا الثاني *Juba 2*: حكم في سنة 25 ق. م. وهو ابن **يوبا الأول**. تربى بعد موت أبيه في القصر الملكي بروما حيث تولت تربيته أخت القيصر أغسطس **الأميرة أوقطافيا**؛ ولما كبر زوجوه من **كيليوبترا سيليني** ابنة **كيلوبترا الكبيرة**؛ ملكة مصر من **أنطونيو**. وبعد أن تشبع بالثقافة اللاتينية والإغريقية، واصطبغ بالصبغة الرومانية؛ نصبوه ملكاً على موريطانا الجديدة؛ حيث اتخذ من مدينة "*Iol*" الفينيقية (شرشال الحالية) عاصمة لملكه؛ بعد أن سماها *Caesarea* أي **قيصرية**؛ اعترافاً منه بجميل سيده وولي نعمته القيصر أغسطس. وفي عهد هذا الملك ـ أي في سنة 17 بعد الميلاد ـ ثار **تاكفاريناس** وقبائل: المزالمة وجدالة ومورطانية عليه وعلى أسياده الرومان.

ـ إغليد موريطانيا الموسعة بطليموس *Ptolémé*: حكم بعد وفاة والده **يوبا الثاني** سنة 23 ميلادية. لم يأخذ من صفات أبيه شيئاً يذكر؛ إذ كان خليعاً وكسولا ومتهاوناً في شئون ملكه. وفي وقته استفحل أمر

الثوار من القبائل **الموريطانيية** و**تاكفاريناس** وقبيلة **جدالة**. وقد انتهى أمر **بطليموس** بالقتل سنة 40 م ؛ غيلة في **ليون** ؛ بإيعاز من ابن عمته الإمبراطور "قاليقولا". الذي كان يغار منه كما قيل.

وبعد موت **بطليموس** أمر **قاليقولا** بإنهاء مملكة **موريطانيا القيصرية** وتحويلها إلى ولايات رومانية. وبذلك انتهى ما كان يعرف **بالممالك النوميدية والمورطانية** نهائياً ؛ إذ تحولت بلاد المغرب كلها تحت الاحتلال الروماني المباشر ؛ فدام ذلك الأمر أربعة قرون تقريباً. هذا وقد تخللت تلك المدة الزمنية ثورات عديدة من طرف الجند الرومان والسكان والقبائل المغربية ضد الحكم الروماني ؛ من تلك الثورات : ثورة "**الفوضى العسكرية**" *l'anarchie militaire* في سنة 235 م ؛ إذ انطلقت من مدينة **الجم (الـڤم)**، وانتشرت في الممالك الرومانية بكاملها ؛ ودامت تلك الفتن إلى سنة 285 م.

وتعتبر السنوات المحصورة بين 253 ـ 262 ميلادية أهم مرحلة تؤرخ لثورات القبائل المغربية ؛ حيث رفعت تلك القبائل والمجموعات الثائرة لواء العصيان ضد **روما**. وقد انطلقت هذه الثورة من **جبال البابور** *Bavares* بقيادة أربعة من الزعماء النوميديين المتحالفين مع خمسة قبائل عرفت "**بقبائل الحلف الخماسي**" *les Quinquégentiens* المتمركزة في **منطقة القبائل** الحالية ؛ بالإضافة إلى **الفراكسيين** أتباع الزعيم **فراكسن** *Faraxen* الوافدين ـ على الأرجح ـ من مرتفعات **بلعباس** الحالية. ودامت هذه الثورة إلى عام 262 ميلادية ؛ حيث قتل خلالها (في عام 259م) الزعيم **فراكسن** بواسطة خيالة موريطانيين.. ولم تنتهي ثورات القبائل المغربية بانتهاء ثورة 253 ـ 262 م ؛ بل أشعلت **قبائل الحلف الخماسي** مرة

أخرى ثورات جديدة أشد وأمر من سابقتها ؛ دامت من سنة 289 م إلى سنة 298 ميلادية. وقد امتد مسرح هذه الثورات إلى جبال الحضنة.

المهم ؛ أن روح الفتنة والنزعة الثورية لم تنقطع في البلاد المغربية بتاتاً ؛ إذ كانت تتغذى من العصيان والاضطرابات التي تحدثها جماعة **الدوناتوسيين** *Les Donatistes*، وعصابات **الدواريين** *Les Circoncellions* إلى جانب الدعم والتشجيع الذي يوفره زعماء القبائل المغربية لهاتين الحركتين المتمردتين على **روما وكنيستها الكاثوليكية**. وهذا الوضع ـ طبعاً ـ لا يعني انعدام أمراء وإمارات مغربية تتواجد في الجبال والأرياف والصحاري ؛ بعيداً عن القبضة الحديدية **لروما**. ومن أولئك الأمراء والملوك :

ـ **الإغليد مرسيس** *Mrsys* : ذكرت بعض المصادر أن هذا الإغليد الليبي ذهب إلى روما لمقابلة الإمبراطور **دوميتيان** *Domitian* ؛ فلم يجده ؛ فالتحق به في بلاد **الغال** سنة 89 ميلادية. وقد تباينت الآراء حول انتماء هذا الإغليد ؛ بين من قال أنه ملك قبيلة **نسمون** الليبية ، وقائل أنه ملك **القرمونت**.

ـ **الإغليد نوبل** *Nubel* : من قبيلة **جوبالايني** *JUBALENI* ؛ المنتشرة عبر المناطق الجبلية في نواحي **البيبان**. ويعتبر هذا الإغليد من أقوى زعماء الكتل القبلية المتواجدة **بمورطانيا القيصرية** في ذلك الوقت. إذ كان يتزعم حلفاً يشمل قبائل جبلية في المناطق المعروفة الآن **بالقبائل**. وظل **نوبل** على رأس ذلك التحالف حتى وافته المنية في حدود عام 370 م. عندها دب الخلاف بين أبنائه ؛ الأمر الذي أوصلهم إلى حرب دامية بينهم من جهة ، وبينهم وبين الرومان من جهة أخرى.. وكان لهذا الإغليد سبعة أبناء بينهم فتاة تدعى **كيريا** ؛ أما الذكور فقد عرفنا منهم خمسة وهم :

ـ **الإغليـد فيرمـوس** *Firmus*: وهـو ابـن **نوبـل**؛ كـان يسكـن في قصـر أبيـه في نـواحي **الثنيــة** الحاليـة. بينمـا يقطـن أخـوه سمّـاك *Sammac* في قصـره جنوب غـرب **توبوسكتـو** *Tubusuctu* في نـواحي **بجايـة** الحاليـة. ويظهـر أن الخـلاف عـلى إرث أبيهمـا تسبـب في قتـل **فيرمـوس** لأخيـه **سامّـاك**. وهنـا اشتعلـت الحـرب في سنـة 372 م بيـن الرومـان ـ الذيـن انتصـروا **لسامّـاك** ـ **وفيرموس** الـذي تمكـن من حشـد القبائـل المتحالفـة مـع أبيـه سابقـاً. واتسعـت الحرب ضـد الرومـان حتى شملـت مساحـة واسعـة مـن **موريطانيـا القيصريـة**؛ إذ شاركـت فيهـا قبائـل عديـدة إلى جانـب **فيرمـوس** الـذي استطـاع كسـب **الدوناتوسييـن والدواريـن** إلى جانبـه. وبذلـك فقـد دامـت تلـك الحـرب أربـع سنـوات احتـل فيهـا **فيرمـوس قيصريـة** (شرشـال الحاليـة) **وإكوسيـوم** (الجزائـر الحاليـة). وانتهـت الحـرب أخيـراً بانتحـار **فيرمـوس** سنـة 375 م؛ نتيجـة لتفـرق بعـض القبائـل عنـه، وخيانـة أصحابـه؛ بمـا فيهـم أخـوه **جيلـدون**، وزعيـم إحـدى القبائـل المتحالفـة معـه اسمـه إقمـازن *Igmazen*. إذ أسـره هـذا الزعيـم عـلى نيـة تسليمـه إلى القائـد الرومـاني؛ فسبقهـم بالإنتحـار.

ـ **الإغليـد إفاريسـان أو فاراكسـن** *Ifarissen* **(***Faraxen***)**: سانـد **فيرمـوس** في حربـه ضـد الرومـان؛ وبذلـك يكـون ضمـن حلـف القبائـل الثائـرة الخمسـة. وقـد وفـد ـ في قـول ـ مـن جهـات بلعبـاس الحاليـة؛ بينمـا يـرى آخـرون أنـه كـان يحكـم نـواحي *Auzia* سـور الغـزلان حاليـاً. وقـد أبلى هـذا الإغليـد بـلاء حسنـاً في حـرب الأجانـب؛ ولكنـه قتـل في النهايـة بأيـدي فرسـان **موريطانييـن** يعملـون في صفـوف الرومـان.

ــ **الإغليــد إقمــازن** *Igmazen*: كــان ملكــاً عــلى قبيلــة **إزافلنســس** *Isaflenses*؛ الـتي تتواجـد في التيتـري؛ انضـم في البدايـة إلى الثـورة الـتي قادهـا **فيرمـوس** ضـد الرومـان؛ ولكنـه خانـه؛ بعـد أن ظهـرت بـوادر الضعـف

في صفوف الثوار ؛ حيث تآمر ضد **فيرموس** ؛ فقبض عليه ؛ بغرض تسليمه للرومان ؛ ولكن **فيرموس** سبقه بالانتحار سنة 375 ميلادية ؛ فلم يبق أمام إغليد قبيلة **إزافلنسس** سوى إرسال جثة زميله وحليف الأمس إلى الرومان على ظهر جمل ؛ كحجة ثابتة على موته.

ـ الإغليد جيلدون *Gildon* : تقلد سلطاته بمباركة **روما** ؛ بعد أن أعانها على التخلص من أخيه **فيرموس**. وبقي على ولائه **لروما** من سنة 386 م إلى سنة 396 م ؛ حيث قلب لها ظَهْرَ المجنِّ فجأة ؛ إذ أشعلها ثورة كاسحة ضد **روما** ؛ لم ينطفئ أوارها إلاّ بخيانة أخيه **مقزيل** ؛ الذي وقف في صف **روما**. وانتهى أمر **جيلدون** بالطريقة نفسها التي لجأ إليها أخوه **فيرموس** ؛ وهي الإنتحار ؛ وذلك سنة 396 م.

ـ الإغليد مقزيل *Mascezel* : تآمر على أخيه **جيلدون** ؛ بحجة الانتقام لولديه اللذين قتلهما **جيلدون** ؛ فقاد القوة الرومانية قصد محاربة أخيه ؛ فانتهى الأمر بموت **جيلدون** كما سبق ذكره. وكان مصير **مقزيل** مفجعاً ومخيباً للآمال ؛ إذ كافأه الرومان بالقتل غيلة في سنة 398 ميلادية. وبذلك طويت صفحة هذه العائلة الملكية المغربية.

&&&

ولكن بلاد المغرب لم تصب بالعقم ؛ إذ خرج من صلبها ثوار ؛ واصلوا ملحمة التصدي والكفاح ضد الرومان ؛ المغتصبين لأرضهم والناهبين لثرواتهم. كما صمدوا في وجه حملات القمع الموجهة ضدهم وضد معتقداتهم. ودام الحال هكذا حتى سقوط الحكم الروماني بالمغرب ؛ من خلال الغزو الوندالي في سنة 430 ميلادية. وفي بداية هذا العهد الجديد هادن المغاربة الغزاة الوندال بعض الوقت ؛ كي يمكنوهم من القضاء على الجيش والإدارة الرومانية من جهة ، وانشغالهم في سلب

أصحاب الأراضي من المستعمرين الرومان، والانتقام لأجدادهم من أبناء أولئك المغتصبين الوافدين في ركاب الجيوش الرومانية.

كما أن **جنسريق** *Genséric* ملك الوندال اعتمد في أغلب الأحوال على أهل البلاد المغربية في كسر شوكة روما؛ حين جندهم ضمن جيشه؛ فاحتل بهم بلاد المغرب، وجزر البحر المتوسط. لهذا فقد انشغل المغاربة عن الثورات بالغزو والفتوح ضمن جيش **جنسريق**. وفي العهد الوندالي ظهرت إلى الوجود ممالك مغربية مستقلة توزعت في مناطق عديدة من البلاد. وبعد موت **جنسريق** انكمشت الغزوات، وتعطلت جل الحروب الهامة؛ فاضطرت القبائل المغربية مرة أخرى إلى معاودة الثورة بأمر ملوكها. ومن هؤلاء الملوك:

ـ **الإغليد ماستياس** *Mastiès*: لقب نفسه بالإمبراطور. حكم في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي؛ وظل في الحكم طوال أربعين سنة تقريباً. وبعدها خلفه الإغليد **يوضاس**؛ الذي نجهل ـ حتى الآن ـ شكل القرابة التي بينهما.

ـ **الإغليد يوضاس أو إيوداس** *Iaudas* (*Ibda*)**:** ظهر بعد وفاة ماستياس *Mastiès*؛ أين تربع على سدة مملكته؛ ونجهل إن كان من أقربائه أم لا. فكان يتزعم بعض **القبائل الأوراسية** الثائرة على الغزاة الأجانب؛ سواء كانوا من الرومان أو الوندال أو البيزنطيين؛ لذا فقد أعلن استقلاله عن الحكم الأجنبي الممثل بالوندال؛ ثم زحف على بعض المستعمرات والمدن الرومانية فنهبها وخربها مثل: **تبسة وتيمقاد وباغاي ولمباز**، وبعد ذلك تمكن من الاستيلاء على الأراضي الخصبة الموجودة غربي الأوراس والمجاورة **لمملكة الحضنة**. وكان هذا الإغليد يستطيع أن يحشد 30.000 من الفرسان في وقت واحد. غير أن تاريخ

الحركة الأولى لهذا الإغليد لم تعرف بدقة ؛ ولكنها قد تكون حدثت بعد موت **جنسريق** سنة 477 م.

وفي العهد البيزنطي قام الإغليد **يوضاس** بالإغارة في سنة 535م على السهول الشمالية لنوميدية ؛ وتقدم بقبائله حتى وصل إلى أطراف قسنطينة. وقد ألحق أضراراً بليغة بالممتلكات البيزنطية والرومانية ؛ ولكنه خسر المعركة أمام الجيش البيزنطي في سنة 539م. وبعد مدة ظهر الإغليد **يوضاس** من جديد في سنة 546 م ؛ من خلال ثورته المتجددة على البيزنطيين. ويعتبر هذا الإغليد أهم إغليد مغربي في تلك الأيام ؛ إذ كان يتميز بالشجاعة وشدة البأس وطول النفس ؛ كما تميز بطموح كبير وإصرار على الاستقلال.

ـ **الإغليد أورتاياس** *Orthaias* (*Outaïa*): تملك على القبائل المغربية المتواجدة جنوب مقاطعة سطيف حتى الحضنة. وكان خصماً لإغليد الأوراس **يوضاس** وحليفه **ماستيناس** إغليد موريطانيا القيصرية. وقد بقي **أورتياس** إلى أوائل القرن السادس الميلادي.

ـ **الإغليد مازونة** *Masuna* : كان يجلس على سدة حكم إمارة في غرب البلاد تمتد من *Altava* أولاد ميمون الحالية إلى سفار *Safar* أي عين تموشنت. وقد لقب نفسه "**ملك المورطانيين والرومان**" وبقي إلى أوائل القرن السادس الميلادي.

ـ **الإغليد ماستيقاس أو ماستيناس** *Mastinas Mastigas* : كان ملكاً على مورطانيا القيصرية ؛ في **المنطقة الممتدة جنوب** ***Césarienne*** **شرشال** الحالية. وظل على حاله إلى أوائل القرن السادس. وذكرت المصادر أن هذا الإغليد تحالف مع إغليد الأوراس **يوضاس** ضد الإغليد **أورتياس** صاحب الحضنة والمناطق الجنوبية لسطيف.

ـ **الإغليـد إفيسدايـاس** *Ifisdaias*: كـان ملكـاً عـلى شمـال نوميديـا. في العهد الوندالي والبيزنطي.

ـ **الإغليد كابايون أو كاباعون** *Cabaon*: وهو أمير يرأس قبائل الصحراء الليبية؛ وقد اشتهر بعد المعركة التي دارت بينه وبين الجيش **الوندالي** في ميدان المعركة المتواجد بين **قابس وطرابلس** وذلك في سنة 496 ميلادية تقريباً. حيث اعتمد في قتاله على الجمال كوسيلة حرب جديدة لم تعرف من قبل. هذا وقد انتهت المعركة بهزيمة منكرة للونداليين.

ـ **الإغليد أنطلاس بن غنفان**: وهو أمير على قبائل الصحراء. انتصر هو الآخر على الجيش **الوندالي** في معركة مدعمة أيضاً بالجمال؛ فألحق بالونداليين خسارة كبيرة، وهزمهم شر هزيمة. وقد حارب إلى جانب **أنطلاس** مجموعة من القبائل المغربية هي: **الفراشيش** و**لواتة**؛ وكانت هذه القبائل تمتلك الجمال هي الأخرى وتعتمد عليها في القتال. وتقول المصادر أن **أنطلاس** تمكن من الاستيلاء على المزاق *Byzacène* أي منطقة الساحل في نواحي تونس. وتقول المصادر أنه بقي في تلك الجهات **في العهد البيزنطي** إلى سنة 546 م. ويبدو أنه كان في البداية على وفاق تام مع البيزنطيين؛ ولكنه انقلب عليهم فجأة؛ إذ أشعلها ثورة دامية؛ ولكنهم انتصروا عليه في آخر الأمر؛ سنة 548 م؛ واعتبارا من ذلك الوقت؛ لم يأت ذكر أنطلاس؛ ولم يعرف عن مصيره شيء يذكر.

ـ **الإغليـد كوتزينـا** *Cutzina*: وهـو أميـر مـن أمـراء الصحـراء الذيـن اشتهروا ـ آنذاك ـ بحرب الجمال ضـد البيزنطييـن. كـان في البدايـة مـن أشـد أعداء البيزنطيين؛ إذ شن هجمات كاسحة على الجنوب التونسي بواسطة جمالـه المندفعـة؛ فخـرب المـدن وأحـرق القـرى. ولـما تصـدى لـه القائـد البيزنطي سليمان؛ انتصر عليه في معركة كبيرة؛ لم تنفعه فيها جماله؛ إذ

أمر سليمان فرسانه بالترجل ونحر الجمال أثناء القتال. وبهذه الخطة انهزم **كوتزينة**؛ حيث سبيت نساء جيشه وأطفالهم، وبيعوا في سوق النخاسة بقرطاج سنة 535 ميلادية. والغريب أن هذا الإغليد ـ في أواخر أيامه ـ استدرج سنة 546 م؛ من طرف **جون تروقليتا** *Jean Troglita* القائد البيزنطي؛ تحت تأثير المال وإغراء الذهب؛ لكي يخون إخوانه: **أنطلاس ولواتة**. وللعبرة؛ فإن نهايته تمت بيد الذين أعانهم على إخوته ؛ إذ قتله البيزنطيون سنة 563 م؛ مع ثلة من الملوك العملاء.

ـ الإغليد غرمول *Garmul*: حكم في جهات فزان. فتآمر عليه **جناديوس** الحاكم العسكري البيزنطي؛ الذي دعاه لمأدبة؛ ولما حضر؛ أمر الحرس بقتله سنة 578 ميلادية. وكانت هذه الفعلة بمثابة الشرارة التي أشعلت نار الثورة بين أهل البلاد؛ فسعى البيزنطيون إلى إرضاء زعماء القبائل بجميع السبل.

ـ الإغليد سكرديد بن زوفي *Sacradid*: تولى أمر قبيلة **أوربة والبرانس** طوال ثلاثة وسبعين سنة؛ حسب قول ابن خلدون. وتوفي هذا الإغليد في سنة 71هـ/690 م؛ حيث يتضح بأنه أدرك الفتح الإسلامي.

ـ الإغليد كَسيلة بن لمزم *Kaceïla*: يبدو أنه كان ـ في بداية الأمر ـ عبارة عن قائد عسكري لقبيلة **أوربة**؛ ولما مات إغليدها **سكرديد** خلفه **كسيلة** في زعامة القبيلة **والبرانس** على السواء. وبعدئذ تولى أمر مقاومة المسلمين؛ فاعترض زحفهم في جهات تلمسان؛ ولما تمكن قائد المسلمين **أبو المهاجر دينار** من أسره سنة 55هـ/674م؛ حبب إليه الإسلام؛ فاستجاب له واعتنقه؛ حيث أضحى صديقاً لأبي المهاجر، وشارك معه في القتال، بل رافقه في طريق العودة إلى إفريقية. ولما قدم **عقبة ابن نافع** إلى إفريقية من جديد، وحدث ما حدث من خلاف بينه وبين **أبي**

المهاجر؛ أهان **كسيلة** وحط من منزلته؛ لكونه صديقاً مقرباً إلى أبي المهاجر. فعمل **كسيلة** من يومه على الانتقام؛ فسنحت له فرصة الفرار في الطريق، وجاءت اللحظة المواتية بالقرب من قرية **تهودة**؛ حيث هجم على **عقبة** ومن بقي معه من المجاهدين؛ فاستشهد جلهم وأسر بعضهم. وكان **أبو المهاجر** نفسه بين الشهداء إلى جانب **عقبة**. وحدث ذلك سنة 64هـ/683م. ولم يكتف **كسيلة** بهذا النصر بل واصل زحفه؛ حتى دخل **القيروان** في السنة نفسها؛ واستولى على مُلْك المسلمين فيها.

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن **كسيلة** لم يتعرض للمسلمين في **القيروان** بمكروه، ولا مس مقدساتهم ومسجدهم؛ بل ترك لهم حرية العبادة؛ الأمر الذي يبعث على الشك فيما نسب إليه من ارتداد عن الإسلام؛ وهذا بقي غير ثابت حتى الآن. وبقي على تلك الحال مدة خمس سنين تقريباً؛ وفي الأخير زحف إليه **زهير ابن قيس البلوي**؛ فالتقيا في وادي **ممس** سنة 69هـ/688م؛ حيث قتل **كسيلة** وانهزم جيشه.

ـ **الإغليدة دُهيا بنت تابتة** المعروفة **بـ(الكاهنة)**: وهي ملكة **الأوراس**؛ وتستمد سلطانها من قبيلتها **البترية جراوة**. وكانت **دهيا (الكاهنة)** تحكم **الأوراس** حينما زحف **عقبة** نحو المغرب الأقصى. ويقال أنها هي التي أمدت **كسيلة** بالفرسان، وشجعته على قتال المسلمين في **تهودة**. ولما كان المسلمون يعلمون ذلك؛ فقد قرروا الزحف إليها في عقر دارها؛ بعد قتل **كسيلة** وعودتهم إلى القيروان. ولم يتم لهم ذلك حتى ولي **حسان بن نعمان** على إفريقيا؛ فباشر فوراً بقتالها سنة 78هـ/697م؛ فهزمته في المرة الأولى، وطاردت فلول جيشه حتى أطراف **قابس**؛ وامتلكت **دهيا** (الكاهنة) بعد ذلك بلاد المغرب كلها مدة خمس سنين.

غير أنها كانت ـ من قبل هذا ـ تمتلك **الأوراس** لوحده ؛ وقد ظلت على هذا الحال ـ كما أشار إلى ذلك ابن خلدون ـ زهاء خمس وثلاثين سنة. وبعد أن وصل المدد إلى **حسان** عاود الزحف نحو **دهيا** (الكاهنة) وقومها ؛ وانتهت المعركة بقتلها وهزيمة جيشها في سنة 82هـ /701م.

يحسن بنا الاكتفاء بهذا القدر من قائمة ملوك المغرب الطويلة. لأن ما سيأتي بعد ذلك من أسماء وأخبار عن هؤلاء الملوك ؛ ليس خافياً على كثير من القراء ؛ لأن المعلومات عنهم ـ بعد الفتح الإسلامي ـ أصبحت في متناول الجميع ؛ بفضل ما كتبه المسلمون عن بلاد المغرب، وسكان بلاد المغرب، وملوك بلاد المغرب ؛ على خلاف ما كان يجري أيام **الرومان والونال والبيزنطيين** ؛ الذين لم يهتموا سوى بما كان له علاقة بهم من قريب أو بعيد ؛ ولا يهمهم بعد ذلك ما كان يجري في الأوساط المغربية البحتة.

المهم هنا ؛ هو الخروج بفكرة ؛ يتيقن القارئ بواسطتها بأن بلاد المغرب عرفت ـ كغيرها من البلدان القديمة ـ ممالك وملوك ؛ كما نتأكد بأن المغاربة القدماء (أي الليبيين) كانوا ـ كغيرهم من الأمم ـ أيضاً ـ ينتظمون أحياناً ضمن شكل من أشكال الدولة ؛ التي تخضع لملك يحكم الرعية، ويسهر على أمن الناس وسلامة الأرض، ويقود الجيوش ويجبي الأموال. ولكنهم ـ حتى وإن كانوا قد حققوا ذلك ـ فإنهم عجزوا عن الحفاظ على دولتهم وتطويرها، والتدرج بها نحو الأفضل ؛ بدمج القبائل دمجاً فعلياً ضمن مؤسسات قومية ؛ تخدم مصلحة الدولة قبل القبيلة ؛ مثلما حدث في أمم أخرى..

وعلى هذا النهج يمكننا التلميح ـ في عجالة ـ إلى عينات تاريخية أكيدة؛ كانت تستوجب السماح لأبناء المغرب القدامى أن ينتقلوا من أوضاعهم الجامدة المتحجرة؛ إلى أوضاع أفضل وأسمى.. غير أن تلك العينات أثبتت أن ما عاينه وعايشه قدماء المغرب من أحداث جليلة ؛ لم تمثل لديهم شيئاً ذا قيمة ؛ بل مرت بهم كسحابة صيف ؛ لا فائدة ترجى ولا نتيجة تبقى..



الصلات مع مصر

لم يستفد قدماء المغرب - المعروفون آنذاك باسم **اللوبيين أو الليبيين** من جوارهم الأزلي، واحتكاكهم المستديم **بمصر الفرعونية** - سواء كان احتكاكاً سلمياً أم حربياً - منذ القرون السحيقة؛ [1] التي تجاوزت في القدم حدود 3000 سنة قبل الميلاد. [2] فعلى الرغم مما كانوا يشاهدونه ويسمعون عنه من نظم ومبتكرات حضارية مصرية؛ فإنهم لم يهتموا بها إلى الحد الذي قد يغريهم بتقليدهم والاقتباس عنهم. وهذا يقودنا لمزيد من الشرح والتعرف على تدرج المصريين نحو بناء الدولة، ثم التعرف على شكل الصلات التي جمعت بينهم وبين المغاربة القدماء؛ أي الليبيين.

- من نظام القبيلة إلى نظام الدولة:

لقد كان المصريون القدماء - قبل قيام دولتهم العظيمة - عبارة عن قبائل متفرقة؛ ولكنهم استطاعوا - بفضل المزايا الحميدة؛ التي يتحلون بها - من توحيد قبائلهم، وتشكيل الدولة الأولى بواسطتها. [3] وهذا الأمر -

---

[1] ذكر أستاذ المصريات چون ولسون أن ملوك الدولة القديمة في مصر أرسلوا حملات تجارية وعسكرية إلى ليبيا؛ مثل غيرها من المناطق المجاورة. الحضارة المصرية، ص: 153.

[2] راجع كتاب (تاريخ العالم، مج: 1، ص: 445)؛ أين عرضت بعض اللوحات؛ منها لوحة تمثل الملك نارمر أو نعرمر؛ (حكم حوالي سنة 3200 ق. م.) وقد عرفه الكتاب بالجملة التالية: ((نعرمر "في الوسط" محارباً؛ عرف عنه أنه أخضع اللوبيين في غرب الوجه البحري)). ومن هنا يتضح أن احتكاك اللوبيين بالدولة المصرية؛ يعود إلى زمن بدء التدوين عندهم. وفي هذا السياق؛ يقول الباحث الرحالة السويسري "جورج غيرستر": ((وكانت أولى الارتباطات التي اكتشفت في مصر - ولا سيما مع حضارات ما قبل التاريخ في وادي النيل. وقد أدى الاكتشاف الأخير لمومياء طفل إلى الجنوب الغربي من فزان؛ تعود في تاريخها إلى عهود أقدم بكثير من المومياء التي عثر عليها في وادي النيل - إلى إلقاء ضوء على العلاقة بين مصر ما قبل الأسر الفرعونية والأراضي الصحراوية الواقعة إلى غرب النيل)). (الصحراء الكبرى، ص: 44).

[3] يقول چون ولسون: ((ولم يستمر نظام وحدة القبيلة الذي بدأ في معظم العصور البدائية؛ ذلك النظام الذي يقوم على صلة الدم أو القربى؛ فقد اختفى ليحل مكانه نظام إداري واسع؛ لم تكن فيه أي أهمية إذا كان يجري في عروقهم دم واحد أو لا يجري؛ بل لا يهم إذا كانوا

طبعاً ـ لا يمكن أن يغيب عن أعين **الليبيين** المجاورين لهم، والمتصلين بهم في تلك الحقبة وقبلها.. ولابد أنهم لاحظوا ـ آنذاك ـ كيف تخلص المجتمع المصري من النظم القبلية المتخلفة؛ خلال فترة زمنية موغلة في القدم..

وقد أجمع المتخصصون في المصريات؛ على أن الخطوات الأولى لتشكيل اتحاد قبلي في مصر؛ بدأت بها **قبائل مصر السفلى**؛ إذ سبقت ـ في ذلك الأمر ـ **قبائل في مصر العليا**. كما ثبت أن اندماج قبائل مصر العليا؛ حدث قبل بداية الأسرة الأولى فيها. وعلى العموم؛ فقد امتزجت ـ بعدئذ ـ قبائل الجنوب بقبائل الشمال؛ دون عناء كبير. وقد فسر بعضهم ذلك النجاح؛ بميل الناس إلى الاستقرار، وبحاجتهم إلى توطيد سبل التعاون؛ تلبية للمصلحة المشتركة؛ وذلك بعد انتشار الزراعة في تلك الديار.

ومع هذا؛ ليس هناك ما يسمح بنكران **العامل الجغرافي**؛ الذي جعل كل مملكة من المملكتين: الجنوبية والشمالية؛ وحدة جغرافية قائمة بذاتها.[1] وربما اعتبر هذا الأمر كأحد العوامل المعيقة **لعملية المزج** بشكل عام. ولكن ثمة عوامل إنسانية ذللت الصعاب وبددت العوائق؛ حيث ظهرت عوامل أخرى؛ ساعدت في عملية **المزج والإدماج** في مصر القديمة.

يعرفون بعضهم بعضاً. والشيء الوحيد الهام هو أن تجمع بينهم أهداف اقتصادية واجتماعية كافية؛ فتجعلهم يعملون متكاتفين تحت سلطة حاكم واحد. ومع ذلك فمن الجائز أن وحدة الحكم كانت وما زالت بسيطة نسبياً قبل بدء الأسرات بقرون قليلة؛ وأن وجود الأقاليم ظهر فجأة في أواخر عصر ما قبل الأسرات)). الحضارة المصرية، ص: 71.أنظر أيضاً تاريخ العالم، مج: 1، ص: 523.

[1] لم يمنع هذا الأمر توحيد البلاد المصرية؛ وبذلك يسقط التعليل الذي تبناه شارل أندريه جوليان ـ متبعاً نهج غوتييه ـ عندما فسر عدم ظهور دولة موحدة لبلاد المغرب؛ بالعوامل الجغرافية المانعة لتحقيق الوحدة؛ حيث قال: ((وقد رأينا أن البربري لم يصب بنقص جنسي؛ ولكن لعنة جغرافية نزلت عليه)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 35. وحتى إن كانت مصر تمتاز بتوفر عوامل جغرافية أخرى كنهر النيل مثلاً؛ فإن العامل الإنساني لعب دوراً هاماً في تحقيق وحدة مصر. وعليه فالتعليل الذي أورده شارل أندريه جوليان لا يكفي: ((لم تعرف بلاد البربر قط عاصمة قارة نهائياً، ولم يُتَحَ لها البتة أن تحقق وحدتها حول عاصمة ما. وقد علل الباحثون ذلك بالتجزؤ الجغرافي، وصعوبة المواصلات وانعدام الأودية الواصلة بعضها إلى بعض، وعدم صلاحية الأنهار، وعداء البحر، وقلة الأراضي النافعة. كما عللوه بانعدام مركز طبيعي يفرضه وضعها الجغرافي)). نفسه، ص: 34.

وقد تم ذلك حين ظهرت شخصية فذة ـ ربما حملت اسم **"مينا ـ نارمر"** أو غيره ـ فتمكنت تلك الشخصية الغامضة من توحيد القطرين ؛ بالوسائل الضرورية. ولم يكن **"مينا ـ نارمر"** ليستطيع ذلك ؛ لو لم تتهيأ الظروف المناسبة للوحدة ؛ المتمثلة في **نمو الشعور القومي** لدى السكان. وهكذا فقد حدث الامتزاج اللازم ؛ فوحد المملكتين إلى الأبد.[1]

وعلى هذا يقول أستاذ المصريات **"ت. إريك بيت"** : ((**فقد كان الملك المصري ـ في بادئ ذي بدء ـ مجرد زعيم محلي ؛ يجله الناس. فقد كان الزعيم القبلي حاكماً، وكاهناً أعظم، ومشترعاً لقبيلته. وما من شك في أن مهام الزعيم قد زادت بسرعة ؛ في أثناء توحيد القبائل ؛ الذي تم بالفتح أو بالرضا ؛ حتى حول مصر القبيلية إلى مملكة. وقد اضطر الزعيم ـ إزاء ذلك ـ إلى توكيل غيره ؛ في بعض مهامه على الأقل**)).[2]

وهذا التفسير متطابق مع **نظرية ابن خلدون** التي يتكلم فيها عن حدوث **مزجٍ للعصبيات** مع بعضها ؛ على أن تكون احداهما متفوقة عليهم ؛ لكي يتحقق **الغلب**.[3] وفي هذه النظرية يطبق ابن خلدون القوانين والأعراض **الكيماوية** على الحركة **الاجتماعية**. ويبدو أن هذا الرأي تأثر به عدد آخر من الباحثين. فها هو أستاذ المصريات، والأثري القدير **"چون ولسون"** يقول بدوره: ((**إن ما حدث ـ في عصر ما قبل الأسرات ـ في مصر ؛ أشبه بتفاعلٍ كيمائي بطيء ؛ انتهى برد فعل فجائي. وكأنما كانت هناك قطرات كيماوية تتساقط ـ خلال زمن طويل ـ في محلول ؛ دون أن تحدث أي تغيير في تركيب المحلول ؛ ثم حدث أن المحلول**

[1] أنظر تاريخ العالم، مج: 1، ص ص: 522 ـ 523.

[2] نفسه، ص: 523. وتم ذلك بأن بدأ بإسناد مهمة الكاهن لأحد ثقاته. أما في الأسرة الرابعة فقد أسند الملك خطة الوزارة ـ المختصة بشئون القضاء والإدارة ـ لأحد أبنائه.

[3] ((لأن الاجتماع والعصبية؛ بمثابة المزاج في المتكون؛ والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكون. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). (المقدمة، ج: 2، ص: 599.

تغير تغييراً سريعاً ؛ في وقت قصير نسبياً ؛ فوجدنا في الوعاء مادة مختلفة التركيب. والشيء الذي نجهله ؛ هو ما إذا كان ذلك التغيير في الكم، أم في النوع. هل كان الموضوع كله موضوع تشبعٍ ؛ وأن النقط التي تجمعت أصبحت فجأة كافية لتحدث رد الفعل؟ أو كان الموضوع موضوع مادةٍ من تركيب جديدٍ ؛ أضيفت في الوقت المناسب ؛ فكان أثرها هو ما يحدثه الوسيط الكيمائي ؛ في تحويل تركيب كيمائي آخر)). [1]

ـ *بماذا استفاد الليبيون؟ :*

تلك هي لمحة خاطفة ؛ تلخص الكيفية التي مرت بها مصر للوصول إلى مرحلة الدولة. على أن المهم ـ هنا ـ ليس الوصول إلى إنشاء دولة ؛ بل النجاح في تنمية مؤسساتها، والحفاظ عليها إلى ما لا نهاية.. وهو ما نجح فيه **المصريون**.. وبالمقابل نتساءل: هل استفاد **الليبيون** من ذلك..؟ والجواب يمكن أن يكون بالإيجاب ؛ **في الحالة الأولى** ؛ عندما نعترف بأن **الليبيين** ـ بدورهم ـ أنشأوا دولة ما ؛ منذ القدم ؛ [2] ولكننا نعترف أيضاً ـ **في الحالة الثانية** ـ بأنهم عجزوا عن السهر على نموها، والمحافظة عليها ؛ بتوفير شروط استمرارها. فكما هو معروف ؛ **ظهرت بوادر الدولة الأولى** ـ في ربوع المغرب ـ في عهود قديمة جداً ؛ ربما **تزامنت مع الدولة المصرية القديمة** ؛ ولكن خطواتها تعثرت وحركة نموها تذبذبت ؛ فلم تستمر في البقاء طويلاً.

---

[1] الحضارة المصرية، ص: 83.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 81. .43. 68-88 : *L'Algerie dans l'antiquité, p p* . مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص: 67. الجزائر بين الماضي والحاضر، ص ص: 66 ـ 67. *L'Afrique du NORD dans l'antiquité* . سياسة الرومنة، ص: 17. *Aguellids et Romains en Berberie, pp: 11-13.* . جرمة في تاريخ الحضارة الليبية، ص: 147.

إذن **فالليبيـون** لـم تغـب عنهـم الحركـة التنظيميـة في البلـدان المجـاورة **كمصـر** الفرعونيـة **وقرطـاج** الفينيقيـة ؛ أو الأمـم المتوسطيـة **كاليونـان والرومـان**.. إذ أن **المصريين** ـ بحكم العامل الجغرافي ـ كانوا أقرب الأمـم إلى **ليبيـا** ؛ لـذا فالأمثلـة عـلى التواصـل الحاصـل بيـن الأمتيـن كثيـرة.. ومـن الأمثلة الجلية على احتكاك **اللليبيين** وتعايشهم مع الدولة الفرعونية ؛ ما جرى بين سكان هذه البلاد المغربية وبين عدد من **ملـوك مصـر** ؛ الذين نجحوا ـ بعد حروب عديدة ضد **الليبييـن** ـ في ضـم عـدد هـام منهـم ـ بعـد أسرهـم ـ إلى الجيـش المصـري كجنـود مرتزقـة ؛ ثـم قامـوا بتوطينهـم في **الدلتا** ؛ لإغرائهم على البقاء في خدمة الدولة. [1]

ـ مناوشات ضد مصر:

وكمـا هـو معـروف عنـد الباحثيـن المتخصصيـن ؛ فقـد ظـل الليبيـون القدمـاء زمنـاً طويـلاً مهتميـن بـأرض النيـل الخصبـة ، يتربصـون الفـرص المواتيـة للانقضـاض عليهـا. والأمـر المؤكـد ـ حتـى الآن ـ هـو أنهـم قامـوا بغزوات عديدة نحو وادي النيـل بـدءاً بالعصـر الـذي حكمـت فيـه الأسـرة الأولى ؛ أي حـوالي سنـة 3300 ق. م. وهـذا أستـاذ المصريـات "**ت. إريـك بيت** *T. Eric Peet* " كتب قائلاً : ((**وكانت خشية سكان دال النيل على أنفسهم ؛ من ناحية حدودهم الغربية ؛ لا تقل عن خشيتهم من ناحية حدودهم الشرقية ؛ ذلك أنه كان يعيش على هذه الحدود قبائل الشعب اللوبي المختلفة ؛ وليس بينها وبين مصر حاجز صحراوي. ولم يكن الشعب اللوبي يقطن المنطقة الساحلية وحدها ؛ بل كان يسكن الواحات أيضاً ؛ وهي توغل جنوباً في إفريقية. ولعل بعض هذه القبائل اللوبية قد**

---

[1] مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 46 ـ 47. وتاريخ العالم، مج: 1، ص: 702. أنظر أيضاً في المرجع نفسه، (ص: 704) صور بعض اللوحات الموجودة في المعبد النوبي؛ التي يبدو فيها رمسيس الثاني وهو يذبح أسيراً ليبياً ؛ وفي أخرى يظهر وهو يستقبل أسرى ليبيين. وفي (ص: 705) نراه عندما شرع في طعن مقاتل ليبي آخر.

استولى على غرب دال النيل فيما قبل عهد الأسر. وقد كانوا في خلال التاريخ المصري كله متأهبين للتسلل مرة أخرى إلى الأراضي الخصبة ؛ إذا بدرت من مصر بادرة ضعف أو انقسام ؛ ولعلهم كانوا يعدون هذه الأراضي ميراثهم القديم)). [1]

ولعل ما ذكره "**ت. إريك بيت** *T. Eric Peet* " بخصوص الإرث القديم لأولئك **الليبيين** يكون صحيحاً. وبعبارة أخرى ثبوت الوحدة السكانية التي تجمع بين سكان **غرب الدلتا وسكان ليبيا الكبرى**. خاصة إذا علمنا أن بعض **القبائل الليبية** كانت تعيش ـ بالفعل ـ في الأراضي المحاذية لوادي النيل جنوب **منف** ؛ وبالتحديد في **الفيوم**. [2] وثبت ـ أيضاً ـ أن ملوك مصر ؛ في **عصر الأسرات الأولى (أي الدولة القديمة)** ؛ نظموا حملات عسكرية، ورحلات تجارية عديدة نحو البلاد **الليبية.**

ومن الآثار المصرية القديمة التي تسجل الأحداث مع الليبيين لوحة "**نارمر**" ؛ التي يرجع عصره إلى سنة 3200 ق. م. حيث تشخص تلك اللوحة الانتصارات التي حققها فرعون ضدهم ؛ وتسميهم "**التحينو**" *Tehenou* ؛ وكانت اللوحة المذكورة تظهر مقاتلي "**التحينو**" أو **الليبيين** بأسلحتهم المتمثلة في **السهام والعصي القاذفة** *Boomerang* . ويبدو أن اسم "**التحينو**" يخص إحدى القبائل الليبية ؛ ولا يشمل الليبيين كلهم. لأن نصوصاً مصرية أخرى تسمي الليبيين بأسماء مخالفة ؛ مثل "**المشْوش**" *Meshwesh* أو "**مي**" *Mee* (اختصاراً لكلمة مشْوش ؛ وهم القبائل الليبية التابعة للجهات الغربية من ليبيا)، و "**ربو**" *Rebu* (بمعنى الليبيين)، و"**تمح**" أو "**تمح**" *Temeh* أو "**الثمحو**" (وهم قبيلة ليبية في جنوب البلاد)، **والإسبد** *Sped*..

---

[1] تاريخ العالم، مج: 1، ص: 510.
[2] جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص: 29.

وقد أشار الكاهن والمؤرخ المصري **مانيتو** *Manetho* إلى الثورة التي قام بها الليبيون ضد أحد ملوك الأسرة الثالثة [1] اسمه **نفر كارع**. [2] كما أوردت نصوص أخرى أخباراً تفيد أن بعض ملوك الأسرة الرابعة [3] انتصروا على قبائل ليبية تسكن في وادي النيل ؛ وبالتحديد في الفيوم والجهات الجنوبية من **منف** أو **منفيس**. [4] وثمة دلائل أخرى ؛ تؤكد العلاقة بين الليبيين **وملوك الأسرة الرابعة** ؛ إذ تظهر الصور المتوفرة ابنة الملك "**خوفو**" الأميرة "**حتب الثانية**" على جدران المقبرة بشعر أشقر ؛ كان لونه أصفراً مخلوطاً بخطوط حمراء ؛ في الوقت الذي تظهر فيه بقية النساء بشعر أسود معتاد. وعليه ؛ فالأثريون يعتقدون أن اللون الأشقر هذا ؛ وصل إلى مصر بتأثير من الليبيين **"الثمحو أو التمحو"** وهي قبيلة ليبية متواجدة غرب وادي النيل ؛ ولها صلات مع أوروبا ، ويملكون ثروة طائلة من الماشية. [5]

كما تظهر بعض الآثار - أيضاً - صوراً أخرى لمقاتلين ليبيين آخرين ؛ في خضم معارك شنها ضدهم **ملوك الأسرة الخامسة "بمنف"** ؛ في حدود عام 2600 **ق. م**. وذلك بغرض الوقاية ؛ بعد الفتن والاضطرابات التي ظهرت قبل توليهم الحكم. وبالفعل فقد أنهت هجمات أولئك الملوك التحرشات الليبية ، وجمدتها فترة طويلة من الزمن.

وقد وصل إلينا نصاً ؛ كتبه أحد النبلاء المصريين يسمى **حرخوف** ؛ تابع للملك من الأسرة السادسة [6] واصفاً فيه رحلته التجارية ؛ إذ كتب : **((أرسلني جلالته إلى "يام" للمرة الثالثة ؛ فخرجت من مدينة "هو" (؟)**

---

[1] حكمت الأسرة الثالثة في الثلث الأول من الألف الثالثة ق. م.
[2] جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص: 29.
[3] حكمت الأسرة الرابعة ابتداءً من سنة 2700 ق. م.
[4] جرمة من الحضارة الليبية، ص: 29.
[5] الحضارة المصرية، ص: 177.
[6] حكمت الأسرة السادسة في الربع الأخير من الألف الثالثة ق. م.

إلى طريق [واحت *Whet*]؛ ووجدت أن حاكم "يام" كان قد ذهب إلى أرض "الثمح" [التمح *Temeh*] (الليبيين)؛ ليغير على "الثمح"؛ إلى نهاية الركن الغربي من السماء؛ فتبعته إلى أرض "الثمح" وهدأته [أخضعته بالمال أو القوة]؛ **حتى شكر جميع الآلهة؛ حباً في الملك**)).[1]

وتفيد النصوص ـ أيضاً ـ بوجود صلات قديمة جداً؛ لا يمكن تحديد زمنها ببساطة؛ بين الليبيين والأراضي الجنوبية الداخلة في فلك مصر. إذ وردت في النصوص الخاصة بأواخر **الدولة القديمة**؛ [2] أخبار تشير إلى كون بعض البلاد الأجنبية ـ التي لها علاقات تجارية مع مصر ـ تعرضت إلى هزات واضطرابات داخلية؛ الأمر الذي استدعى من مصر القيام بإجراءات عسكرية معينة في النوبة والسودان. وقد وصف الباحث في الآثار المصرية "**چون ولسون**" ذلك بقوله: ((**تلك البلاد التي كانت تسودها حضارة محلية آسنة مستسلمة؛ أيقظتها حضارة بدائية تتفوق عليها؛ انحدرت من الصحراء الكبرى؛ وربما كانت ذات صلة بهؤلاء "الثمح" الليبيين؛ ذوي الشعر الأشقر؛ الذين تحدثنا عنهم**)).[3]

وفي **الدولة الوسطى**؛ [4] اقتضت الأحوال اعتماد سياسة تحرش واستفزاز؛ نحو الجنوب بغرض إخضاعه، ومعالجة بعض المشاكل؛ التي ظهرت هناك؛ مثل: الضغط الصادر عن **ليبيا**، وعن سكان أقصى الجنوب، وبوادر النهضة الثقافية التي برزت في النوبة؛ فكل ذلك أدى إلى ظهور موجة من عدم الاستقرار جنوبي **الشلال الأول**.[5] وامتد تأثير **الليبيين ـ في الدولة الوسطى** ـ عبر المناطق الجنوبية؛ إلى شمال **الشلال**

[1] الحضارة المصرية، ص: 167. أنظر أيضاً جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص: 30.
[2] الدولة القديمة حكمت من 3200 إلى 2111 ق. م.
[3] الحضارة المصرية، ص: 180
[4] قامت من سنة 2111 إلى 1586 ق. م.
[5] الحضارة المصرية، ص: 232.

الثالث؛ إذ أن حضارة سكان تلك المناطق **حضارة حامية**؛ متأثرة **بالصحراء الكبرى والليبيين**.[1] ويبدو أن الليبيين قد استعادوا ـ في أواخر **الدولة الوسطى** ـ عادتهم القديمة؛ الساعية إلى غزو وادي النيل، والتحرش بأرض مصر.

وعلى الرغم من قلة المعلومات الخاصة بالليبيين؛ في عهد "**رمسيس الثاني**" (رعمسيس الثاني)؛ فإن اللوحة المثبتة في معبد الكرنك؛ تؤكد اشتباكه مع الليبيين؛ إذ أن تلك اللوحة توضح ـ من خلال رسم بارز ـ "**رمسيس الثاني**"؛ أثناء شروعه في طعن مقاتل ليبي.[2] كما واجههم ابنه "**مرنبتاح**"؛ أي "**منفتاح** *Ménephtah* " هو الآخر؛ سنة **1230 ق. م.** تقريباً؛ عندما صد هجمات الذين سماهم المصريون بعبارة: ((**الشماليون الذين في جزرهم**))؛ بينما سمتهم كتب التاريخ بـ "**شعوب البحر**"؛ إذ كانت عشائر من الليبيين ـ آنذاك ـ يدعون باسم "**التحينو** *Tehenou*" متحالفة معهم وتشاركهم أعمالهم القتالية.[3] وقد انتهت المعركة بهزيمة منكرة لليبيين؛ إذ وصلت خسائرهم في الأرواح زهاء الستة آلاف قتيل؛ والأسرى قد تتعدى التسعة آلاف أسير.[4] ومع هذا؛ يبدو أن هذه الغارة كانت مقدمة لغارات أشد منها؛ ستأتي فيما بعد.[5]

[1] نفسه، ص: 235.
[2] تاريخ العالم، مج : 1، ص: 705.
[3] الحضارة المصرية، ص ص: 405 ـ 406. وذكر الباحث السويسري جورج غيرستر أن ثمة أسطورة فرعونية تقول أن الجيش الفرعوني في الدولة الحديثة؛ وبالتحديد في عام 1229 ق.م غنموا من أيدي زعيم ليبي وأولاده أربع عشرة عربة فردية العجلات. أنظر كتاب الصحراء الكبرى، ص: 54.
[4] الحضارة المصرية، ص ص: 405. 410.
[5] تاريخ العالم، مج : 1، ص: 706.

ولما تولى "**رمسيس الثالث**" (رعمسيس الثالث) الحكم ؛ عاود الليبيون هجماتهم ضد مصر ؛ عدة مرات ؛ ضمن حلف **شعوب البحر**.[1] وكان النصر حليف رمسيس ؛ مرة بعد الأخرى. وخلال ذلك كله كان يأسر منهم أعداداً معتبرة ؛ يحول بعضهم إلى رقيق، ويضم الآخرين إلى جنود في جيشه ؛ حيث قام بتوطينهم في **الدلتا** ؛[2] ذات الخصوبة والثراء. وأبرز تلك المعارك هي التي تكون قد وقعت سنة 1190 ق. م. وتمت بغرض دحر الغزو الرهيب ؛ الذي قامت به "**شعوب البحر**" ؛ بما فيهم قبائل من ليبيا ؛ عرفوا باسم "**المشْوش** *Meshwesh* ". وقد زحف هؤلاء الغزاة بكثافة عظيمة من الشمال ؛ تاركين خلفهم الدمار والفناء.. ولم تنكسر شوكتهم إلا بعد اصطدامهم بالجيش المصري ؛ بقيادة "**رمسيس الثالث**" ؛ حيث مني الغزاة بهزيمة كبرى.

ويرى بعض الباحثين أن هؤلاء **الليبيين** ؛ قدموا من جهات **الأطلس** ؛ ولم يكونوا من القبائل المجاورة للحدود المصرية ؛ بحكم أن أسماءهم تفيد بأنهم "**نوميديون**".[3] وبعد أن حقق "**رمسيس الثالث**"

---

[1] ((ففي السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث 1175 [أو 1187 أو1190 ق.م] أحد فراعنة الأسرة العشرين؛ تعرضت مصر لهجوم بري ـ بحري كبير شنته عليها ثانية بعض "شعوب البحر" من الشرق والشمال. وكانت قد سبقته حملة تأديبية قام بها هذا الفرعون في السنة الخامسة من حكمه؛ أي في عام 1178 على القبائل المتمردة التي تقطن غرب مصر؛ والمعروفة باسم "تحنو" *Tjchnu*، وتشمل الليبيين والمِشْوِش والإسبد *Sped* ، وأعقبته غارة أخرى قام بها الليبيون والمِشْوِش وبعض القبائل المتحالفة معهم على دلتا مصر في السنة الحادية عشرة أي في عام 1172 [ق.م])) التاريخ اليوناني، ج: 2، ص: 787.

[2] وكتب ف. لوولن جريفيت ـ عضو مجمع العلماءالبريطانيين ـ قائلاً : ((خفت الحماسة للحرب؛ وحل محل الجند المصريين أجراء أجانب؛ كانوا يجندون ـ خاصة ـ من بين الذين يطلق عليهم اسم شعوب البحر؛ أي من سكان سواحل البحر المتوسط وجزائره؛ ومن بين العشائر اللوبية؛ جيران مصر في الغرب. وقد طابت لهؤلاء المأجورين الإقامة في أرض مصر، واقتنى زعماؤهم الضياع أو اغتصبوها في الدلتا وغيرها. وقد كانت الصيحة ترتفع ـ أحياناً ـ بطلب طردهم. وكان لـ"مرنفتاح" أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة فضل كبير في إجابة هذه الرغبة مستعيناً بأجراء آخرين. بيد أن الجنود كانوا يزدادون سطوة؛ كما ضعفت الحكومة المصرية. وقد كان الزعماء اللوبيون هم ـ فيما يظهر ـ أجداد أغلب الأسر؛ التي حكمت مصر بعد الأسرة العشرين)). تاريخ العالم، مج: 1، ص: 715.

[3] أنظر تاريخ العالم، مج: 1، ص: 707. و تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 71 ـ 72. أما أرنولد تونبي فيعتقد أنهم من جهات تونس. تاريخ الحضارة الهيلينية، ص: 34.

النصـر ؛ اضطـر إلى توطيـن المقاتليـن **الليبييـن** بالدلتـا ؛ حيـث الأراضـي الخصبة. ومع ذلك ؛ فقد ظلت القبائـل الليبيـة عـلى مـا جبلـت عليـه مـن الفوضى والميل إلى الشغب ؛ على الرغـم مـن حسـن المعاملـة الـتي أبداهـا "**رمسيـس الثالـث**" نحوهـم. [1] وهـذا ـ طبعـاً ـ مـرده إلى روح التمـرد ؛ الـتي تتميز بهمـا البـداوة المشاغبـة.. [2]

وقـدر بعضهـم عـدد الوقائـع الـتي حدثـت بيـن الليبييـن و"**رمسيـس الثالـث**" في الفترة الزمنية المحصـورة بيـن أعـوام 1190 ـ 1185 ق. م. بثـلاث وقائع ؛ كانـت الأولى والثانية متناغمـة مع هجمات "**شعـوب البحـر**" ؛ ثـم أعـاد **الليبيـون** الكـرة ـ بـدون نتيجـة ـ ضـد "**رمسيـس الثالـث**" في العاميـن : الخامس والحـادي عشر من حكمه. وكـان عـلى الملـك المصـري ـ في الموقعـة الأخيرة منهمـا ـ أن يواجه هجرة تامة قامت بهـا **قبائـل مـن غـرب ليبيـا** ؛ عرفـوا باسـم "**المشْـوش** *Meshwesh* " ؛ فصدهـم ملـك مصـر ؛ بعـد أسـر زهـاء ألـفي أسير ؛ من بينهـم سبعمائة امرأة وطفـل. كمـا تقـدر الماشيـة ـ الـتي صادرهـا المصريـون مـن **الليبييـن** ـ بأربعين ألـف رأس مـن الضـأن والمعز. ومـن خـلال هـذا يتبيـن أن حملـة كهـذه لـم تكـن سـوى **هجـرة جماعيـة** إلى الأراضي المصرية الخصبـة. وربمـا كانـت شبيهـة بالهجـرة الهلاليـة نحـو بـلاد المغـرب ، في العهـد الفاطمي.

[1] يقول فيهم جوليان: ((ومهما يكن من أمر؛ فهم الذين أطلق اسمهم على ليبيا، ولعبوا في لتريخ مصر ـ فيما بعد ـ دوراً رئيسياً ؛ متزعمين كتلة غير منسجمة من التهانو *Tehenou* والهنديين الأوروبيين. وفي آخر الأمر اضطر رمسيس الثالث حوالي سنة 1189 ق. م ـ رغم انتصاره عليهم غرب "منف" ـ أن ينزلهم في "عشرات الآلاف" بالدلتا؛ حيث سخروا من مراقبته)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 72. أنظر أيضاً تاريخ العالم، مج: 1، ص ص: 706 ـ 707. ومدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 47 ـ 48. والصحراء الكبرى، ص ص: 54 ـ 55.

[2] كتب ستانلي. أ. كوك. قائلاً : ((وأما الإمبراطورية في الصحراء الغربية أو اللوبية؛ فلا نعلم عنها إلا قليلاً . ولا بد أنها كانت تشتمل على الواحات القريبة؛ التي تدخل ـ بطبيعة موقعها ـ في حدود مصر. إلا أن الجانب اللوبي من الإمبراطورية لم يكن لينتج شيئاً كثيراً مما يهم الفراعنة. بل أن القبائل الرحل كانت تهدد سكان وادي النيل في أوقات الضعف)). تاريخ العالم، مج: 1، ص: 712.

وتقول الوثائق أن الأسرى الليبيين "**المشْوش** *Meshwesh* " سيقوا إلى السخرة؛ كعمال أرقاء في مصر. كما مُنِعُوا من التكلم بلغتهم الأصلية، وَأجْبِرُوا على تعلم اللغة المصرية، والتخاطب بها. وكل هذا ـ طبعاً ـ ساعد على إدماجهم في المجتمع المصري؛ الأمر الذي مهد ـ فيما بعد ـ إلى حصولهم على أرفع المناصب. [1] وتشير الوثائق إلى أن الماشية المصادرة؛ قدم منها حوالي الثلثين إلى معبد **أمون**: ((**28337 حيواناً من بين التي استولى عليها سيف جلالته القوي من المشوش المهزومين؛ وجعل منها قطعاناً؛ قدمها مرة أخرى إلى أبيه أمون رع؛ ملك الآلهة**)). [2] كما قدرت الوصية المخصصة للمعابد؛ المكتوبة في "**بردية هاريس**" عدد الماشية ـ الكبيرة والصغيرة ـ التي يملكها **أمون** بأكثر من 400.000 رأس، كان 971 من الليبيين "**المشْوش**" يرعون أحد قطعانها. [3]

ـ النتائج المحققة تجاه مصر:

وإذا كانت النصوص الفرعونية ـ كلها ـ تفيد بفشل هجمات القبائل الليبية؛ في الغزوات بكاملها؛ التي شنتها على وادي النيل؛ فإن نتائج تلك الوقائع كانت تؤدي ـ دوماً ـ إلى أسر أعداد كبيرة من الليبيين، وتجنيد بعضهم في الجيش المصري كمرتزقة؛ بينما يساق الآخرون إلى أعمال السخرة في الأراضي والمعابد. وقد ثبت ـ بالفعل ـ أن **الأسرة السادسة** استخدمت مرتزقة ليبيين في الهجوم على مناطق آسيوية. [4]

ويبدو أن الليبيين في مصر تكاثروا؛ وأصبحوا ـ في **أواخر الدولة** ـ مصدر قلق واضطراب داخل مصر. ولما دب الوهن في مؤسسات الدولة؛ مرت بعهد "**رمسيس التاسع**" أيام أليمة، شديدة الوطء، ثقيلة

---

[1] الحضارة المصرية، ص: 413. 429.

[2] نفسه، ص: 429.

[3] نفسه، ص: 429.

[4] نفسه، ص: 234.

التكاليف ؛ تحول فيها الأجانب والمرتزقة إلى عصابات رهيبة، تنشر الرعب والفساد عبر البلاد كلها. وقد سجلت الوثائق تهماً واضحة لليبيين ؛ ممن سمتهم بـ (**ربو** *Rebu*)، أو **المشْوش**. وكلهم كانوا ـ على ما يبدو ـ من الجنود المرتزقة ؛ ممن جندوا بعد أسرهم في المعارك المختلفة. إذ اضطرتهم الظروف الجديدة المتصفة بالركود، وانعدام الحروب، وشح العمل ؛ إلى محاولة كسب قوتهم عن طريق اللصوصية، والاغتصاب.[1] غير أن هذه الفترة الزمنية مهدت لظهور **الليبيين** في مسرح الأحداث بمصر ؛ ضمن ثوب جديد. بحكم أنهم غدوا مصريين بالأقدمية.

وهنا ؛ لا بد من التساؤل عن السبب الذي كان وراء فشل **الليبيين** في هجماتهم كلها ضد مصر آنذاك ؛ مع أنهم كانوا يتصفون بالبسالة، والشجاعة وشدة البأس.. وهذا الأمر ـ طبعاً ـ جعل ملوك مصر يسعون لاسترضائهم، وتجنيدهم ضمن القوات النظامية الفرعونية ؛ وتشجيعهم على الاستيطان في أخصب مناطق مصر.. والجواب على هذا ؛ يؤكد أن النظم العسكرية القبلية ؛ ليست قادرة على مواجهة النظم العسكرية ؛ في ظل دولة قوية بمؤسساتها وقوانينها، وغنية بثرواتها ورجالها وإنجازاتها.. فهجمات الليبيين كلها ؛ لم تكن في مستوى وفعالية دفاعات الدولة المصرية، ولا هجمات جيشها المنضبط والخاضع لقيادة موحدة.

لذا فإنه ـ بعد استقرار أولئك البدو من الليبيين في مصر، وبعد مرور نحو **قرنين وأكثر** من الزمن ـ انصهروا وذابوا في بوتقة الحضارة المصرية ؛ وهضموا نظم الدولة واستوعبوها. وبذلك تمكنوا من الوصول إلى قمة السلطة في الديار المصرية ؛ إذ استلوا على عرش البلاد تدريجياً، حيث تكونت منهم الأسرة الفرعونية **الثانية والعشرون** والثالثة والعشرون

[1] الحضارة المصرية، ص: 445.

بعدها ؛ [1] وعلى رأسها "**ششنق الأول**" ؛ متخذاً من مدينة **بوبسطة** (الزقازيق الحالية) حاضرة له ؛ وذلك في سنة 950 ق. م. [2]

ـ ليبيون فراعنة :

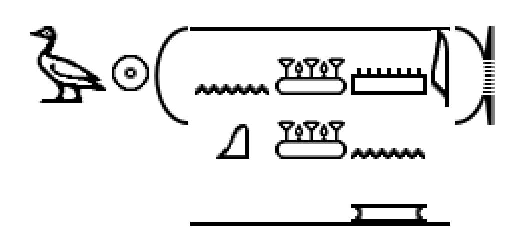
ورد في الآثار المصرية أسماء هؤلاء الملوك ؛ ذوي الأصول **الليبية** ؛ مصنفين ضمن أسر مالكة ؛ (هي الأسرة 22 والأسرة 23 ؛ فكانت سنوات حكمهما تقترب من 250 سنة..). وذلك كما جرى عليه حال فراعنة مصر ؛ فرُتِب ملوك الأسرة الثانية والعشرون كما يلي :

---

[1] شرح چون ولسون الكيفية التي وصلت بها هذه الأسرة الليبية إلى حكم مصر بقوله: ((وشهد هذا العصر بدء ظهور قوة جديدة؛ وهي عائلة ليبية الأصل؛ كانت قد استقرت في منطقة الفيوم، في أواخر الأسرة العشرين. استقر أحد الليبيين في منطقة هيراقليوپوليس (أهناسيا) في الفيوم؛ وكان له اسم أجنبي ينطق "بويو واوا" أو "بويواو" *Buyuwawa* [أو] *Beywaaw* . وأنجب هذا الرجل ذرية كبيرة؛ وقد خدم خمسة أجيال منهم كهنة في معبد الإله حرخپشف *Harsaphes*. وبالرغم من مضي ذلك الوقت الطويل عليهم في البلاد؛ فإنهم ظلوا متمسكين بلقب كانوا يتوارثونه؛ وهو زعيم "مي" العظيم؛ ويقصدون من "مي" قبائل المشْوش التي كانت تقطن غرب ليبيا.وربما كانوا في الأصل جنوداً مرتزقة، استقروا في مصر؛ عندما انسحبت من امبراطوريتها. وحوالي 950 ق. م. امتد نفوذ أحد هؤلاء الأمراء جنوباً إلى أبيدوس، وكان له من النفوذ ما جعل آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين يدعوه "للمشاركة في أعياد جلالته، وتلقي المجد معاً". وقد أحسن الملك احترامه لهذا الأمير الليبي ـ المصري الذي يدعى ششنق *Sheshonk* ؛ لأنه لم تمض غير سنوات قلائل حتى استولى ذلك الأمير على عرش مصر، وبدأ الأسرة الثانية والعشرين. وبدأت تلك الأسرة عهدها بنشاط كبير، وتطلعت نحو المجد؛ فقامت بحملة حربية على فلسطين؛ ولكن الركود أصابها بعد ذلك؛ وكان يعقبه ـ من آن لآخر ـ بعض ما يظهر في البلاد من حروب أهلية، أو محاولات انفصالية أخذت تزداد مع الأيام)). الحضارة المصرية، ص ص: 461 ـ 462.

[2] راجع الفصل الأول؛ من الباب الثالث؛ من كتاب نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، (مصر)، ج: 2، ص ص: 307 ـ 340. من ذلك قوله: ((وأغلب الظن؛ أن ششنق استطاع أن يصل إلى العرش في بوبسطة [الزقازيق الحالية] "في شرق الدلتا"؛ حوالي عام 950 ق. م. وكان ذلك إما نتيجة لانسحاب آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين؛ وإما نتيجة لوفاته، وانقراض ذريته، وعدم وجود وريث مباشر له؛ كما سلفت الإشارة إلى ذلك. وهو يعتبر ـ على أية حال ـ مؤسساً لأسرة جديدة؛ هي الأسرة الثانية والعشرون. وهكذا نرى الليبيين ـ المتمصرين على كل حال ـ يتربعون على عرش مصر بغير عناء، وبغير حاجة إلى امتشاق الحسام؛ بعد مضي ما يقرب من 210 سنة من وفاة رعمسيس الثالث)). ص ص: 311 ـ 312. أنظر أيضاً كتاب تاريخ العالم، مج: 1، ص 709. وتاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 72. ومدنية المغرب العربي في التاريخ، ص: 48. كتاب علي فهمي خشيم، سفر العرب الأمازيغ، (كتاب الأعلام ـ 5 ـ)، ص ص: 56 ـ 71.

ـ ***ششنق الأول ابن نمروت*** (أو شاشانق أو شيشاق) *Shosheng* ـ *Shishak* : (950 ـ 730 ق. م) عرف لدى الإغريق باسم (سوساكوس)، وفي التوراة شيشق. وفي الآثار المصرية كتب اسمه هكذا:



وششنق الأول هو مؤسس الأسرة الثانية والعشرين؛ وينتمي للقبيلة الليبية المسماة المشْوَشْ. ومنذ أن تولى الحكم سارع إلى إخضاع صعيد مصر والدلتا. كما أسند خطة الكاهن الأعظم في معبد آمون بطيبة إلى ابنه أوبوت *Iuput*. الأمر الذي ساعده في بسط نفوذه على التراب المصري بكامله. بعد أن رأب الصدع، ولَمَّ شتات البلاد، وضبط النظام فيها؛ إذ أعلنها حرباً على الفساد والتسيب؛ فأعاد للدولة هيبتها، وكبح أطماع أعدائها.

وبعد ذلك جرّد الجيوش لتأديب المتآمرين والمتحرشين بملكه.. ولم يمض وقت طويل؛ حتى أضحت دولته تحظى بولاء **ليبيا والسودان ومصر**؛ ثم اضاف **فلسطين** و**سوريا**.. وبذلك يكون قد اعتلى عرش إمبراطورية مترامية الأطراف. وهذه الأقوال أثبتتها النصوص الهيروغليفية المنحوتة؛ في معبد الكرنك؛ والتي تسجل ما أرسلته تلك الديار الخاضعة له؛ من حمولات الجزية..

ولما تمكن **ششنق** من تحقيق اكتفاء مادي عظيم.. جراء حصوله على الثروة المطلوبة ؛ تحول نحو التشييد والعمران ؛ حيث حقق برنامجاً عمرانياً واسعاً ؛ ما زالت آثاره ماثلة إلى الآن.. من ذلك البوابة المسماة باسمه ((**بوابة شوشنق**)) ؛ فيما يعرف ببهو الأعمدة بطيبة.. على أن هذه البوابة كانت تسمى في وقت ششنق ((بوابة النصر)).

بوابة شوشنق



وقد نقشت على هذه البوابة أخبار انتصاراته في **فلسطين**. كما نقشت أيضاً على جدار معبد الكرنك الانتصارات الساحقة التي حققها **ششنق** على دولة إسرائيل في وقته بفلسطين. وتشير تلك النقوش المنحوتة على جدار معبد الكرنك أن ششنق هاجم فلسطين بكاملها ؛ حيث أخضع مدنها كلها ؛ وتعدادها 156 مدينة. وما زالت نقوش الكرنك ماثلة للعيان ؛ على الحائط الجنوبي ؛ من الجهة الخارجية ؛ بحيث لاحظ بعضهم أنها انتشرت حتى شوهت، وغطت ـ بشكل متعمد ـ الرسوم العسكرية الخاصة بانتصارات **رمسيس الثاني** على **الليبيين**..

ركن من الكرنك يحمل اسم شوشنق *Shosheng* الأول وابنه الكاهن أوبوت *Iuput*



والسبب في هجوم **ششنق** على **فلسطين**؛ هو أن فرعون مصر (**بسوسنس الثاني**؛ آخر ملوك الأسرة 21)؛ الذي سبقه؛ اضطر ـ نتيجة لضعف دولته ـ إلى مهادنة إسرائيل؛ وعقد معها معاهدة صلح مهينة لمصر. وهذا ما لم يقبل به **ششنق**؛ عندها عاد الصراع بينهما من جديد؛ إذ شرع ششنق ـ في بداية الأمر ـ بمحالفة أعداء سيدنا **سليمان** عليه السلام؛ من القبائل المناوئة له؛ مثل **يبرعام** زعيم قبيلة **أفرايم**. وبموت سيدنا سليمان وتولي ابنه **رَحُبْعام**؛ شنّ **ششنق** حرباً شعواء ضدّ **إسرائيل**؛ فاحتل عام 927 ق. م **فلسطين والشام**، واكتسح **بيت المقدس**، وهدم معالمها، الدينية؛ ثم استولى على كنوزها وذخائرها..

وطبعاً؛ وردت هذه الأخبار موثقة في التوراة؛ حيث سمي فيها الفرعون الليبي ششنق باسم ((**شيشق**)). وجاء في (باب الملوك الأول، الإصحاح: 14) ما يلي: ((**وفي السنة الخامسة للملك رَحُبْعام صعد سيشق ملك مصر إلى أورشليم؛ وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها**

سليمان. فعمل الملك رَحُبْعام أتراس نحاس؛ وسلَّمَها ليد رؤساء السعاة الحافظين باب بيت الملك)). ويتضح من هذا النص وغيره أن شيشنق اكتفى بإخضاع إسرائيل؛ وفرض الجزية عليها..

ـ ***وسركون الأول*** Uasorkon**:** (929 ـ 893 ق. م). وهو زوج ابنة "**پاسبا خع أن نيوت**" آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين. وأخوه هو كاهن طيبة "**أيوپوت**". وبعد موت "**أيوپوت**" خلفه ابن الملك **وسركون الأول** المدعو "**ششنق**".

ـ ***ثكرتي "تاكلوت" الأول*** Takelot **:** (893 ـ 870 ق. م). تولى الحكم بعد موت والده الملك "**وسركون الأول**". وأمه ليبية تدعى "**شـپسس**". وكان ـ طوال مدة حكمه التي دامت 23 سنة ـ في صراع دائم مع أخيه **ششنق** كاهن طيبة.

ـ ***وسركون الثاني***: (870 ـ 847 ق. م). أشركه والده "**ثكرتي الأول**" في الحكم أيام حياته، وخلفه بعد مماته في سدة الحكم. وقد وجد منقوشاً ـ على تمثاله في **تانيس** ـ دعاء وتضرع إلى آلهته كي تخلد ذريته في الحكم، وكي تمنحهم السلطة على كهنة **أمون**، ورؤساء **المشوش** العظام. وقد سارع ـ لكي يدعم سلطانه ـ إلى تعيين ابنه "**نمروت**" أو "**نمرات**" رئساً لكهنة **أمون**. وقضى وقتاً كبيراً في بناء الهياكل والصروح. ومن أهم إنجازاته الحضارية التي أعجب بها **هيرودوت**؛ هو معبد "**باست**"إذ قال فيه: ((**إن معابد أخرى قد تكون أضخم حجماً، وقد تكون تكلف نفقات أكثر؛ ولكن ليس هناك ما هو أجمل من معبد بوبسطة**)). [1] وفي أواخر أيام حكمه أشرك ابنه "**ششنق الثاني**" في الحكم غير أنه مات قبل والده.

[1] مصر والشرق الأدنى (مصر) ج: 2، ص: 325.

ـ **ششنق الثاني**: (847 ق.م.ـ ؟؟). شارك والده "**وسركن الثاني**" الحكم فترة قصيرة، ثم توفي.

ـ **ثكرتي الثاني**: (847 ـ 823 ق. م). لما توفي "**ششنق الثاني**" في حياة أبيه؛ أشرك هذا الأخير ابنه الآخر المدعو "**ثكرتي**" في الحكم؛ ولما مات "**وسركن الثاني**" انفرد "**ثكرتي الثاني**" بالحكم. فدام حكمه 25 سنة تقريباً. وقد تميز عصر هذا الملك بالفتن والاضطرابات؛ التي كانت تحدث بين أعضاء الأسرة. وتزوج "**ثكرتي الثاني**" من ابنة أخيه "**نمرات أو نمروت**" كبير كهنة **أمون**. الأمر الذي مكنه ـ بعد موت أخيه "**نمرات**".ـ من تنصيب ابنه "**وسركن الثالث**" في تلك الخطة، وجعله قائداً أعلى للجيش، ومنحه لقب رئيس الأرض كلها، وسيد الجنوب. وقد بقي في رتبة الكاهن الأعظم أثناء حكم "**ششنق الثالث**"؛ مع بعض الانقطاعات؛ بسبب خلافات وفتن حدثت في عهد "**ششنق الثالث**".

ـ **ششنق الثالث**: (823 ـ 772 ق. م). حكم البلاد زهاء 52 سنة؛ وكانت سنوات حكمه مليئة بالاضطرابات والفتن والمؤامرات. وفي وقته أخذت الدولة طريقها نحو الضعف والإنقسام.

ـ **پاماي** *Pe-mai*: (القط) (772 ـ 767 ق. م). حكم مدة ست سنوات تقريباً؛ ثم انتقل الأمر بعده إلى "**ششنق الرابع**".

ـ **ششنق الرابع**: (767 ـ 730 ق. م). [1] حكم زهاء 37 سنة.

&&&

وعلى الرغم من الغموض السائد، وما يمكن أن يحدث من التباس؛ فإن ما ورد حتى الآن يدل على أن الملوك الليبيين من الأسرة الثالثة والعشرين هم:

---

[1] مصر والشرق الأدنى (مصر) ج: 2، ص: 311.

ـ پـادي باسـت Bady - Bast **:** (817 ـ 763 ق. م).

ـ ششنـق الرابـع: (763 ـ 757 ق. م).

ـ وسركـن الثالـث: (757 ـ 748 ق. م). هـو أول مـن وضـع امرأة في وظيفـة كهنوتيـة ؛ إذ عيـن ابنتـه "**ويـپـة**" "مشرفـة علـى إيـرادات **أمـون رع**، وترجمانـاً لرغباتـه".

ـ ثكـرتي الثالـث: وهـو ابـن **وسركـن الثالـث**. وقـد سـار عـلـى نهـج أبيـه ؛ فأسنـد الوظيفـة الكهنوتيـة نفسهـا بعـد أختـه "**ويـپـة**" إلى "**أمنريـد**" (**أمونورتايس**).

ـ أمنـرود Amen – Rwdj **:** (748 ـ 730 ق. م).

ـ وسركـن الرابـع:

وكمـا تـرى ؛ فالاضطـراب والغمـوض باديـاً عـلى هـذه القائمـة الملكيـة الأخيرة. ومـع ذلـك ؛ لا سبيـل أمامنـا سـوى عرضهـا كمـا وردت في المصـادر الموثقـة. أضـف إلى هـذا ؛ وجـود أسمـاء أخـرى للأسـرة الثالثـة والعشريـن ؛ ذكرهـا الكاهـن والمؤرخ المصـري "**مانيتـو**" ؛ مثـل:

ـ پتوباستـس: يقـول مانيتـو أنـه أول ملـك في الأسـرة الثالثـة والعشريـن. ويقـول أيضـاً أنـه حكـم زهـاء 40 سنـة. وفي قـول آخـر 25 سنـة.

ـ بسامـوس: هـذا الملك غيـر معروف بشكـل كـافي.

ـ زت: يرى بعضهـم احتمـال حصـول تحريـف في اسـم هـذا الملـك.



الصلات مع اليونانيين

قبل أن ننتقل إلى العلاقة مع الفينيقيين يستحسن الإشارة ـ بإيجاز ـ للصلات التي نشأت بين **الليبيين واليونانيين** ؛ حتى نتمكن من الإجابة ـ ما أمكن ـ على مدى استيعابهم للحضارة **الهللينية** ونظمها ؛ وذلك على الرغم من الغموض الذي يغلف هذا الجانب.. ومع هذا يمكن معرفة الموضوع من خلال ما كان يجري بين **الليبيين واليونانيين** المستعمرين لمنطقة : **قريني وبرقة** ؛ إذ شيدوا في تلك الجهات خمس مدن إغريقية. [1] كما أن ثمة ملامح لعلاقة ما بين الشعبين في منطقة **فزان**. [2] هذا بالإضافة إلى ما هو معروف من علامات تؤكد الصلات التجارية بين مدن الساحل الشمالي لبلاد المغرب وبلاد الإغريق ؛ من ذلك ـ على سبيل المثال ـ مدينة **الصخيرة** ؛ [3] القريبة من مدينة **قابس**، بالإضافة إلى **طبرقة**. [4]

[1] يقول أرنولد توينبي: ((وأما عن مجموعة المستعمرات الهيلينية في "قريني" *Cyrene* فقد أقامها هناك رواد شجعان قدموا من جزيرة ثيرا *Thera*)). تاريخ الحضارة الهيلينية، ص: 49.أنظر أيضاً تاريخ شمال إفريقيا، ج: 1، ص ص: 72 ـ 74. 89. ومدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 52. جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص: 35. قصة الحضارة، ج: 6، ص: 315.

[2] 38 - 36 : *LE PASSÉ DE L'AFRIQUE DU NORD, PP*. جرمة من تاريخ الحضارة الليبية. ص ص: 34 ـ 39. 131 ـ 133. 142 ـ 143.

[3] اختلطت الحقيقة مع الأسطورة بالنسبة للصخيرة؛ إذ يعتقد بعضهم أن هذه المدينة أنشأها جماعة من بحر إيجة وسموها على اسم جزيرتهم المعروفة قديماً بـ "قرقيرة" *Kerkyra* أو *Corcyre*. ثم تحولت إلى "الصقيرة" التي جاء منها الفياسيين *Phéaciens* ؛ وبعد ذلك عرفت بـ "الصخيرة". وهي التي يقولون أنها بنيت من طرف أولئك الفياسيين؛ الذين عرفوا فما بعد باسم زواغة. المهم من ذلك كله ليس الأسطورة في حد ذاتها؛ إنما المهم هو أن علاقة ما كانت بين السواحل التونسية وبلاد اليونان. أنظر مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 50 ـ 51.

[4] ثبت من بعض المخلفات الأثرية وجود صلات ما؛ بين اليونانيين ومنطقة طبرقة في عصر قديم؛ من ذلك ما وجد من رسوم في غابة مقنة *Makna* شرقي طبرقة؛ نسبت إلى بحارة يونانيين. أنظر مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 50 56. واللوحة رقم 13 من الكتاب نفسه.

أما "**قريـني**" *Cyrene* المتواجـدة في المنطقـة المعروفـة الآن ببرقـة ؛ هـي أهـم معلـم يبرز جسر الحضارة **الهللينية** في بـلاد المغـرب. إذ تمكـن اليونانيـون مــن الاستقــرار في تلــك الجهــات ؛ وبنــاء مستعمــرات فلاحيـــة وتجاريـــة نشطة. [1] وقـد ذكـر **ول ديورنـت** أن جالية كبيرة من **الدوريـيــن اليونانيـيــن** ؛ وهـم أهـل "**ثيرا**" نزحـوا إلى ساحـل شمـال إفريقيـة في سنـة 630 ق. م. أيـن شيدوا مدناً عامرة في **قريـني** *Cyrene* ؛ المتواجـدة في منتصـف الطريـق بيـن **مصر وقرطـاج** ؛ الأمر الـذي ساعدهـم علـى السيطرة على التجارة. كما أن موقعهــم الموجــود عــلى حافــة الصحــراء تميــز بخصوبــة الأرض وغــزارة الأمطـار ؛ حيث وصـف بعضهـم غزارة الأمطـار بقولـه : إن فوقهـم فتحـة في السماء ينهـال منهـا المطر. وبذلـك تمكـن اليونانيـون مـن الاستفـادة مـن تلـك الأرض الخصبــة ؛ حيـــن استخدموهـــا للـــرعي ؛ والتجـــارة بالأصـــواف والجلــود ؛ بالإضافــة إلى زراعــة "**السلفيــون" أو نبــات كــف العــروس ؛ (الحلتيـت)** ؛ وهـي عشبة طبية. أو تابـلٌ يكثر عليـه الطلـب في بـلاد اليونـان كلهـا. [2] ((**وارتقـوا بحرفهـم اليدويـة إلى حـد جعـل المزهريات القرينيـة مـن أحســن مزهريــات العالــم. وانتفعــت المدينــة بثروتهــا عــلى خيــر وجــه وأحكمــه، وازدانــت بالحدائــق الغنــاء، وبأعظــم الهياكــل والتماثيــل، وحلبـات الألعـاب. وفيهـا ولد أرستبوس** ***Aristippus*** **أول فيلسوف أبيقوري ذائع الصيت ؛ وإليها عاد بعد تجوال طويل ؛ ليؤسس المدرسة القرينية**)). [3]

---

[1] ((وأنشـأ المستعمـرون اليونـان مدنـاً زاهـرة في قريـني *Cyrene* بشمـال إفريقيـا، وفي نقراطـس بـدال النيـل)) قصـة الحضـارة، ج : 6، ص: 9.

[2] ذكـر صاحـب كتـاب مدنيـة المغـرب العـربي في التاريـخ أن: ((سفنهـم كانـت تـأتي بلادنـا الليبيـة لتتـزود مـن نبــات "السلفيــون" أو نبــات كــف العــروس؛ وكانــوا يزرعونــه، ويهتمــون بشأنــه لخصائصـه الطبيـة. فهـذا النبـات ـ الـذي هـو مـن نـوع النباتـات الخيميــة ـ يخــرج مــادة صمغيــة قويـة الرائحـة تسـمى "الحلتيـت"؛ كانـت تستعمـل في القديـم للتـداوي؛ وهي مـا زالــت مستعملــة عندنـا إلى الآن لطـرد الريـح عنـد الصغـار؛ ونسميهـا "الحنتيـت")). ص: 50.

[3] قصـة الحضـارة ج:6، ص: 315.

ومن **"قرينيي"** انطلقت الحركة التجارية والأنشطة الحضارية **الهللينية** في اتجاه الغرب ؛ أين تتواجد **الصخيرة وطبرقة**. كما امتد نشاط اليونانيين عبر الجنوب الغربي ؛ حيث تربض معالم **فزان**.[1] وقد حدث ذلك كله بفضل التعاون والتحالف الحاصل بين **الليبيين واليونانيين**. وذلك عندما اشترك اليونانيون مع الليبيين في الغزوات ضد مصر ؛ المعروفة بغزوات **"شعوب البحر"**.[2] إذ كان الآخيون **(الأكيواشا** *Akaiwasha* **)** ـ وهم على الأرجح فئة من الشعب اليوناني ـ من بين تلك الشعوب.[3] وتقول النصوص أن هؤلاء **الآخيين** عبارة عن **قبيلة يونانية** سكنت ـ في القرنين: الرابع عشر والثالث عشر ق. م ـ في **تساليا وبلوبونيز** ؛ حيث اختلط أعضاؤها بالسكان الأول **(البلسجيين والمسينيين)** ؛ الأمر الذي أوصلهم إلى أعلى المراتب ؛ إذ استحوذوا على الحكم في تلك الديار.[4]

---

[1] ويمكن الاستدلال على ذلك؛ من خلال رسوم التاسيلي؛ التي تشبه رسوم كريت، وربما آشور. أنظر كتاب الصحراء الكبرى، ص:45. وكتاب جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص ص: 34 ـ 39.

[2] وثمة عدة دلائل تربط بين سكان بلاد اليونان والليبيين؛ منها: ((الدليل قد قام على أن الليبيين الذين كانوا دائمي الإغارة على حدود مصر الغربية كانوا يستخدمون الخيول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد... ويظهر مثل هذا الدليل؛ أن الحصان والعربة قد وصلا إلى البلاد الواقعة إلى الغرب من مصر؛ لا من وادي النيل؛ بل من الشمال. ففي القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد جاءت موجة من الشعوب؛ التي تسمى بالبحرية؛ مقتحمة حوض البحر المتوسط؛ وقادمة من البحر الأسود. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الأقوام قد هبطوا في برقة؛ وكانوا مسئولين عن دفع الليبيين شرقاً؛ ضد مصر. ومن المحتمل أن يكون "القرامنت" قد شكلوا جزءاً من هذا الغزو. ويوضح هذا الافتراض الملامح البحر ـ متوسطية في الصخور الصحراوية القرامنتية: كملابس الرجال والنساء، وأفخاذ سائقي العربات الضيقة وأكتافهم العريضة، وكذلك الجياد وهي في حالة غارة)). الصحراء الكبرى، ص ص: 54 ـ 55.أنظر أيضاً *LE PASSÉ DE L'AFRIQUE DU NORD, PP* : 36 - 37.

[3] ((وورد في سجل مصري يرجع إلى حوالي عام 1221 ق.م أن الأكيواشا *Akaiwasha* انضموا إلى غيرهم من "شعوب البحر" في غارة لوبية على مصر؛ ويصفهم بأنهم عصابات رحل "يقاتلون ليشبعوا بطونهم"... والآخيون ـ كما يصفهم هومر في شعره ـ شعب يتكلم اللغة اليونانية، يسكن جنوب تساليا؛ وإذا كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية؛ فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان؛ الذين حاربوا في طروادة)) قصة الحضارة، ج: 6، ص: 74.

[4] قصة الحضارة، ج: 6، ص: 76. وفي موضع آخر يقول ول ديورنت: ((وسواء أكانت هذه الجماعة تضم أو لا تضم بعض الآخيين؛ فإن هذا التحالف الواسع النطاق بين "شعوب البحر"؛ التي ساعدت ملك الليبيين؛ لينهض دليلاً على اضطراب الأحوال ـ بشكل خطير ـ

وثمة نصوص أخرى تشير إلى قدم العلاقات بين الليبيين وجزر بحر إيجة ؛ إذ يحتمل أن تصل إلى ما بعد 2500 ق.م. من ذلك ميل بعضهم إلى التأكيد على استيطان فئة من **الليبيين** في جزيرة **كريت** منذ عام 2500ق.م تقريباً ؛ أي في فترة متزامنة مع هجرة **المينوسيين** ؛ أي سكان كريت ؛ أصحاب الحضارة المينوية ، وأتباع مينوس *Minos* ؛ وهو لقب خاص بملوكهم ؛ كـ: **فرعون، وكسرى، وقيصر**.. [1] إذن فكريت تكون قد استقبلت أفواجاً من المهاجرين **الليبيين** في زمن قديم جداً ؛ سبق الهجرة **اليونانية** والهجرة **الفينيقية** إلى بلاد المغرب. ومن هنا يتضح مدى الصلات بين سكان بحر إيجة والليبيين. وقد تكون تلك الصلات هي الباعث على عقد حلف مع تلك الشعوب المسماة "**بشعوب البحر**".

وإذا علمنا مدى الروابط والصلات بين **اليونانيين** عموماً و**الليبيين** ؛ فكيف نفسر التباين بين الطرفين ؛ في ابتكار النظم الاجتماعية والسياسية..؟ فإن كان **الليبيون** قد جمدت حركتهم الاجتماعية عند حدود القبيلة والأحلاف القبلية ؛ فإن **اليونانيين** طوروا نظمهم شيئاً فشيئاً ؛ من النظم العشائرية ؛ إلى نظم أسمى وأرقى ؛ حيث تخلصوا من بداوتهم ، [2] وتدرجوا من الشكل العشائري ، إلى صورة دولة المدينة ؛ ذات القوانين والأعراف القاطعة.. إذن ؛ كيف حدث ذلك التطور في بلاد اليونان..؟

في النصف الشرقي من البحر المتوسط. ولم يكن هذا الهجوم الذي شنته "شعوب البحر" على دلتا مصر من الشمال الغربي، وبلغت فرع النيل الكانوبي (؟؟)؛ لم يكن مجرد غارة هدفها السلب والنهب؛ بل كان غزواً؛ هدفه البحث عن مأوى دائم في موطن جديد. لقد أحضر ملك الليبيين وحلفاؤه أزواجهم وأبناءهم معهم، وماشيتهم، ووفرة من عتادهم العسكري، وأدواتهم الأخرى. وكانت الفاقة هي التي حفزتهم على المغامرة؛ التي أحبطها فرعون مصر؛ في معركة لم تستغرق سوى بضع ساعات؛ قتل فيها من الليبيين ما يزيد على 6000 رجل، ومن حلفائهم مئات كثيرة؛ فضلاً عن وقوع ما يزيد على 9000 مقاتل في الأسر؛ وإن تكن الرواية ـ كالعادة لا تخلو من المغالاة والتهويل)). التاريخ اليوناني، ج: 2، ص: 786.

[1] التاريخ اليوناني، ج :1، ص ص: 88 ـ 89.

[2] يقول ول ديورنت: ((قد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متنقلاً ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم)). قصة الحضارة، ج: 6، ص: 234.

ـ الحكم لدى الإغريق:

لقد كان النظام القبلي هو السائد في شبه الجزيرة اليونانية ؛ منذ بداية هجرة الشعوب التي عرفت "**باليونيين والهلليين**" [1] و"**الإغريق**" فيما بعد. والخطوة الأولى في مسيرتهم الحضارية ـ على ما يبدو ـ كانت هي دولة القرية أو المدينة" إذ تشكلت في رحم القبيلة أساساً ؛ حيث أضحت **أقسام القبيلة** ؛ أقساماً تلقائية **لدولة المدينة**. حدث ذلك في السياق الطبيعي لعهد الهجرة المهيمنة فيه : **القبائل** ***Phylae*** **والبطون** ***Phratriae*** ذات الطابع الأسري المتميز بالروح العسكرية. وبعدها تمكنت النزعة الفردية من زحزحت الدور الاجتماعي والسياسي للقبيلة والعشيرة. وتم هذا نتيجة لحب الاستقرار، وتهيئة المدن، وبروز الملكية الخاصة للأراضي ؛ بعد أن استبعدت القبيلة والعشيرة من حقها في ذلك. [2]

وَتَـدَرَّجَ الحال بهم منذ عهد الهجرة ؛ إذ شرعت طبقة النبلاء *Eupatridae* في الابتعاد عن بقية الجماعة ؛ حيث شكلت فئة مميزة لها ؛ مستندة إلى روح الزمالة والإخاء *Hetaireia* ؛ ويتجلى ذلك ـ بالخصوص ـ في تلك الزمالة التي تتشكل في ميادين القتال. ويرى الباحثون أن هذه الفئة وقفت في وجه المشاريع التي توحي بأي تنظيم شامل للمجتمع في أطره السياسية والإقليمية. غير أن هذا المجتمع الأرستقراطي استطاع أن

---

[1] ومن الواضح هنا أن الهيللينيين كانوا في البداية يعتمدون على شجرة الأنساب كرابط اجتماعي؛ مثلهم مثل غيرهم من العرب والأمازيغ: ((تناسلت من هِلّـِن *Hellen* بن ديوكاليون *Deucalion* جميع القبائل اليونانية، واشتق من اسمه هلّـِين *Hellenes* اسم هذه القبائل مجتمعة وكان هِلّـِن جد أخيوس *Acheus* وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية)) قصة الحضارة، ج: 6، ص: 79.

[2] ((وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد. وكان الأب هو الذي يشرف عليها ويصرف شئونها. ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها. وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة "الدومين"؛ وكانت في واقع الأمر ملكاً للمجتمع؛ يستطيع أي إنسان أن يرعى فيها ماشيته؛ ونرى في الأوديسة أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت؛ أو أصبحت ملكاً للأفراد الأثرياء أو الأقوياء؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة في بلاد اليونان القديمة)). قصة الحضارة، ج: 6، ص ص: 88 ـ 98.

يفرز **العشيـرة "*Genos*"** الـتي تجلـت في ملاحـم **هوميـروس** ؛ حيـث كـان القانـون الأسـري يهيمـن علـى الجماعـة المستقـرة ضمـن الدولـة الناميـة تباعـاً.

وكانـت العشيـرة اليونانيـة تتشكـل مـن مجموعـة مـن الأفـراد الذيـن يعتقـدون أنهـم ينحـدرون عـن جـد واحـد، وتوحدهـم ديانـة واحـدة ؛ حيـث استقـروا في مكـان واحـد ؛ مركـزه مقـر زعيـم العشيـرة ؛ الأمـر الـذي عـزز تماسـك : الرابطـة العشائريـة والرابطـة المكانيـة. ونتيجـة لكـل هـذا ظهـرت "**دولـة المدينـة**" في بنائهـا الاجتمـاعي والسيـاسي المميـز ؛ حيـث أصبحـت ـ بمـرور الوقـت ـ حقـاً لجميـع مواطنيهـا. [1]

ـ *مدى التأثير الإغريقي :*

المهـم ؛ أن الصـلات بيـن **الليبييـن واليونانييـن** قديمـة جـداً. وإذا تأملنـا في الأساطيـر اليونانيـة الـتي تقـص حكايـات ؛ وقعـت أحداثهـا في الأرض الليبيـة ؛ فـلا يصـح رفضهـا بالتمـام ؛ بـل هي ـ حتى وإن كانـت غيـر واقعيـة ؛ إلاّ أنهـا ـ تحتـوي علـى بـذرة مـن الحقيقـة. وتلـك الحقيقـة قـد يكـون منطلقهـا معرفـة الإغريقييـن لتلـك البـلاد، الـتي أذكـت مخيلتهـم، وحركـت أحلامهـم ؛ فأبدعـوا وصاغـوا أساطيـر لا بـد أنهـا انطلقـت مـن جـزء مـن الحقيقـة، أو مـن بعـض الوقائـع الحيـة. لـذا فموضـوع **النازحيـن مـن طـروادة، والقادميـن مـن كريـت** ؛ قـد يكـون عبـارة عـن حركـة تجاريـة ؛ تحولـت إلى رغبـة في الاستيطـان ؛ مثلمـا قـام بهـا أولئـك التجـار القادمـون مـن بحـر إيجـة نحـو سـاحل الشمـال الإفريقـي. كمـا حـدث في **قوريـني** مثـلاً. أمـا حكايـة جزيـرة الأطلنطـس فـلا تعـدو أن تكـون مـن إبداعـات تجـار البحـر ؛ الذيـن مـروا بتلـك الديـار المغربيـة البعيـدة ؛ فتركـوا لخيالهـم الخصـب العنـان لبعـث العجـب في نفـوس مستقبليهـم ؛ مـن بـني جنسهـم عنـد عودتهـم لأرض

[1] التاريخ اليوناني، ج: 1، ص ص: 98 ـ 99.

الوطن. غير أن ما وجد من نقوش في غابة **مقنـة** القريبـة مـن **طبرقـة** يـدل على الواقع بكامله. فتلـك النقـوش الـتي تصـور **بحـارة إغريقييـن** يمتطـون سفينتهـم الإغريقيـة ؛ تثبـت أن الإغريقييـن كانـوا مـن زوار تلـك الجهـات. وزيارتهـم تلـك لا تعـدو أن تكـون بغـرض التجـارة ؛ حـتى وإن ظهـروا في تلـك السفينـة بأسلحتهـم الحربيـة ؛ ولا غرابـة في ذلـك ؛ خاصـة وأن الإغريقيين احتلوا مواقع لهم في جزر البحر المتوسط ؛ في أوقات متفاوتة ؛ كصقلية مثلاً ؛ وكانوا في صراع ومنافسة كبيرة بينهم وبين الفينيقيين على احتكار التجارة مع الليبيين.

ولا شك أن الأثر الذي تركه اليونانيون في أبناء المغرب القدماء كبير جداً ؛ وإلاّ فما هو تفسير شغف وولوع الأمراء **النوميديين** بمظاهر المدنية الإغريقيـة..؟ مـن : عـادات ومعتقـدات وآداب وفنـون ونظـم سياسيـة وعمارة.. ويبدو أن احتكاك أمراء **نوميديا باليونانيين** يعود ـ كما سبق ذكره ـ إلى الألف الثالثة ق. م ؛ خلال هجمة **شعوب البحر** على ساحل شمال إفريقيا. حين هُزِم أحدُ الملوك الليبيين المتحالف معهم ضد **مصر**. وربما تكون الصلات قد حدثت منذ زمن أبعد. يرجع إلى العصر **المينوسي** في **كريت**. وفي سياق آخر تحدث **هيرودوت** عن **ملوك وممالك ليبية** مجاورة **لقريني** الإغريقية ؛ فأشار إلى : **أديرماشيدس** *Adyrmachides* المجاورين لمصر. [1] وذكر أيضاً ملكاً اسمه **أديكران** *Adicran* ؛ لم يكن على وفاق تام مع أهل **قريني الإغريقيين**. ومن جهة أخرى فقد رأينا كيف تحالف ملك ليبي اسمه **إلماس** *Ylmace* في عام 310 ق.م. مع ملك **سرقسطة الإغريقي أغتاكليس** *Agathocles* ضد **قرطاج**.

---

[1] قد يكون الملك هنا مجرد زعيم لقبيلة، أو رئيس يجمع بين الكهانة والرئاسة. إذ أن ما ذكره هيرودوت يعزز هذا الرأي؛ حيث يقول: أن الملك ـ في هذه الديار ـ تقدم له الفتيات اللائي سيتزوجن؛ فيختار أجملهن فيفض بكارتها. أنظر . 70 -69 : *pp L'Afrique du NORD dans l'antiquité*

وفي عهد قرطاج كان الأمراء المغاربة يتجاوزون حدود **الفينيقيين** جيرانهم ؛ ويبحثون عما يجري في بلاد **اليونان** البعيدة. إذ كانت بلاد الإغريق بالنسبة إليهم مركز إشعاع حضاري، ومنهل علم ومعرفة ؛ لا بد من الوصول إليه والاغتراف من معينه ؛ لتحقيق شرط التمدن. فهذا ملك نوميديا الغربية (مازيسولة) **سيفاكس** ؛ كان يقلد ملوك اليونان ؛ مع أنه أقرب إلى قرطاج منهم ؛ بل تزوج من أميرة قرطاجية. ومع هذا لم يثنه ذلك عن تطلعه نحو المدنية الإغريقية. [1]

كما أن ملك نوميديا الكبرى **مسينيسا** ؛ كان هو الآخر ولوعاً بالمدنية الإغريقية شغوفاً بالأوثان الإغريقية ؛ حتى أنه حمل رعاياه من **النوميديين** على عبادتها ؛ مثل : **قورايا** *Gouraya* [2] وهي حسب رأيي **كوري** *Koré* اليونانية ابنة **ديميتير** ؛ ثم **سيريس** *Cérès* التي يعتقدون أنها ربة للحصاد والحبوب ؛ وهي مقتبسة من الوثن الإغريقي **ديميتير** *Démèter*. [3] وعلى هذا فقد أضحت لهذه الأوثان والمعتقدات أعياد تقام في **نوميديا**. وظل هذا الحال في أيام **يوغرطا**. ولم يقف **مسينيسا** عند هذا الحد ؛ بل فتح أبواب قصره في **قرطة** (سيرتا) للموسيقيين الإغريق ؛ حباً وإعجاباً بهم. وكان **مسنيسا** يضع على رأسه تاجاً مكللاً بالغار. كما أنه سعى لكي يتلقى أبناؤه تربية ذات خصائص يونانية ؛ وبالفعل فقد تحصل ابنه **مستبعل** على مستوى رفيع من العلوم. وكان للعيد الذي يقيمه الإغريق لمعبودتهم "**أتينا**" اعتبار وتقدير في **نوميديا**. ومن جهة أخرى فقد حرص **مسنيسا** على تقليد الممالك اليونانية ؛ عندما حصر الملك ضمن

---

[1] تاريخ شمال إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 132.

[2] لاحظ أن اسم قورايا مازال موجوداً إلى الآن في الجزائر؛ بالقرب من شرشال، وفي بجاية؛ حيث يعتقد سكانها فيما يسمونه "يمّا قورايا" وهي لا شك من تأثيرات وثنية قديمة. علما أن ثمة تفسيرات أخرى يرى أصحابها أن قرايا كلمة وندالية بمعنى الجبل.

[3] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 136.

أبنائــه. وبذلــك ألــغى قاعــدة الوراثــة الــتي كانــت متبعــة وعرفــت بـ"**الأغنية**" ؛ [1] وهي العائلة "البطريكية" أي الأبوية التي ترتكز على سلطة الأب ؛ ولا تكون الوراثة فيها للأبناء المباشرين ؛ بل لأكبر أعضاء العائلة سناً. وحتى قبر **مسنيسا** المتواجد في ضواحي مدينة **لخروب** الجزائرية ؛ فقد بني حسب الأسلوب المعماري اليوناني.

أما الملك **مسبسا** فقد كان شغوفاً بمجالسة الأدباء والفنانين الإغريق. وتقول المصادر أنه كان يقضى جل أوقات فراغه في الدراسة والبحث في ميادين الفلسفة. أما **يوبا الثاني** فلا نظير له بين ملوك **نوميديا** ؛ إذ كان إغريقياً أكثر منه مغربياً. فزوجته من أصول مصرية ـ إغريقية ؛ وهي **كليوبترا سيليني** ابنة كليوباترا الأولى **البطليمية** ملكة مصر. وسمى ابنه باسم **بطليموس** تيمناً بأجداد أمه. كما أن **ليوبا الثاني** اهتمامات بالفنون والأدب ؛ وكان يجيد اليونانية واللاتينية والفينيقية. وله مؤلفات كثيرة في ميادين علمية عديدة. [2]



---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 136.

[2] نفسه، ص: 173.

الصلات مع الفينيقيين

أما صلات أهل المغرب **بالفينيقيين** فواضحة ومعروفة بعض الشيء ؛ نظراً لوجودهم بكثافة في أجزاء من التراب المغربي ؛ [1] حيث أسسوا إمبراطوريتهم تحت أعين **الليبيين**، وبموافقتهم في البداية ؛ إذ يبدو أنهم أقاموا في تلك البقاع باتفاق عقد بينهم وبين السكان الأصليين. [2] وقد تم هذا ؛ انطلاقاً من أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الحادي عشر ق. م. وقد ترجع البوادر الأولى للتواجد **الفينيقي** في الوطن **الليبي** إلى سنة 1101 ق.م. وهي بالتحديد ؛ السنة التي أنشئت فيها **أوتيكة**. هذا إذا لم يتأكد الرأي القائل ببناء مركز **لكسوس** *Lixus* العرائش على المحيط الأطلسي أولاً. [3]

إذن ؛ فالتواجد الأول للفينيقيين يدخل ضمن الفترة الزمنية المضطربة (1400 ـ 1100 ق.م) التي هيمنت على سواحل البحر الأبيض المتوسط كله. تلك الفترة التي سبق ذكرها أثناء الحديث عن الصراع الدائر بين المصريين وما يسمى **بشعوب البحر.** ولا يهم هنا قول بعضهم ـ عن **الليبيين** ـ أنهم كانوا يعيشون في أحضان حضارة العصر الحجري المصقول

[1] اكتفى الفينيقيون باحتلال مساحة محدودة من الأراضي المغربية على طول الساحل المتوسطي، وأجزاء صغيرة من الساحل الأطلسي. ومع هذا فقد تمكنوا من مراقبة سواحل شمال إفريقيا والهيمنة عليها؛ وذلك بعد تشييدهم لمراكز تجارية عديدة (أساكل *Escale*؛ امتدت على طول الشريط الساحلي المذكور. بحيث أضحت تلك الأساكل مراكز للتموين، وأسواقاً توفر سبل التبادل التجاري مع السكان الأصليين في داخل البلاد.

[2] ظل الفينيقيون يدفعون الضرائب سنوياً للسكان الأصليين طوال ثلاثة قرون ونصف؛ دون خلل أو انقطاع. أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص:87.

[3] ثمة من يعتقد أن لكسوس تم بناؤها في أواخر القرن الثاني عشر ق.م؛ في وقت واحد مع مركز قادس الأيبيرية أي ترشيش. أما أوتيكة فيقولون أنها بنيت في سنة 1110 ق.م. وهذا القول حير كثيراً من المحققين؛ الذين تساءلوا ـ في شك ـ عن صعوبة البدء ببناء مراكز بعيدة؛ مثل: ليكسوس وقادس؛ دون ضمان مراكز أخرى أقرب إلى منطلقهم الأول. أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 85. والتوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ص: 91 ـ 94.

(**النيوليتي**). [1] لأن هذا القول العام غير دقيق ؛ وقد فنده كثيرون ؛ حيث أثبتوا بواسطة مكتشفات عديدة تؤكد أن الإنسان المغربي القديم قد عرف بعض المعادن كـ: **النحاس والبرنز**.. [2]

وحتى إذا كان **الفينيقيون** قد وصلوا إلى سواحل الشمال الإفريقي في عهد تسود فيه المدنية **النيوليتية** ؛ فلا يعني هذا أن سكان هذه البلاد بكاملهم كانوا يجهلون معادن أخرى ؛ كالنحاس والبرنز.. إذ أن اختلاطهم **بالمصريين**، الذين ودعوا المدنية **النيوليتية في الألف الرابعة ق.م** تقريباً ، أو احتكاكهم **بالمينوسيين** سكان كريت الذين انتهى عندهم العهد **النيوليتي في حدود سنة 2500 ق.م** ؛ يرجح احتمال معرفة **الليبيين** بمعادن أخرى ؛ حتى وإن كانت غير شائعة بالشكل الكافي.

فإذا كانت مشاركة **الليبيين** في حملات شعوب البحر غير مشكوك فيها ، وإذا كانت تلك الشعوب قد عرفت بلاد **الليبيين** الأصلية في الفترة التي هددوا فيها الديار **المصرية** ؛ ألا يمكن التخمين بانعقاد روابط ما بين **الليبيين** المنضوين إلى **شعوب البحر** وجماعات من **الفينيقيين** المغامرين في سبيل الكسب والتجارة..؟ ألا يكون أولئك **الفينيقيون** قد عرفوا بلاد المغرب بواسطة المغاربة القدماء أنفسهم.؟ إن الرأي القائل ببناء مركز

---

[1] فهذا شارل أندري جوليان يقول: ((الشمال إفريقي حديث العهد نسبياً . ويظهر أنه لا يسبق بكثير الأربعة آلاف سنة قبل المسيح، وأنه امتد إلى قلب العصور التاريخية. فانعدام فترة انتقالية تالية للعصر النيوليتي هي بالفعل من خصائص ما قبل التاريخ في إفريقيا الشمالية. ولهذا فإن الفينيقيين أسسوا مراكزهم التجارية الأولى في عالم ذي مدنية نيوليتية. والصحف التي خصصها هيرودوت لإفريقيا تلقي هنا وهناك أضواء خاطفة على ذلك. غير أن ربط بلاد البربر بعالم المدنيات المتوسطية لم يكن على ما يظهر نتيجة للانفصال التام عن العادات العريقة في القدم. فلا شك أنه استعملت سهام من الحجر مدة طويلة بعد ذلك. وكذلك لم تهجر الملاجئ النيوليتية فجأة، واستمر السكان إلى قلب العهد الروماني على ما يظهر يرصفون صخرة على صخرة لبناء مساكنهم؛ وهي المصاطب *dolments*)).تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 57.

[2] راجع كتاب ك. إبراهيمي تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ص: 134. وكتاب قداش *L'Algerie dans l'antiquite, p* : 20. كما أن صاحب كتاب مدنية المغرب العربي في التاريخ ذكر أن المصريين في القرن الرابع ق. م. غنموا من الليبيين بعد المعركة: ((كالسكاكين العريضة من البرنز، والنقود، والذهب، والفضة، والقسي، الحراب، والمزاريق)). ص ص: 63 ـ64. غير أنه لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه تلك المعلومات.

ليكسوس المطل على المحيط الأطلسي في أواخر السنة الثانية عشر ق.م ؛ يوحي ـ بدون شك ـ أنهم لم يصلوا إلى تلك الديار بسلام دون عون أو رضا سكان المغرب القدماء ؛ أولئك السكان الذين عرفوا بقوة البأس، وشدة الشكيمة. وقد يفسر هذا ـ أيضاً ـ قبول السكان بإقامة **الأساكل الفينيقية** الأخرى على طول الساحل المغربي المطل على البحر المتوسط. لأن أولئك السكان رأوا في **الفينيقيين** ذلك الشريك القادر على جلب الفوائد المادية والحضارية.

ـ أصل الفينيقيين:

قبل الشروع في الحديث عن ثمار الصلات التي اقتطفها **الليبيون** من أيكة **الفينيقيين** ؛ لا بد من التعرف على هذا الشعب العظيم الذي جاب البحار، وساح في أرض الله طلباً للثروة، وبحثاً عن المعادن الثمينة أينما وجدت ؛ مستهيناً بالمخاطر والصعاب.. فكل المصادر التاريخية تجمع على أن **الفينيقيين والكنعانيين** هما شعب واحد ؛ ينتسب للفرع **السامي** من السلالات الإنسانية ؛ فـ: ((**ففينيقيا وكنعان.. كلمتان مترادفتان تعنيان على الأغلب شيئاً واحداً... وكلها مسميات تعني الحمرة الأرجوانية**)). [1]

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف بداية تاريخ **الكنعانيين** أو **الفينيقيين** إلاّ أن ما شاع حتى الآن ؛ يشير إلى أنهم نزحوا من **الجزيرة العربية** في أواخر السنة الثالثة، أو أوائل السنة الثانية ق. م. وذلك حين هاجروا من موطنهم الأول المعروف قديماً **بالبحرين** ؛ أي الشريط الساحلي الممتد على طول الخليج العربي: ((**أما تاريخ قدومهم إلى شاطئ البحر المتوسط فليس في وسعنا أن نكذب ما قاله علماء صور لهيرودوت. وهو أن أجدادهم قدموا إلى بلدهم هذا من شواطئ الخليج الفارسي ؛ وأنهم**

[1] مصر والشرق الأدنى القديم، ج: 3، ص: 47.أنظر أيضاً هنيبعل، ج: 1، ص: 17. والتوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ص: 18.

شادوا تلك المدينة في العهد الذي نسميه نحن القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح)). [1]

وكان **الكنعانيون** أو **الفينيقيون** ـ عند قدومهم من الجزيرة العربية ـ لا يختلفون كثيراً عن بقية القبائل السامية ؛ في نظمهم الاجتماعية. ولكنهم تدرجوا في تطورهم الاجتماعي ؛ حين استقروا في مدن شيدوها. حيث تحولت الروابط الدموية لعشائرهم إلى روابط محلية مقيدة بالأرض التي أقيمت عليها المدينة الخاصة بهم. متبعين النهج نفسه الملاحظ لدى غيرهم من أمم ما **بين النهرين**، أو بلاد **الإغريق**. وعليه فقد أقيمت مدن **كنعانية** عديدة على طول الساحل الغربي للبحر المتوسط ؛ كما أقيمت مدن أخرى في داخل تلك البلاد أيضاً. ومع الوقت أضحت مدن : **أوغاريت وصيدون وصور** حواضر هامة لهم.

غير أن المدن **الفينيقية** كافة تعرضت ـ بعد مدة ـ لهزة عنيفة سببها زحف **الهكسوس** [2] على بلادهم ؛ فأصيبت بأضرار عظيمة ؛ نتيجة لتلك الهجمة الكاسحة من قبل شعب أو شعوب بدوية دمرت كل شيء في طريقها. فكانت **فينيقية** بمثابة الجسر الذي عبروا منه إلى **مصر**. ومع هذا فقد انضم بعض الفينيقيين إلى تلك الحملة ؛ المتجهة صوب مصر ؛ ذات الثراء العظيم والخصوبة الملحوظة. [3]

---

[1] قصة الحضارة، ج: 2، ص: 310. أنظر أيضاً مصر والشرق الأدنى، ج: 3، ص: 52. و هنيبعل، ج: 1، ص: 17. والتوسع الفينيقي في البحر المتوسط، ص: 18.

[2] الهكسوس شعب يتكلم لغة سامية؛ قدموا من بادية الشام؛ كتب عنهم في "تاريخ العالم": ((ولكن في وسعنا أن نقول ـ بشيء من الثقة على الأقل ـ بأن حكاماً ساميين من بلاد الشام يعرفون "بالهكسوس" استقروا بدال النيل في القرن الثامن عشر، وفي نصفه الأول على الأرجح... وكان "الهكسوس" يتكلمون لغة سامية ما في ذلك شك. ويحتمل أنهم كانوا جموعاً أو حلفاً من الرعاة؛ قدموا من أرض الشام، وقد سكنوا دال النيل قبل الغزو أو بعده؛ ولكنهم يكون الإسرائيليون أو العبرانيون قسماً منهم بقوا في موطنهم بعد طرد الهكسوس. وكان الشيء الجديد الذي تدين به مصر للغزاة، والذي أفادت منه في المستقبل هو الحصان والمركبةالحربيةوكان حكمهم كله تدميراً وتخريباً)). ج: 1، ص ص: 459 ـ 460.

[3] أنظر مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 78 ـ 79.

ولما تمكن **أحمس الأول** من طرد **الهكسوس** من مصر ؛ عمل على مطاردتهم بعيداً عن أراضيه ؛ الأمر الذي مكنه من احتلال **فينيقية وأرض كنعان** كلها في سنة 1600 ق.م. وبقيت أرض كنعان في يد المصريين إلى أن جاء الزحف المهول المعروف بهجمة **شعوب البحر** في سنة 1200 ق.م ؛ حيث اكتسحت المدن الفينيقية ، ودمرت بلادهم. ولكنهم **(أي الفينيقيين)** استعادوا مدنهم وأراضيهم ؛ بعد أن صد **رمسيس الثالث** زحف شعوب البحر ، وأوقع بهم هزيمة شنيعة. وتسببت هذه الأحداث في **استعادة الفينيقيين لاستقلالهم** ؛ بانفصالهم نهائياً عن النفوذ **المصري** ؛ وقد تم هذا بين سنتي 1200 ـ 1000 ق.م. [1]

ـ الرحلة إلى إفريقيا الشمالية :

ومن هنا ؛ أخذ **الفينيقيون** يظهرون على مسرح الأحداث في البحر الأبيض المتوسط ؛ حيث أقاموا مراكزهم (أساكلهم) العديدة على ضفافه الجنوبية ؛ بعد أن أقاموا أول محطاتهم على ساحل المحيط الأطلسي ؛ دون اعتراض يذكر من قبل السكان الأصليين ؛ الأمر الذي يوحي بأنهم عقدوا صفقة ما معهم. ويقال أن محطاتهم ومدنهم وصل عددها في الشمال الأفريقي إلى 300 محطة ومدينة. [2] منها :

ـ (*Leptis Magna*) لبدة ، و(*Oea*) طرابلس ، و(*Sabratha Vulpia*) سبراتة ، و(*Tacapas*) قابس ، و(*Thapsus*) رأس الديماس ، و(*Léptis Minir*) لمطة ، و (*Ruspina*) أو *Monastir* المنستير ، و(*Hadrumète*) سوسة ، و(*Carthage*) قرطاج ، و(*Utiga*) أوتيكة ، و(*Hippo Diarrhytus*) بنزرت ، و(*Hippo Régius*) عنابة ، و(*Rusicade*)

---

[1] مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 78 ـ 79. هنيبعل، ج: 1، ص: 24. التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ص ص: 43 ـ 44.
[2] أنظر التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ص: 96.

سكيكـدة، و(*Chullu*) القـل، و(*Igilgili*) جيجـل، و(*Saldæ*) بجايـة، و(*Iomnium*) تيقزيـرت، و(*Rusuccuru*) دلـس، و(*Rusguniæ*) بـرج البحـري، و(*Icosium*) الجزائـر، و(*Tipasa*) تيبـازة، و(*Iol*) شرشـال، و(*Gunugu*) قورايـا أو قبـة سيـدي إبراهيـم، و(*Cartennæ*) تنـس، و(*Moristaga*) مستغانـم، و(*Siga*) تخمبريت أو أرشقـول، و(*Rusaddir*) مليلـة، و(*Septem*) سبتـة، و(*Tamuda*) تطـوان، و(*Tingi*) طنجـة، وعلى ضفة البحر الأطلسي: و(*Lixus*) العرائش.

وقد ظهرت تلك المدن الفينيقية على طول الشريط البحري لبلاد المغرب؛ فكانت متفاوتة في حجمها وأهميتها. حيث بقي بعضها في شكل محطات تجارية بسيطة للفينيقيين؛ بينما غدا بعضها الآخر مدناً زاهرة؛ مكتظة بالسكان والزوار؛ سواء كانوا فينيقيين أم مغاربة أهل البلاد الأصليين. وهكذا فقد نما بعضها وازدهر، وبالمقابل تعثر نمو بعضها الآخر، وتأخر نموها الحضري.

وبعد تشييد **قرطاج** في سنة 814 ق.م، واشتداد سطوتها؛ أصبحت هذه المدن والمراكز تخضع لسلطانها ما عدا: **لمطة وأوتيكة وقادس**. ولكن ذلك الحال لم يدم طويلاً؛ إذ التحقت تلك المدن ببقية المستعمرات **الفينيقية** التابعة **لقرطاج**؛ إذ أضحت هذه الأخيرة تسيطر على بقية المستعمرات الفينيقية بيد من حديد؛ حيث تفرض عليها الضرائب الطائلة، وتلزم أهلها بالخضوع التام لقوانين قرطاج، وتكبح جماح سكانها؛ بإجبارهم على التعامل مع سفن قرطاج وتجارها دون غيرهم. وهذا الأمر عرقل ـ بالطبع ـ أي نمو اقتصادي في تلك المراكز والمدن الفينيقية الأخرى. وباستفحال أمر **قرطاج** سعت للتحرر من التبعية

لفينيقية الأم (**صور**) ؛ فأضحت تتصرف باستقلالية تامة. وحتى رعاياها فقد حملوا اسماً آخر غير اسم **الفينيقيين** ؛ إذ غدوا يسمون باسم **بونيقين**.

وإذا تأملنا ملياً في هذه المحطات أو المدن الفينيقية (الثلاثمائة) المنتشرة على طول ساحل الشمال الأفريقي ؛ سيتبين لنا ـ حتماً ـ مدى التأثير الذي ستسببه تلك المحطات والمدن على السكان الأصليين ؛ عندما سيحتكون بالتجار الفينيقيين، ويتعاملون معهم ؛ فيضطرون إلى تعلم لغتهم، واقتباس أساليبهم في **التجارة والصناعة، والعمران، ومحاكاتهم في اللباس، وتقليدهم في المأكل** وغيره..

وعلى هذا ؛ فالمهم ـ هنا ـ ليس هو البحث عن سر الصفقة التي قد تكون عقدت بين **الفينيقيين** وأبناء البلاد الأصليين ؛ بل المهم هو محاولة فهم شكل ونوعية الفوائد التي اكتسبها السكان الأصليين من جيرانهم الفينيقين. إذ أنه من الواضح أن أعمال **الفينيقيين** وتصرفاتهم وإنجازاتهم الحضارية لم تكن مجهولة أو غريبة عن السكان الأصليون. لأن التبادلات التجارية التي كانت تحدث بينهم وبين الفينيقيين ؛ تنجر عنها ـ طبعاً ـ عمليات **تقليد واقتباس** ؛ تتعلق **بالعادات والأفكار والمعتقدات والصناعات**.

ـ هل أفاد الفينيقيون الليبيين؟ :

وعلى الرغم مما يقال عن **الفينيقيين** من أنهم منغلقون، ومتقوقعون على أنفسهم ؛ في **قرطاج** وغيرها من المدن الفينيقية ببلاد المغرب. إلا أنهم كانوا يستخدمون أهل البلاد الأصليين في أعمال متعددة ؛ منها : زراعة الأرض، والجندية، وبعض الصناعات والأشغال المختلفة.[1] لذا فإن كانت نظم الفينيقيين ومعتقداتهم محصورة في مدنهم، وبين أبناء جنسهم. فإنه في وسع السكان الأصليين اقتباس ما لاحظوه ومارسوه عملياً ؛

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص ص: 98 ـ 99. 107. 112. 114. 116. 125 ـ 126. هنيبعل، ج: 2، ص ص: 238 ـ 239. 259. 343.

بصورة أو بأخرى في المدن الفينيقية. وقد ساعد هذا ـ طبعاً ـ على كسر الانطواء والانغلاق؛ إذ ثبت أن **الجنود المرتزقة** تمكنوا من تعلم لغة **الفينيقيين**، ومبتكراتهم في مجالات عديدة: **سياسية وإدارية وعسكرية واقتصادية ومعمارية**. كما أن العمال المسخرون في أشغال الأرض تعلموا بدورهم طرقاً أفضل في زراعة الأرض، وغرس الأشجار، بالإضافة إلى أن أبناء القبائل من التجار قد استفادوا ـ هم الآخرون ـ من الفينيقيين؛ حين تعلموا لغتهم، وأساليبهم في المعيشة، وحنكتهم التجارية، ومهارتهم في صناعة الفخار والأثاث، وبراعتهم في البناء والزخرفة..إلخ.

إذن؛ فإذا قلنا أن انخراط أفراد وجماعات من السكان الأصليين في الجيش وغيره من المؤسسات الفينيقية؛ لا بد أن يكسبهم نماذج جديدة من أساليب الحياة، ويمدهم بعينات حديثة من النظم والابتكارات؛ فلن نبتعد في ذلك عن الصواب؛ إذ ثبت هذا ـ بالفعل ـ من خلال ما قدمته إلينا الحقائق التاريخية؛ حيث تأثر **الأمراء النوميديون** بالمدنية الفينيقية إلى أبعد الحدود. وقد ظهر ذلك من خلال إقامتهم في **قرطاج**، والتزوج ببنات النبلاء في تلك المدينة، والتعرف على الأوضاع السياسية فيها، والحصول على **دساتير المدن الفينيقية**، واقتباس **الأساليب الفلاحية** التي ابتكرها عالمهم الفلاحي الكبير **ماغون**. [1]

بالإضافة إلى ذلك فقد تعلم بعض السكان الأصليين وأمرائهم لغة الفينيقيين وكتابتهم، ثم صناعة الفخار لديهم، وأساليب الطبخ عندهم، وفنون البناء الخاص بهم، وأشكال اللباس التي تميزهم. والكيفية التي يحكمون بها شعبهم، والتقسيمات الاجتماعية والسياسية في مدنهم، والقوانين والدساتير التي تعينهم على تسيير أوضاعهم الداخلية

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 125.

والخارجية. كل ذلك وغيره من التنظيمات المحكمة والقوانين الصارمة أفادت عدداً كبيراً من السكان الأصليين في الشمال الأفريقي؛ إذ حاول بعض أمرائهم تطبيق تلك النظم والقوانين؛ بغرض تشييد دولة مغربية قوية. وقد ظهر ذلك جلياً فيما عمل به الملك **سيفاكس** والملك **مسينيسا** وأحفاده. [1]

غير أهل هذه الديار لم يواصلوا السعي نحو تطبيق الفوائد التي تم اقتباسها من **الفينيقيين**؛ الذين جلبوا معهم نظماً اجتماعية متقدمة، وابتكروا نظماً سياسية متطورة. [2] كما أنهم لم يحافظوا على تلك المسيرة الحضارية، ولم يواصلوا ترسيخها في **المجتمع المغربي**؛ إذ انقطع شرط التواصل، وانعدمت الرغبة في الاستمرار، وتلاشت حوافز الابتكار، أو الرغبة في الطموح المستمر؛ الذي يتدرج بالأمم من حال أدنى إلى حال أسمى. وعليه؛ فقد جرى الأمر بغير ما كان يفترض أن يكون.. حيث بقيت الغالبية العظمى من السكان تجمعهم **المؤسسات القبلية**، وتكتنفهم **ظلمات البداوة** السائدة عبر الصحاري والأرياف.

ولكن؛ ثمة بعض الاستثناءات الظرفية التي لا بد من الإشارة إلى شيء منها. من ذلك: تجربة **مسنيسا**. ذلك الإغليد العظيم؛ [3] الذي قال فيه الجغرافي الإغريقي **سترابن** *Strabon* (60 ق.م) ((**إن مسنيسا صيَّر البرابر فلاحين ومدنهم**)). [4] حيث اجتهد في **سن بعض النظم**؛ التي من

---

[1] أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1. ومدنية المغرب العربي في التاريخ. وهنيبعل، ج: 1. والجزائر بين الماضي والحاضر. *L'Algerie . Aguellids et Romains en Berberie . L'Afrique du NORD dans l'antiquité . dans l'antiquité* .

[2] أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 111 ـ 127. ومدنية المغرب العربي، ص ص: 78 ـ 272.

[3] يقول فيه شارل أندريه جوليان:((فلقد أراد الإغليد أن يكون عاهلاً؛ لا سيد قبيلة. وكان لابد له من ميزانية تغذيها موارد قارة؛ للاحتفاظ بوفاء حلفائه، والحد من سورة أعدائه، ولتجهيز جيوشه، وتكوين أساطيله، ولبناء دولة نوميدية بالديبلوماسية، وبحد السلاح؛ تكون جديرة بهذا الاسم، قادرة على أن تقوم بدورها في حوض البحر المتوسط)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 134.

[4] تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص:134.

شأنها بناء **دولة قوية** بمؤسساتها ونظمها. وقد شرع في عملية **توطين البدو** أولاً ؛ وإسكانهم في قرى محصنة بدلاً من التجمعات السكانية العشوائية ؛ وذلك كي يَسْهل عليه تنظيم حياتهم من جهة، وتوفير الحماية الضرورية لهم ضد هجمات البدو [1] من جهة أخرى: ((**وبذلك ساهم مسنيسا في "تمدين" البربر؛ "فأصبح النوميديون مدنيين" كما لاحظ سترابن. واستوحى من دساتير المدن الساحلية ما مكنه من منح المدن الجديدة نظاماً بونيقياً؛ يعتمد على حكام سُمُّوا الأسْبَاط أو الأشفاط** *suffètes*)). [2] غير أن جهوده ذهبت بها رياح خارجية وداخلية..

وما يستحسن التأكيد عليه هو أن أهم إنجاز قام به **الليبيون** الأوائل هو تشييدهم لبعض المدن؛ في أماكن عديدة من ربوع بلادهم الداخلية؛ تيمناً **بالمصريين واليونانيين والفينيقيين**. ذلك لأنهم لم يعرفوا ـ كما يبدو ـ من قبل مدناً شيدت بأسلوب عمراني شبيه بأساليب أولئك المتمدينين؛ إذ كانت مساكن **الليبيين** قبل قدوم **الفينيقيين** عبارة عن **كهوف** أو **كنن أو أكواخ** من الخوص، أو الطين والحجارة وأغصان الأشجار؛ كانت تسمى: "**مقاليا**" و"**عكليهت** أو **تيمدلت** أو **أغادير**". غير أنهم سرعان ما تحولوا إلى بناة مقلدين لجيرانهم؛ فظهرت إلى الوجود مدناً عديدة داخلية؛ شبيهة بالمدن الفينيقية الساحلية. وقد تحقق ذلك ـ طبعاً ـ بعون ومشاركة **الفينيين** أنفسهم. ومن أهم مدنهم وقراهم القديمة:

---

[1] يعتقد قوتييه أن الصراع بين البدو والحضر المستقرين انطلق من اليوم الذي استقر فيه هؤلاء داخل قرى في عهد مسنيسا. وفي هذا السياق يقول شارل أندريه جوليان: ((وفي عهد مسنيسا وخلفائه ظلت قبائل جدالة ـ التي كانت تنتجع على طول سباسب السهول العليا ـ بالمرصاد لهذه الفريسة الجاثمة؛ التي تتمثل في الفلاحين النوميديين. وسوف يضطر "الأغاليد" وهم أسياد المدن، ورؤساء دول بأتم معنى الكلمة إلى حماية ما شيدوه من غائلة القبائل المتنقلة؛ التي إن انتصرت أرجعت رعايا هؤلاء الأغاليد إلى الفوضى)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 135.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص:135.

ـ قرطة : التي سميت باللاتينية **سيرتا**. وهذه المدينة نشأت تدريجياً نتيجة لتراكم سكاني ؛ حصل في موقعها منذ عصور **ما قبل التاريخ** ؛ إذ ثبت من خلال ما توفر عليه موقعها من مياه رقراقة، ومخابئ حصينة، وكهوف عميقة ؛ أنها موضع صالح للحياة. وذاك ما أكدته المخلفات الأثرية التي عُثِر عليها في مواقع عديدة من تلك المدينة ؛ منها ما يرجع إلى **العصر الجيولوجي الرابع** وعهد **إنسان نياندرتال**. كما أن العثور على **أنصاب فينيقية** كثيرة يستدل منه أن مستوطنة فينيقية ما وجدت في مدينة "قرطة". [1] وعلى هذا يمكن القول أنها بدأت في شكل تجمع سكاني غير منظم ؛ حتى ظهرت في السواحل القريبة من تلك الجهات محطات وقرى فينيقية بمرافقها المنتظمة، ومبانيها الجيدة ؛ مثل : **(*Hippo Régius*) عنابة، و(*Rusicade*) سكيكدة، و(*Chullu*) القل، و(*Igilgili*) جيجل** ؛ فكان هذا بمثابة الحافز القوي لأهل ذلك التجمع السكاني البسيط لكي يتطوروا شيئاً فشيئاً ؛ بمساعدة أهل تلك المحطات الفينيقيين المتعاملين معهم في التجارة. ومن هنا برزت إلى الوجود أهم المدن النوميدية على الإطلاق في القرن الثالث ق. م. وهي مدينة **قرطة** أو **كرتة**. التي أصبحت عاصمة ملكية لملوك نوميديا : **سيفاكس ثم مسينيسا فمسبسا فيوغرطا**.

ـ سيغا : وكانت تربض في مصب وادي **تافنة** بالقرب من مدينة **الغزوات** الحالية. وكانت هي ـ أيضاً ـ تمثل موضع تجمع سكاني قديم جداً **لليبيين**. وربما كانت مركز حكم لملوك ليبيين قدماء. وهو ما يفسر تمسك **سيفاكس** بها كعاصمة أخرى لمملكته **ماسيسيليا** ؛ إلى جانب **قرطة**. المهم أن هذه المدينة عرفت **الفينيقيين** من قبل ؛ إذ تعتبر **سيغا** من بين المراكز

[1] أنظر إلى كتاب قسنطينة لرشيد بورويبة؛ ففيه أمثلة كثيرة على ما ذكر.

التجارية التي شيدت من طرفهم. ويبدو أن **سيفاكس** أضاف إليها منجزات عمرانية أخرى ؛ لكي تصبح عاصمة لملكه.

ـ **دقة :** لم يعرف تاريخ بنائها الحقيقي ؛ وربما كانت كغيرها من المدن النوميدية ؛ عبارة عن تجمع سكاني ؛ يشمل مساكن بدائية وبسيطة ؛ إلى أن قدم الفينيقيون ؛ فاستعان أهل ذلك المركز السكاني بهم في بناء مساكن شبيهة بما لاحظوه في المدن الساحلية الفينيقية ؛ ومن هنا ظهرت **دقة** المدينة **الفينيقوليبية** ؛ فأضحت مع الوقت مهمة جداً ؛ الأمر الذي جعلها في أواخر القرن الرابع ق. م ؛ مركز حكم **نوميديا** ؛ إذ تقول المصادر أنها كانت عاصمة للملك **إلماس** *Ylmace* ؛ الذي شارك في الحرب ضد **قرطاج** إلى جانب ملك **سرقسطة** ؛ وربما كانت أيضاً عاصمة للملك النوميدي **غايا** يوماً ما. وقد اشتملت هذه المدينة على معبد للإغليد **مسينيسا**.

ـ **جرمة :** تقول المصادر المتوفرة حتى الآن أن **جرمة** بناها قوم من ليبيا يسمون **القرامنت** ؛ [1] تواجدوا في جهات **فزان** الحالية ؛ وقد ذكرهم في تاريخه **هيرودوت** الذي عاش في القرن الخامس ق. م. وربما تحدد تاريخ بناء **جرمة** خلال القرن الأول المسيحي ؛ بعد أن تأثر أهلها بالمنجزات **الإغريقية والفينيقية** التي تمت على طول السواحل الليبية.

---

[1] مازال أمر القرامنت غامضاً ؛ وما جاء حولهم من أساطير أكثر مما أثبتته الوقائع والأحداث. فمن الأقوال عنهم أنهم من شعوب البحر الكريتيين والصقليين الذين نزحوا إلى تلك الديار في أواخر الألف الثانية ق. م؛ بعد هزيمتهم من قبل المصريين. وأقوال أخرى ترى أنهم قدموا من واحة سيوة *Siwa* في القرن الخامس ق. م؛ أين يوجد معبد أمون؛ حين هربوا من نقمة الفرس المحتلين لمصر آنئذ. وقول آخر يستند إلى أسطورة إغريقية مفادها أن مينوس ملك كريت نفى ابنته أكاكاليس *Akakallis* إلى سواحل ليبيا لكي تضع وليدها الإلهي في تلك الديار. وثمة أنجبت طفلها أمبليشنيكس *Amplishenex* وهو الذي سمي باسم قراما *Garama*؛ ثم أنجب قراما نسمون *Nasamon* الذي انحدرت عنه قبيلة ناسامون. وثمة أقوال أخرى غير موثقة لا يتسع المجال لذكرها كلها.

ـ **مقطـر :** Maktar أو (*Mactaris*). يوجـد موقعهـا في القطـر التونـسي. لا يستبعـد أنهـا تحولـت ـ هي الأخرى ـ من تجمـع سكـاني ليبي بسيط إلى مدينـة ذات طابـع **بونيـقي ـ ليـبي**. وكـان لهـذه المدينـة أهميـة كبيـرة في العهـد **القرطاجي** ؛ كمدينة يسكنها أناس يمكن اعتبارهم كـ "**نوميدبونيقيين**".

ـ **سيكـا فينيريـا : (** *Sicca Veneria*)، هي مدينة **الكـاف** الحالية. وتوجد بالقطـر التونـسي، تحولـت كغيرهـا مـن هيئـة التجمـع السكـاني الليـبي إلى مدينة **ليبية ـ بونيقية** ذات طابع فلاحي. ويرجح بعض المحققين أنها كانـت عاصمـة للملـوك النوميدييـن ؛ وقـد أضحـت لهـا أهميـة معتبـرة أيـام **القرطاجيين والرومانيين**.

ـ **تيفيسـت :** (*Theveste*). هي **تبسة** الحاليـة. وتوجـد بالقطـر الجزائـري. تعتبر هـذه المدينة من أهـم المواقع الخاصـة بعصـور مـا قبـل التاريـخ ؛ وقـد عثر بهـا عـلى مواقـع أثريـة عديـدة ترجـع إلى العصـر **الباليوليـتي** والعصـر **النيوليـتي والحضـارة القفصيـة**. ومـن هنـا تتجـلى أهميـة **تبسـة** كمدينـة **نوميدية** ؛ تحولـت تدريجياً مـن مجرد تجمع سكاني إلى مدينة نوميدية داخلية ؛ تستضيف وسطها جماعة من **البونيقيين** التجار والفلاحين ؛ والصناع المهرة.

ـ **كبسـة :** Capsa أو **قفصـة** (*Gafsa*). عثـر في نواحيهـا عـلى مخلفـات أثريـة نسبـت إلى **الحضـارة القفصيـة** ؛ الـتي يعـود تارخهـا إلى **العصـر الميزوليـتي**. الأمر الـذي يرجـح صلاحية أرضهـا للعيـش منـذ قديـم الزمـان. وهي كغيرهـا من مـدن نوميديا ؛ بـدأت كمجـرد تجمـع سكـاني بسيـط ؛ ثـم تطورت في **العهـد الفينيقي** حتى أصبحـت مدينـة هامـة. وقد اتخذهـا **يوغرطا** ملجأ لـه يـوم ثورتـه على **الرومـان**.

ـ سيـوه : *Siwa* أو (*Siouah*). تتواجد هذه **الواحة** في الصحراء الليبية ؛ والصحراء المصرية الغربية على الحدود بينهما. وتحتل **واحة سيوه** موقعاً ممتازاً ؛ يعتبر منذ فترة قديمة جداً كمعبر يربط بين المغرب والمشرق. وقد اشتهرت هذه المدينة القديمة بمعبد المعبود المصرى **أمون** (جيبيتار). وعلى هذا ؛ ربما اختلف الأمر بالنسبة لهذه المدينة ؛ إذ يبدو أن التأثير **المصري** على سكانها **الليبيين** أكبر من التأثير **الفينيقي**.

وقد ذكرت المصادر التاريخية والجغرافية مدناً أخرى كثيرة ؛ وجدت في بلاد المغرب ؛ في فترات تاريخية متفاوتة. وقد مرت جميعها بظروف واحدة تقريباً ؛ أي كانت عبارة عن تجمعات سكانية ؛ يأوي أصحابها إلى **الكهوف والكنن** المبنية بالطين والحجر، أو **مقاليا** بنيت بالخوص وفروع الأشجار. ثم تطورت بمجيء **الفينيقيين** ؛ حيث استفاد سكانها منهم ؛ فشيدوا بمعونتهم مساكن أفضل، ومرافق أنفع. وبقدوم **الرومان** ازداد عدد المدن المغربية، وانتشرت في مناطق أوسع مما كانت عليه. ومن بين ما ذكر من المدن المغربية تلك المدن الصحراوية الصغيرة في جهات فزان مثل : **وتابيديو** *Tabidio*، **ونيغي جميلة** *Neghigemela*، **وثبن** *Thuben*، **ونيتيرن** *Nitirun*، **ورابسا** *Rapsa*، **ودبريس** *Debris*، **وتابساجو** *Tapsago*، **وبون** *Boin*، **وبجي** *Pege*، **وباراكو** *Baraco*، **وبالوبا** *Baluba*، **وألاسي** *Alasi*، **وبالسا** *Balsa*، **وجولي** *Goli*، **وماكسالا** *Maxula*، **وزيزاما** *Zizama* : [1]

[1] أنظر كتاب جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص ص: 43 ـ 44.

وأهم شيء تعلمه **الليبيون** عن **الفينيقيين** ـ بعد العمارة [1] وتخطيط المدن ـ **فنيات الفلاحة** من: زراعة الأرض وغرس الأشجار وتربية مختلف الحيوانات، **ثم الصناعات المتنوعة** كـ: صناعة الفخار وزخرفته وتحويل المعادن وتشكيلها وصقل الزجاج وتلوينه ونسج الزرابي وحياكة الملابس، **ثم نظم الحكم بمختلف جوانبها**: السياسية والإدارية والقضائية والاقتصادية والمالية.

فأما الفلاحة فقد انتشرت في ربوع **نوميديا** ـ بفضل عاهلها **مسنيسا** ـ الذي عمم استعمالها في بلاده وبين قومه؛ بعد أن كانت مقتصرة على الأراضي **البونيقيين** فقط. [2] والفينيقيون بدورهم ـ عندما احتلوا السواحل المغربية ـ لم يكن يهمهم سوى البحر، وما يأتي عن طريق البحر؛ من: تجارة وصيد أسماك. [3] وبعد مدة من الزمن ـ أي في منتصف المائة الخامسة ق. م ـ احتاج **البونيقيون** إلى تنويع مصادر عيشهم؛ فالتفتوا إلى الأراضي الخصبة المحيطة بهم؛ وشرعوا ـ منذئذ ـ في زراعتها وتربية الحيوانات فيها. وعندما لمسوا فوائدها الجمة وخيراتها العظيمة؛ شرعوا في التوسع على حساب أصحاب الأرض من **الليبيين**؛ حيث قام **البونيقيون** بمصادرة أراضيهم؛ بل أجبروهم على الخدمة فيها؛ سواء **كسخرة** أو عن طريق الاسترقاق، أم بأجور معلومة. [4]

---

[1] يؤكد النصب البونيقي ـ المشيد في القرن الثاني ق. م؛ والموجود بدقة ـ مشاركة الليبيين في أعمال البناء البونيقية؛ إذ ثبت من خلال الكتابة المنقوشة عليه؛ أنه بني بواسطة مهندس بونيقي يسمى عبارش بن عبد عشترت ومعاونيه الليبيين الاثنين يسمى الأول زمار بن عتبان، والثاني منجي بن فرسقان. أنظر هنيبال، ج: 2، ص: 259.

[2] ((وكان تعاطي الفلاحة قبل ذلك محدوداً. قال "بوليب": "هذا أعظم وأعجب ما قام به مسينيسا. كانت نوميديا قبله لا فائدة ترجى منها، وكانت تعتبر بحكم طبيعتها قاحلة لا تنتج شيئاً. فهو الأول والوحيد الذي أبان بالكشف أنه بإمكانها أن تدّر بجميع الخيرات؛ مثل أي مقاطعة أخرى؛ لأنه أحيا أراضي شاسعة فأخصبت إخصاباً "... وإنها لشهادة بليغة تقيم الدليل ـ إذا أضفنا إليها شهادة "سترابن" ـ على أنه هو [أي مسينيسا] المسئول الأول عن الانقلاب الاقتصادي الواقع بالمغرب الأوسط)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 134 ـ 135.

[3] عارض جورج مصوعة هذا الرأي؛ دون أن يستشهد بدليل مقنع. أنظر كتاب هنيبعل، ج: 2، ص: 332.

[4] تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص: 112. هنيبعل، ج: 2، ص: 334.

ومن الشواهد على ازدهار الفلاحة أيام **قرطاج** ؛ ما ذكره **ديودور الصقلي** *Diodore de Sicile* [1] من أن ملك **سقرسطة أغاثوكليس** *Agathocles* انبهر مما شاهده عام 310 ق. م ؛ من بساتين محفوفة بالكروم وأشجار الزيتون والفواكه ؛ وما رآه من ماشية وحيوانات أليفة ترعى في المروج الفسيحة. [2] كما ورد في بعض المصادر أن القمح الذي يزرع في جهات **سوسة** كان ينتج نسبة تتراوح بين مائة ومائة وخمسين للكيل الواحد منه. أما **هيرودوت** فقد قال أن جهات طرابلس كانت تنتج من القمح ثلاثمائة ضعف. ومن جهة أخرى فقد ذاع صيت **ماغون** ذاك المهندس الفلاحي العظيم الملقب "**بأبي العلوم الزراعية**" ؛ إذ ألف كتاباً في الفلاحة في ثلاثة وعشرين مجلداً ؛ وقد فاقت شهرته ما كتبه الإغريق في هذا الميدان ؛ حتى أن مجلس الشيوخ الروماني أمر بنسخه وترجمته إلى اللاتينية. ويبدو أن الفلاحة أخذت شكلها الواسع في عهد هنيبال الذي حول جيشه إلى العمل في غرس الأشجار.

المهم أن أول من اعتنى بالفلاحة من المغاربة القدماء هو الإغليد **مسنيسا** ؛ بعد أن لاحظ ما تدره من فوائد على شعب **قرطاج**. لذلك فقد سارع بعد توليه الحكم إلى تشجيع رعيته على الاستقرار في أماكن معينة ؛ وتعاطي مهنة الفلاحة ؛ من: زراعة وتربية للحيوانات كـ: الشياه والمعز والبقر والخيول والبغال والدواجن والنحل وغيره. ولما استفحل أمره بعد الحرب البونيقية الثانية ؛ شرع في استعادة الأراضي التي اغتصبها **البونيقيون** [3] ـ قبل ذلك من الليبيين ـ فازدادت أهمية المزارع النوميدية ،

---

[1] مؤرخ إغريقي عاش في القرن الأول ق. م.

[2] أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 112. هنيبعل، ج: 2، ص ص: 332 ـ 333. مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص: 158.

[3] (كانت تجد روما في مسنيسا حليفاً تشجعه على التوغل في أرض قرطاج؛ للحيلولة دون ازدهار الميناء الإفريقي... وكان ملك النوميديين أمهر من أن يهمل استغلال هذه الفرصة. وبما أنه يمكن له المطالبة بما قد ملكه ـ من قبل ـ آباؤه وأجداده من تراب قرطاج. فقد

وتضاعفت المساحات المزروعة ؛ حتى قيل أن **مسنيسا** وحده كان يملك مزارع شاسعة تقدر بآلاف الهكتارات ؛ حيث يقول المؤرخ الإغريقي **ديودور الصقلي** : ((**لقد برع** [أي مسنيسا] **في الأشغال الفلاحية ؛ حتى أنه ترك لكل واحد من أبنائه 10000 "*plèthre*" "874 هكتاراً ؛ مجهزة بكل الآلات [1] اللازمة للاستغلال**)). [2]

وإذا كان نصيب الواحد من أبنائه هو 874 هكتاراً ؛ فماذا يكون العدد عندما يتبين لنا أن عدد أبناء **مسنيسا** يصل إلى 44 أو 54 ولداً تقريباً. وتقول المصادر أيضاً أن **مسنيسا** كان يعمل في الحقل بنفسه. ((**ولعله جعل من الأراضي التي افتكها من البونيقيين ملكاً خاصاً به استغله لنفسه. فلم يستنكف من أن يكون مثلاً يحتذى**)). [3] ولم يأخذ **مسنيسا** الأراضي لنفسه فحسب ؛ بل وزع أراضي واسعة على رعاياه ؛ ممن اقتنع بدعوته المتعلقة بالاستقرار والعمل في الفلاحة. [4] وبالفعل فقد استجاب له عدد من القبائل النوميدية ؛ حيث اختار أبناؤها الاستقرار على التنقل والترحال ؛ وقد جمعهم **مسنيسا** في **قرى محصنة** ؛ تجنباً

كانت ذاكرته تكتشف حقوقاً قد جهلها والده "غايا"؛ وذلك تبريراً لطلباته. لذا شرع منذ سنة 193 ق.م؛ في قطع لحم قرطاج إرْباً إرْباً ... وفي سنة 162 ق. م؛ احتل مسنيسا الأراضي الخصبة "مراكز التجارة" "*Emporia* " أي جهة سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى... وبعد ذلك بتسع سنوات أتى دور "الدخلة" "*Campi magi* " التي كانت خيراتها تغري منذ زمن بعيد الإغليد)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 140 ـ 141. وبعد مدة تمكن ماسينيسا من افتكاك مساحات كبيرة من أيدي البونيقيين بحجة أنها كانت من ممتلكات السكان الأصليين. فمثلاً استرد في سنة 182 ق.م؛ أرضاً كانت لأبيه غايا؛ ومنحها سيفاكس للقرطاجيين. ثم استولى في سنة 174 ق. م؛ على 70 مدينة وقلعة بونيقية. ثم استولى أيضاً سنة 162 ق. م؛ على أراضي خصبة في نواحي السرت. ثم احتل سنة 154 ق. م؛ أراضي الدخلة المتاخمة لدقة.

[1] تقول المصادر التاريخية أن القرطاجيين تمكنوا من اختراع آلات عديدة تساعدهم على الأشغال الفلاحية؛ مثل: المحراث الحديدية ذات الشكل الثلاثي، وآلة أخرى تساعد على الدراسة؛ أخذها عنهم الرومان وسموها "العجلة الفونيقية". أنظر هنيبعل، ج: 2، ص: 340. وتاريخ الشمال الإفريقي، ج: 1، ص: 113.

[2] نفسه، ص: 135.

[3] نفسه، ص: 135.

[4] ((وقد كان النوميديون يزرعون القمح والشعير مثل البونيقيين... ")). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص : 135.

للمخاطر التي تأتي بسبب غارات **البدو**. ويبدو أن استقرارهم في تلك **القرى المحصنة**، وتعاطيهم للفلاحة لم يمنعهم من مواصلة الاشتغال بالرعي ؛ لأن العمل الفلاحي يتطلب وقتاً كبيراً لكي تظهر نتائجه. وبهذا تمكن **مسنيسا** من تحويل جزء معتبر من رعاياه إلى مواطنين مستقرين في أماكن معلومة ؛ الأمر الذي ساعد على تمدينهم. [1]

هذا عن الفلاحة، أما الصناعة ؛ فلم تكن في مستوى الفلاحة ؛ من حيث اهتمام الناس بها. إذ كان مستوى التصنيع في **قرطاج** متدني عما عرفته **مصر** وبلاد **الإغريق** مثلاً ؛ إذ لم تصل جودة الصناعة **البونيقية** إلى المستوى المطلوب ؛ لكي تنافس غيرها من الصناعات. ونتيجة لذلك فقد بقي المغاربة قاصرين في هذا الميدان الحيوي أيضاً ؛ بحكم ارتباطهم مباشرة بالإنتاج الصناعي **البونيقي**.

وإذا تتبعنا ما حكم به المحققون والنقاد ؛ فإننا سنخرج برأي يضع الصناعة **القرطاجية** في المقدمة من حيث الكم ؛ أما الكيف فلا حظ لها بين صناعات الأمم الأخرى ؛ ما عدا بعض القطاعات كالنجارة والصباغة مثلاً. لذا فكل ما تعلمه المغاربة ـ الذين كانوا يملأون المصانع القرطاجية كأيدي عاملة ؛ خاضعة لسلطان الأرستقراطيين من أصحاب المصانع ـ هي بعض الحرف البسيطة المنحصرة في **نسج الزرابي**، وحرفة **النجارة**، ثم **الحدادة** ؛ التي تهتم بصناعة أدوات الفلاحة المختلفة. أما

---

[1] ثمة رأي يقول بأن هدف مسنيسا من تمدين رعيته وتوطينها ضمن قرى محصنة لم يكن بدافع الأمن فقط؛ بل له أسباب أخرى تتعلق بجمع الضرائب؛ لتمكين دولته من الصمود والنمو. ((وإذا كان من الممكن استخلاص الضرائب من جماعات البدو المتفاوتة العدد؛ سواء بالمباغتة أو بالقوة؛ فإنه ما كان لأي إغليد أن يتنبأ ـ ولو على سبيل التقريب ـ بما سيجلبه له حماس الحركة" من موارد. فالبدوي ـ من حيث دفع الأداءات ـ من أسوإ الرعايا. أما الحضري فهو ـ على العكس من ذلك ـ خير من يحلم به حاكم... والغاية القصوى قد تتمثل في القدرة على إحياء البدوي ـ وهو مادة جبائية ميتة ـ وذلك بجعله حضرياً ؛ وليس ذلك بالعمل الهين. ولم يكن ليتصدى له مسنيسا، ولينجز جانباً منه لو لم يتمتع في نفس الوقت بهيبة كبيرة وعزيمة فولاذية)). إفريقيا الشمالية، ج:1، ص: 134.

الفخار فهي مهنة معروفة من قبل عند المغاربة ؛ وكل ما تعلموه في هذا الباب هي المبتكرات الخاصة بتجميل وزخرفة الفخار. وحتى هذه لم تصل إلى المستوى الرفيع الذي يأتي به التجار من بلاد الإغريق. وكذلك الحال بالنسبة لحرفة **الدباغة** ؛ التي لم يكن المغاربة القدماء يجهلونها ؛ إذ كانت معظم ألبستهم من جلود الحيوانات المدبوغة طبعاً [1]. وكل ما يمكن أن يتعلمه هؤلاء من **الفينيقيين** ؛ هو الصقل الجيد للجلود ، والزيادة في نعومتها وجمالها.

ـ الحكم في قرطاج :

بقي لنا أن نتكلم قليلاً في موضوع نظم الحكم في قرطاج. وهو موضوع هام ؛ في حالة ما إذا بحثنا عما يمكن أن يستفيد منه المغاربة القدماء. لأن **قرطاج** في هذا الباب احتلت مكانة مرموقة بين أمم ذلك الزمان. فهذا الفيلسوف الإغريقي **أرسطوطاليس** *Aristote* [2] يشرح الكيفية التي كانت عليها نظم الحكم في **قرطاج** ؛ خلال القرنين : الرابع والخامس ق. م. فيرى أن النظام السياسي لدى **البونيقيين** كان كالتالي :

ـ الملكان أو السبطان *Sufètes* : وكلمة **أسباط وأشفاط** ـ في الحقيقة ـ تعني بالفينيقية **الحكام أو القضاة**. وقد أطلقوا هذا الاسم أيضاً على العاهلين اللذين يحتلان أعلى القمة في هرم السلطة بقرطاج.

ـ مجلس الشيوخ *Sénat* : وهوي الغرفة العليا في البرلمان القرطاجي ؛ وتتشكل من 300 عضو ؛ يختارون مدى الحياة. ويقوم مجلس الشيوخ بمساعدة السبطين في تسيير الإدارة العليا ؛ إذ هو الذي يقرر وجوب الحرب أو الميل إلى السلم. كما يدخل في اختصاصه تعيين القادة ، أو عزلهم.

---

[1] أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 76. وهنيبعل، ج: 1، ص: 43. ومدنية المغرب العربي في التاريخ، ص: 63.

[2] فيلسوف إغريقي عاش من: 384 إلى 322 ق. م.

ـ **الشعب** ***le peuple*** **:** وهي جمعية عامة لفئة من الشعب ؛ إذ يشترط في أعضائها عدة شروط ؛ منها : أن يكون المترشح حراً، وأن يبلغ سناً معينة، وأن تكون جنسيته قرطاجية أو فينيقية، وأن يكون وضعه المالي حسناً.

ـ **الجمعيات** *Hétairies* : وهي عبارة عن جمعيات سياسية ودينية ؛ ذات طابع رسمي ؛ شبيهة بالأحزاب السياسية ؛ إذ يجتمع أصحابها مع بعضهم ليلاً للنظر في شئون الدولة، ويتدارسون في أعمال المجالس الشعبية.

&&&

أما الحالة التي أضحت عليها نظم **قرطاج** السياسية في القرنين : الثالث والثاني ق. م. فيشرحها مؤرخ يوناني اسمه **بوليبس** ***Polybe*** [1] حين لخص سلطات **قرطاج** في : ثلاث هيئات هي :

ـ **السلطة العليا** *Pouvoir suprême* : وتمركزت هذه السلطة في **آل برقة** ؛ الذين تداولوها زمناً ؛ واعتبروا خلال ذلك بمثابة الملوك.

ـ **مجلس الشيوخ** *Syncletos* : وقد تضاءل نفوذ مجلس الشيوخ في عهد **آل برقة** ؛ الذين اعتمدوا على الشعب ؛ مقابل أرستقراطية مجلس الشيوخ.

ـ **مجلس الثلاثين :** ويهتم هذا المجلس في المقام الأول بشئون الضرائب.

ـ **مجلس العشرة** : يهتم هذا المجلس بالشئون الدينية، ويسهر على بناء المعابد وصيانتها.

ـ **الشعب** : تمتع هذا المجلس بأهمية كبيرة في عهد **آل برقة**. وقد أعطيت له صلاحيات كبيرة على حساب مجلس الشيوخ.

&&&

[1] مؤرخ إغريقي عاش من: 200 إلى 125 أو 120 ق. م.

ـ *ما اقتبسه المغاربة* : والآن؛ ما هي الفوائد التي استخلصها المغاربة من النظام السياسي **البونيقي**..؟ عندما يحاول السائل الإجابة على هذا السؤال سوف لن يجد ما يسعفه. وكل ما يستحق القول هو عبارات عامة وغامضة. لأن ما يمكن سبره وتمحيصه من نصوص لا تعدوا ما قيل في الإغليد **مسنيسا**؛ إذ أن الذين سبقوه من الملوك **الليبين**؛ لم يُؤْثر عنهم ما يفيد قيام نظام سياسي لديهم؛ شبيه بما كان في **مصر** أو **بلاد الإغريق** أو **قرطاج**. وكل الذي عرف حتى الآن عنهم؛ أنهم كانوا رؤساء قبائل وزعماء أحلاف قبلية؛ يتطلعون إلى مناصب الملوك؛ دون أن يسعوا بجد لذلك.

المهم أن أول إشارة لخطة **بونيقية** استفادت بها شخصية مغربية هي المعلومة التي تفيد بأن جد **مسنيسا** من أبيه **غايا** ـ المدعو **زيلالسن** ـ كان قاضياً أي **سبطاً** أو **شيفطاً** *sufète* بمدينة **دقة**. [1] والأمر الثاني الذي ردده المؤرخون بكثرة دون الدخول في التفاصيل؛ هو القول الشهير الذي يفيد بأن الإغليد **مسنيسا** أراد أن يكون عاهلاً لا سيد قبيلة. [2] إذ أنه منذ البداية شرع في توطين رعيته، وتشجيع أعضائها على الاستقرار والإقامة في قرى ومدن محصنة. وقد تكون الدوافع لهذا التوجه من قبل **مسنيسا** كثيرة؛ ولكن أهمها كما يبدو هو تسهيل إجراءات استخلاص الضرائب. لأن من السهل فعل ذلك مع أناس مستقرين في أماكن ثابتة؛ بينما يصعب تطبيق ذلك مع أهل البادية المتنقلين من موضع إلى آخر. لأن الضرائب بالنسبة للدولة أمر حيوي وضروري؛ فبدون الموارد الضريبية لا يمكن بناء دولة بمؤسسات قوية ومرافق فعالة. وهكذا؛ كان على الإغليد **مسنيسا** أن يوفر الموارد المالية لكي يجهز جيشه، ويبني أسطوله البحري، ويشيد حصونه، ويؤسس دولته في كل الميادين الضرورية. وقد أشار ش.

---

[1] *L'Afrique du NORD dans l'antiquité P*: 102.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 134.

أ. جوليان إلى ما أنجزه **مسنيسا** بقوله: ((**واستوحى من دساتير المدن الساحلية ما مكنه من منح المدن الجديدة نظاماً بونيقياً يعتمد على حكام سموا الأسباط أو الأشفاط** *suffètes*)).[1]

وجملة القول؛ فالإغليد **مسنيسا** تمكن من بناء أسطول، كما قام بتشكيل جيش محترف دائم. وقام أيضاً بسك نقود برونزية وفضية تحمل صورته؛ وعلى رأسه تاج بإكليل من الغار. بالإضافة إلى ما أنجزه من تنظيمات إدارية؛ اقتبسها من نظم **قرطاج**؛ حين عين في مدن دولته **حكاماً** أو **أشفاطاً** لتسيير شئون الدولة فيها. إذ كانت تلك المدن تخضع لحكام تنفيذيين يباشرون العمل القضائي والإداري؛ وإلى جانبهم تقوم هيئات أو مجالس سيادية ممثلة لسكان تلك المدن. هذا عن المدن؛ أما القرى فبعضها لم يتخلص من نفوذ المؤسسات القبيلة؛ حيث اقتصر دورها على تنشيط التجارة في أسواقها.

هذا هو كل ما نعرف عن النظم السياسية التي اعتمدها **مسنيسا** في دولته. وبذلك يكون أعظم إنجاز حققه هذا الإغليد هو **تمدين النوميديين**، وتحويلهم من **بدو مشاغبن** إلى **فلاحين نافعين**. أما الصورة الوافية للحالة التي كانت عليها مؤسسات دولته، أو الكيفية التي كان يحكم بها بلاده؛ أو الخطط والوظائف التي أنشئت لضبط شئون الدولة؛ فلا نعرف منها شيئاً مهماً؛ سوى المرتبة الملكية؛ التي أضحت من القوة والتأثير أيام الإغليد **مسنيسا** إلى درجة أنه اعتبر بمثابة الإله؛ فغدا معبوداً لرعيته؛ حيث أقيم معبد له في مدينة **دقة** بعد وفاته بعشر سنين.

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 135.

وممـا يؤسـف لـه حقاً أن حركـة البنـاء والتشييـد الـتي افتتحهـا الإغليـد **مسنيسا** توقفت بعد موتـه مباشـرة ؛ بـل تبخـرت معظـم إنجازاتـه بعـد مـدة زمنيـة قصيـرة. ففي أيام **مسيبسا** ؛ اكتفى هـذا الإغليد بمـا ورثـه عـن أبيـه ؛ دون أن يضيف إليه شيئاً يستحق الذكر. ثـم جاء عهـد **يوغرطا** ؛ فلـم تتـرك لـه الحـروب والفتـن وقتـاً كافيـاً للتفكيـر في تطويـر نظـم دولتـه ؛ مـا عـدا اهتمامـه بالضرائـب ومـن يستخلص الضرائـب ؛ لـكي يتمكـن مـن الصمـود ضـد أطمـاع رومـا.



الصلات مع الرومان

بدأت صلات المغاربة القدماء مع **الرومان** [1] في زمن متأخر ـ بعض الشيء ـ عما كان عليه الحال مع **المصريين واليونانيين والفينيقيين** ؛ ذلك لأن **الرومان** ظهروا في مسرح الأحداث التاريخية في زمن متأخر أيضاً. ويبدو أنهم عرفوا **المغاربة وبلاد المغرب** عن طريق **البونيقيين** ؛ أثناء المبادلات التجارية ، أو خلال الحروب الطاحنة التي دارت بين **القرطاجيين والرومان** في **صقلية وشبه الجزيرة الأيبيرية**. هذا إذا ما استثنينا الصلات القديمة جداً بين سكان شمال **إفريقيا وشبه الجزيرة الإيطالية.**

لأن المعلومات الأثرية تؤكد حدوث تلك الصلات في فترة زمنية تعود إلى مرحلة **الثقافة النيوليتية** (العصر الحجري الحديث) ؛ وبالتحديد في **الألف الخامسة ق. م.** وتم ذلك عندما حدثت هجرة لجماعات بشرية تنتمي **للإنسان المتوسطي** (في فترة الحضارة القفصية) ؛ انطلقت من **شمال إفريقيا** نحو **شبه الجزيرة الإيطالية** من جهة ، **وشبه الجزيرة الإيبيرية** من جهة أخرى ؛ حيث استوطنوا ـ بصفة نهائية ـ تلك الديار. ويجمع المختصون على تفوق أولئك المهاجرين ثقافياً على الذين وجدوهم قبلهم في أرض **إطاليا** ؛ إذ كانت أدواتهم الحجرية أكثر صقلاً وأجود صنعاً. [2] وتقول المصادر أيضاً أنهم اندمجوا وامتزجوا ـ بعد قرون ـ ضمن ما عرف لاحقاً بشعب **اللاتين** أي سكان منطقة اللاتيوم. [3] إذن فالصلات بين سكان أوروبا وسكان الشمال الإفريقي قديمة قدم الإنسان نفسه. ومع

---

[1] الروم والرومان اسم لمواطني مدينة روما الإيطالية التي تأسست حوالي سنة 753 ق. م.

[2] *Grand Mémento Larousse- t: 1, p*: 159. ومدنية المغرب العربي، ص ص: 42 ت 43. وتاريخ الرومان، ج: 1، ص ص: 37 ـ 38. والقبائل الأمازيغية، ج: 1، ص: 56.

[3] تاريخ الرومان، ج: 1، ص: 67.

هذا فما يهم هنا ؛ هي الصلات التي وقعت بين أهل المغرب القدماء، وبين الدولة الرومانية بأشكالها الثلاثة : **الملكية والجمهورية والإبراطورية.**

ولكي تسهل علينا عملية المقارنة، وكي يتسنى لنا تطبيق ما يمكن استنتاجه من صلات أفادت **المغاربة** ؛ نتيجة لعلاقاتهم مع **الرومان** ؛ لا بد لنا من تكوين فكرة عن هؤلاء الرومان، وما وصلوا إليه من تطور في المجالات الحضارية، وما قدموه للمغاربة من معارف وفنون وصنائع ونظم. وبالمقابل لابد من معرفة ما هي درجة استيعاب المغاربة للمعروضات الرومانية. ولكي تتبلور الفكرة جيداً ؛ يستحسن الإشارة إلى الفروق بين صلات **المغاربة** مع **المصريين والإغريقيين والفينيقيين** وبين صلاتهم مع **الرومان** ؛ لأن هؤلاء الأخيرين ظهروا بعد احتكاك المغاربة بالحضارات المذكورة ؛ التي تعرف عليها المغاربة قبل ظهور الرومان ؛ بل قبل تشكيل الشعب الروماني نفسه. لذلك نرى أن **الرومان** تعلموا من **الإغريقيين والبونيقيين** جملة معتبرة من القيم الحضارية، والمعتقدات الدينية، والتقاليد الاجتماعية، والنظم السياسية، وأساليب العيش المختلفة، وأنواع الفنون المتنوعة.. إذن فقد كانوا عبارة عن تلاميذ يتلقون الدروس ـ من رواد الحضارة القديمة ـ في قسم واحد مع **المغاربة القدماء**.. وعليه ؛ فما هو السبب الذي جعل أحد التلميذين يستوعب الدرس، وينجح في تطبيق ما تعلمه ؛ بينما يفشل الآخر في ذلك..؟**!**

يبدو أن علة ذلك تنحصر في آفة **البداوة**.. تلك الآفة التي تخلصت منها **قبائل إيطاليا** منذ زمن قديم جداً.. إذ أنه على الرغم من بقاء ظاهرة **القبلية** في المجتمع الإيطالي ؛ إلاّ أن القبلية بدون **بداوة** تكون ألين وأطيع من القبلية في بيئة بدوية. وهذا ما يمكن ملاحظته بسهولة حين تقارن بين **المجتمع القبلي الإيطالي** وبين **المجتمع القبلي المغربي**. فالمجتمع الأول اختار

حيـاة الاستقـرار داخـل قـرى محصنـة ومـدن متسعـة، وسـعى للعمـل في الفلاحة أو الصناعة، أما المجتمع الثاني فقد تعذر عليه القيـام بذلـك؛ بـل اختار حياة الترحال والنجعة في الفيافي والقفار.. دون الالتزام بالروابط المكانية.

لـذا نـرى أن **الرومـان** ـ الذيـن كانـوا لا يختلفـون كثيـراً عـن **المغاربـة** في أسلوب الحياة وفي المساكـن ـ تمكنوا من التخلص من **أكواخهـم المستديـرة**؛ الشبيهـة بأكـواخ المغاربـة القدمـاء؛ ثـم عملـوا بجـد وإصـرار عـلى تطويـر معارفهـم في فـن العمـارة؛ مقلديـن في ذلـك الإغريقييـن والبونيقييـن؛ حيـث بـرزت عندهـم المـدن العظيمـة، والعمـارات الفخمـة. كمـا أنهـم سنـوا في بلادهـم نظمـاً سياسية مستمدة من نظـم الإغريـق أو قرطاج أيضـاً؛ ولكنهـا مكيفـة حسـب ظروفهـم الاجتماعيـة واحتياجاتهـم الداخليـة. وقـد عرفـت نظمهـم السياسية تغييـرات وتحولات عديدة خلال العهـود الثلاثـة: **الملكيـة والجمهورية والإبراطورية**..

ـ الحكـم لـدى الرومـان:

يمكـن الإشـارة بإيجاز هنـا إلى النظـم السياسية الرومانية؛ وبالخصـوص تلـك النظـم الـتي اعتمـدت في الوقـت الـذي حصـل الاتصـال المباشـر بيـن الرومـان والمغاربة خلال العهديـن: **الجمهـوري والإمبراطـوري**:

ـ **الملـك**: الملكيـة قامـت أيـام **الأتروسكييـن** [1]؛ الذيـن تمكنوا مـن توحيد اثنـتي عشـرة دولـة مدينـة؛ ضمـن حلـف ديـني؛ يفتقـر إلى حكـم مركـزي شامـل. ويتـولاه رئيس كهنة الأضـاحي؛ الـذي يلقـب باسـم **ملـك الأضـاحي** *Rex Sacorum*. وقـد سقـط آخـر ملوكهـم سنـة 509 ق. م. وكـان النظـام

[1] الأتروسكيـون شعـب هاجـر إلى إيطاليـا في حـدود القـرن الثامـن ق.م؛ قـدم إليهـا مـن ليديـا فـي آسيـا الوسـطى؛ حيـث استقـروا في منطقـة اتروريـا. ومـا أن حـل القـرن السـادس ق. م حـتى أصبـح الأتروسكيـون قـوة يحسـب حسابهـا في شبـه الجزيـرة الإيطاليـة.

المتبع آنئذ هو **نظام دولة المدينة** المستمد ـ كما يبدو ـ من نظام دول المدن الإغريقية. وكان الملك ينتخب من بين أعضاء الأسرة المالكة.

ـ مجلس الجماعة: ويساعد الملك في تسير شئون الدولة مُجَمَّع يمثل الشعب ويتكون من عائلات *familia*؛ تنتسب بالوراثة لثلاثين جماعة تسمى كل واحدة باسم كورية أو **كوريا** *curiae*؛ وكل عشرة من الجماعات تسمى قبيلة. وبذلك انحصر المجتمع الروماني ـ في بداية الأمر ـ ضمن ثلاث قبائل هي: *Ramnes*، *Tities*، *Luceres*..[1] وكان لتلك الجماعات *curiae* مجلس يسمى مجلس الجماعة *Comitia Curiata*؛ يجتمع حسب رغبة الملك. ولا يختص هذا المجلس بأمور التشريع؛ بل يتكفل باتخاذ قرارات ذات طابع هام كـ: إعلان الحرب والتصديق على اختيار الملك.

ـ مجلس الشيوخ *Senatus*: وهو في هذا العهد هيئة استشارية ـ أكثر منه تشريعية ـ تنتصب إلى جانب الملك. وكان مجلس الشيوخ في البداية يتشكل من شيوخ القبائل المعينين من طرف الملك. ولكنه غدا ـ فيما بعد ـ مكوناً من أعضاء ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية.

&&&

هذا عن الملكية في عهد **الأتروسكيين**. وهم ليسوا من الشعب اللاتيني. أما الرومان اللاتينيون فقد أعلنوا قيام الجمهورية الأرستقراطية بعد إسقاطهم للملك الأتروسكي سنة 509 ق. م. وذلك بانتخاب قنصلين اثنين في قمة الحكم بروما. وبهذا أصبح نظام حكمهم كالتالي:

ـ القنصلان: تنتخبهما طبقة النبلاء لمدة عام واحد؛ على أن تسند إليهما السلطة الملكية المعروفة عندهم **بالأمبريوم** *Imperium*. والهدف من

[1] تاريخ الرومان، ج:1، ص: 75.

اعتماد قنصلين اثنين بدلاً من واحد ؛ هو الحرص على عدم استبداد قنصل واحد للسلطة. ولم يسموا من تولى هذا المنصب **قنصلاً** *Konsul* - في بداية الأمر - بل كان يسمى **براتورن** *Pratoren*. وقد أضاف الرومان فيما بعد قنصلاً ثالثاً يسمى **قنصل الطوارئ** ؛ يعين في حالات استثنائية من قبل مجلس الشيوخ، ويتكفل بالطوارئ في الحالات الخطيرة ؛ خلال مدة معينة لا تتجاوز الستة أشهر.

- **مجلس الشيوخ**: ورثت الجمهورية هذه المؤسسة من النظام الملكي السابق ؛ غير أنها تدعمت بصلاحيات إضافية ؛ إذ غدت مؤهلة للفصل بين القنصلين إذا ما اختلفا ؛ كما أصبحت تتشكل من 300 عضواً كلهم من النبلاء ؛ يبقون في المجلس مدى الحياة. غير أنهم أصبحوا 600 في عهد **أكتافيوس** في عام 28 ق.م. وعلى الرغم من كون هذه المؤسسة عبارة عن جهاز استشاري كما كانت من قبل ؛ إلاّ أنها تميزت بنفوذ كبير ؛ لأن أعضاءها يعينون مدى الحياة ؛ بينما ينتخب القنصلان لمدة سنة واحدة. كما أن لمجلس الشيوخ هذا الحق في رفض أو الموافقة على ما يتخذه مجلس الشعب من قرارات.

- **مجلس الشعب**: ورثت الجمهورية هذا المجلس أيضاً عن النظام الملكي السابق ؛ إذ هو امتداد **لمجلس الجماعات** *Curiate*. وكان من مهام مجلس الشعب انتخاب القنصلين كل سنة، ومن صلاحيته أيضاً قبول أو رفض مقترحات القناصل عن طريق التصويت. ومع هذا فلا يحق له التشريع أو مناقشة ما هو ضروري.

ـ **المنظمـة الدينيـة :** لـم تسنـد هـذه المرتبـة إلى القنصليـن ؛ بـل كلـف بهـا كاهـن سـمي أيضـاً **بملـك الأضـاحي** ؛ وكـان تابعـاً للكاهـن الأعظـم ؛ الـذي ينتخـب مـن الشعـب في وقـت مبكـر.

&&&

هـذا وقـد أدخلـت تعديـلات وإضافـات عديـدة عـلى النظـام المتبـع في أوائـل العهـد الجمهـوري ؛ نتيجـة لمـا عرفـه المجتمـع الرومـاني مـن تحـولات. وعلى هـذا فقـد تعـدل النظـام السيـاسي في الجمهوريـة اعتبـاراً مـن أواخـر القـرن الرابـع ق. م. بحيث أضيف إليـه :

ـ **الجمعيـة المئويـة** *Comitia Centuriata* : وهـي مؤسسـة شعبيـة عسكريـة تهتـم بأصـوات الجنـد المشـاة منهـم والفرسـان. ولمـا تضاعـف عـدد القبائـل الرومانيـة ؛ مـن ثـلاث قبائـل في العهـد الملـكي إلى ثلاثيـن قبيلـة في منتصـف القـرن الثالـث ق. م. أصبـح مـن الواجـب وجـود مؤسسـة تعتنـي بالمجنديـن مـن أبنـاء القبائـل. ومـع الوقـت تخلـت هـذه الجمعيـة عـن الصفـة العسكريـة ؛ وغـدت بمثابـة المجمـع الرئيـسي للشعـب الرومـاني ؛ حيـث أضحـت تختـص بانتخـاب الحكـام الكبـار ، وإعـلان الحـرب ؛ ولكنهـا بقيـت دون مجلـس الشيـوخ منزلـة.

ـ **مجلس الجماعـات** : كـان هـذا المجلـس في السابـق يعتمـد عـلى الأسـر والعشائـر. وقـد أصبـح الكاهـن هـو الـذي يرأسـه ؛ للقيـام بأعمـال ذات طابـع دينـي ، أو يقـوم مقـام الشاهـد عـلى منـح السلطـات للحكـام.

ـ **مجلــس القبائــل** *Comitia Tributa* : ظهـر هـذا المجلـس في القـرن الخامـس ق. م. كمؤسسـة حيويـة تمثـل العامـة مـن بيـن القبائـل المتواجـدة في الدولـة الرومانيـة. ومـن مهـام هـذا المجلـس انتخـاب **المحاميـن العشـرة** الممثليـن

لعامة الشعب. غير أن هذا المجلس أصبح في عام 264 ق. م ركناً أساسياً من أركان الدولة.

&&&

أما في عهد الإمبراطورية فقد طغت مرتبة القنصل الأوحد على المؤسسات كلها ؛ حتى أن عبارة قنصل اختفت تماماً ؛ وعوضت بلقب جديد هو الزعيم. أي **زعيم الشيوخ** *princeps senatus* ؛ وما فتئ أن أضحى اللقب **إمراطوراً** ؛ حيث طغت شخصية **أكتافيوس** على الكل ؛ حتى أنه سمي باسم إلهي وهو **أغسطس**.

ـ فوائد محدودة :

والآن علينا الكشف عما يمكن أن يكون الرومان قد أفادوا به المغاربة. فإذا بدأنا مثلاً بالفلاحة ؛ سرعان ما يتضح لنا أن الرومان لم يفيدوا المغاربة بشيء لأن هؤلاء الأخيرين تعلموا فنونها من البونيقيين قبل معرفتهم بالرومان. وهذا شارل أندريه جوليان يقول في هذا الموضوع : ((**إن الرومان لم يلقنوا البربر أساليب الفلاحة ؛ التي نمت على عهد قرطاج والملوك النوميديين. ففي طرابلس وتونس كان القوم قبل مجيئ الرومان يغرسون الزياتين والكروم ويزرعون القمح والشعير ؛ وكانوا في بقية البلاد يقتصرون على ممارسة زراعة الحبوب**)). [1] وكل الذي استفاد به المغاربة أيام الرومان ـ حسب ما يظهر ـ هو تنويع وسائل الإنتاج وتطويرها ، وتكثيف وسائل الري وتعميمها. وما يقال عن الزراعة يمكن تطبيقه أيضاً على تربية الحيوانات ؛ إذ تعلم المغاربة الطرق السليمة لتربية الحيوانات منذ العهد البونيقي ؛ حيث كانوا يربون : الخيل

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص ص: 205 ـ 206.

والأحمرة والشياه والمعز والخنازير والدجاج والإوز والبط والحمام والنحل ؛ كما كانوا يهجنون البغال بواسطة الأحصنة والأتن.

أما الصناعة فيبدو أن الرومان أنفسهم كانوا في مستوى لا يفوق ما كان القرطاجيون عليه في هذا الميدان ؛ لذا فليس لديهم ما يقدموه للمغاربة الذين تعلموا صنائع عديدة أيام البونيقيين ؛ مثل : الحدادة والنجارة والصباغة والصياغة والدباغة والحياكة وصناعة الفخار والنقش عليه والصناعات الغذائية كاستخلاص الزيوت، وتصبير الخضار والفواكه، وحفظ الحبوب. كل ذلك تعلموه بواسطة البونيقيين ؛ حينما كانوا يشتغلون كعمال في مصانع قرطاج والمدن البونيقية المنتشرة على طول الساحل المغربي. وعليه فإن الرومان لم تكن لهم مآثر كبيرة في هذا الميدان ؛ إذ انشغلوا بعمليات الاستغلال الموسعة لكل ما وجدوه صالحاً في بلاد المغرب. وهذا ما شهد به ش. أ. جوليان حين قال : ((**كانت بلاد البربر بالنسبة لروما مستعمرة للاستغلال لا للعمران.. إن روما قامت بتهدئة البلاد وتنظيمها ؛ ولكن الأهالي هم الذين نهضوا بالعمل الحقيقي. لقد أصبح ازدهار بلاد المغرب في عهود الإمبراطورية الأولى مضرباً للأمثال ؛ ولا تزال عبارة "مطمورة روما" إحدى العبارات المبتذلة السهلة يستنجد بها الخطباء**)). [1]

لم يبق من الصنائع - إذن - سوى أعمال البناء التي يمكن حصرها في أشغال العمارة، ورصف الطرقات، وتمديد قنوات الري. وهذه الأعمال كلها بثت بشكل واسع في بلاد المغرب - أيام الرومان - وانتشرت عبر المناطق التي استوطنوها. وتبعاً لذلك ؛ فقد استدعى ميدان العمارة، وتشييد المدن توافر حرف متنوعة ؛ مثل : البناء ونحت الحجارة والنجارة

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص: 205.

والحدادة والصباغة. وهذه الحرف أصحابها متوفرون في بلاد المغرب منذ عهد البونيقيين ؛ وكل الذي جد أيام الرومان ؛ هو التعرف على روح العمارة الرومانية ، واستيعاب الطابع الفني الذي تميز به ذاك الصنف من العمارة ؛ وهذا طبعاً أفاد المغاربة ؛ خاصة عندما تكاثرت المدن في عمق البلاد المغربية ؛ حيث تضاعفت وازدادت ونمت في الحجم وفي العدد.

ـ أهم المدن الرومانية :

ويمكن تصنيف المدن الرومانية في بلاد المغرب إلى ثلاث أنواع من المدن : **مدن بحرية ، ومدن فلاحية ، ومدن عسكرية.**

1 ـ فأما **المدن البحرية** : فأغلبها كانت ـ في الأصل ـ مدناً بونيقية ؛ تم تجديدها وتوسيعها في العهد الروماني. ويغلب على هذه المدن الساحلية النشاط التجاري والصيد البحري ؛ حتى وإن انشغل بعض سكانها بالفلاحة. وتشمل خليطاً من الناس : **المغاربة وبقايا البونيقيين ، واللاتينيين**. من بين تلك المدن : **لبدة** *Leptis Magna* ، **وطرابلس** *Oea* ، **وقابس** *Tacapas* ، **وسوسة** *Hadrumète* ، **وقرطاج** *Carthage* ، **وعنابة** *Hippo Rrgius* ، **وسكيكدة** *Rusicade* ، **والقل** *Chullu* ، **ومليلة** *Rusaddir* ، **وسبتة** *Septem* ، **وطنجة** *Tingi*.

2 ـ أما **المدن الفلاحية** : فمعظمها كان عبارة عن قرى مغربية ؛ تحولت بموجب الاستيطان اللاتيني إلى مدن كبيرة ؛ نتيجة لنمو النشاط الفلاحي المكثف. وسكانها **مغاربة ولاتينيين**. ومنها : **الجم** *Thysdrus* ، **ومكثر** *Mactaris* ، **وباجة** *Vaga* **والكاف** *Sicca Veneria* ، **ودقة** *Thugga* ، **وسوق أهراس** *Thagaste* ، **ومداوروش** *Madauros* ، و**قالمة** *Calama* ، **وقسنطينة** *Cirta* ، **وميلة** *Milev* ، **وسطيف** *Sitifis* ، **ووليلي** *Volubilis*.

3 ـ أما **المدن العسكرية:** فهي منتشرة بكثرة في الجزائر الحالية ؛ على خلاف بقية الأقطار المغربية ؛ إذ كانت تساير تمدد **الليمس** الروماني ؛ ذلك الخط الدفاعي الذي كان يتجدد كلما اقتضى الحال توسعاً جديداً في عمق البلاد المغربية. ومن بين سكانها قدماء الجند بعائلاتهم ؛ سواء كانوا **مغاربة أم لاتينيين**. ولا يقتصر النشاط فيها على الشئون العسكرية فحسب ؛ بل تنوع النشاط فيها إلى الأعمال الاقتصادية مثل : الفلاحة والتجارة والصناعة. ومن تلك المدن : **تبسة** *Theveste* ، **وتيمقاد** *Thammugadi* ، **ولمبيز** *Lambaesis* ، **ومركونة** *Verecunda* ، **وبسكرة** *Vescera* ، **وطبنة** *Thubunae* ، **وجميلة** *Cuicul*.

وقد انبثق عن هذا النوع من المدن الكبيرة شكلا آخر من المدن الصغيرة التي هي في الحقيقة عبارة عن معسكرات أمامية ، ومراكز مراقبة وإنذار ؛ مثل : **غدامس** *Cydamus*، **ونقرين** *Ad Majores*، و**بادس** *Badias* ، و**تهودة، وجميلي (مليلي)** *Gemellae*، **وطولقة** *Tolga*، **والدوسن** *Doucen*، **ومسعد** *Castellum Dimmidi* .

&&&

وإلى جانب تلك المدن الكبيرة تنتشر ـ عبر السهوب والهضاب والجبال ـ أعداد كبيرة من القرى والمداشر ؛ التي يسكنها المغاربة الذين يعملون في الفلاحة ورعي الحيوانات ؛ وهؤلاء هم الغالبية العظمى من سكان المغرب الأصليين. وتعتبر هذه القرى المغربية كامتداد للقرى التي أنشئت أيام الأغاليد النوميديين ؛ تلك القرى التي ضبطها **مسنيسا** ، وشجع مواطنيه على سكناها ، والتحصن داخلها. وهكذا فقد بقيت تلك القرى مستقلة تماماً عن سلطان الرومان ؛ ولم تكن تخضع سوى لشيوخ

القبائل. وقد أبقت على بعض النظم التي سنها **مسنيسا**؛ مثل **مجلس الجماعة** الذي يضبط شئونها: الإدارية والاقتصادية والدينية والحربية.

ومن الواضح أن المدن التي اهتم بها الرومان هي المدن الداخلية؛ على العكس من التوجه الفينيقي المهتم بالتجارة البحرية بالدرجة الأولى. ويبدو أن المدن الفلاحية الرومانية - في عمق البلاد - ازدهرت بفعل التوسع في النشاط الفلاحي، وكثافة المستوطنين الأجانب فيها. أما المدن الداخلية العسكرية فقد بنيت في البداية من أجل تحقيق أغراض عسكرية بحتة. بناها الرومان؛ لكي يتمكنوا من السيطرة على البلاد. وتحقيق القدرة على تكسير أي مقاومة يمكن أن يقوم بها السكان ضدهم. وجدير بالملاحظة أن اهتمام الرومان بالمدن الداخلية في بلاد المغرب انحصر - بعض الشيء - في أقطار ثلاثة هي: **تونس، والجزائر، والمغرب الأقصى**. بينما ظل اهتمامهم في ليبيا لا يتجاوز الشريط الساحلي - حتى وإن ظهر منهم أخيراً عناية ما **بغدامس وبلاد فزان** - وربما كان ذلك بسبب ضيق المساحات الفلاحية الخصبة؛ وقرب المفازة الصحراوية من الشريط الساحلي. وعليه فكل المدن الداخلية المعروفة حتى الآن لا تخرج عن نطاق الأقطار الثلاثة المذكورة. وأهم المدن الداخلية في هذه الأقطار هي:

أ- في ليبيا الحالية:

إذا استثنينا ما بناه الفينيقيون والإغريقيون على طول الساحل الليبي؛ فإن أهم المدن الداخلية أيام الرومان هي: **(*Cydamus*) غدامس، و(*Alale*) فزان، و(*Cillala*) زويلة.**

ب ـ وفي تونس الحالية :

بالإضافة إلى ما تركه الفينيقيون من مدن ساحلية ؛ فالمدن الرومانية هي : (*Sufetula*) **سبيطلة**، و(*Ammaedra*) **حيدرة**، و(*Mactaris*) **مكثر**، و(*Althburos*) **المدينة**، و(*Thuburbo Majus*) **همشير القصبات**، و(*Bulla Regia*) **حمام الدراجي**، و(*Simitthu*) **شمتو**، و(*Capsa*) **قفصة**، و(*Thelepte*) **فريانة** الرابضة بالقرب من القصرين.

جـ ـ وفي الجزائر الحالية :

ـ الخط الأول شمالاً : هي المدن التي سبق ذكرها عند الحديث عن المدن الفينيقية ؛ لأن الرومان أعادوا بناءها وتوسعتها.

ـ **الخط الثاني شمالاً** : (*Thagaste*) **سوق أهراس**، و(*Tubursicu*) **مداوروش**، و(*Gadiaufala*) **قصر صباحي**، و(*Calama*) **قالمة**، و(*Thibilis*) **عنونة**، و(*Aquae Thibilitanae*) **حمام المسخوطين**، و(*Cirta*) **قسنطينة**، و(*Milev*) **ميلة**، و(*Cuicul*) **جميلة**، و(*Ad Basilicam*) **القْصَر** ؛ **شمال سطيف**، و(*Ad Portum*) **العلمة**، و(*Sitifis*) **سطيف**، و(*Ad Basilicam*) **القصر**، و(*Choba*) **زياما**، و(*Tubusuptu*) **تيقلات**، و(*Auzia*) **سور الغزلان**، و(*Rapidum*) **سور جواب** أو سيدي سعد ؛ بين سور الغزلان وبَرْواقية، و *Thanaramusa* (*Castra*) **برواقية**، و(*Lambdia*) **لمدية**، و(*Sufasar*) **واد الشرفة**، و(*Aquae Calidae*) **حمام ريغة**، و(*Zucchabar*) **مليانة**، و(*Malliana*) **خميس مليانة**، و(*Oppidum Novum*) **عين الدفلة**، و(*Tigava Castra*) **العطاف**، و(*Castellum Tingitatum*) **الأصنام** أو مدينة الشلف الحالية، و(*Gadaum Castra*) **جْدَيْوِيَّه**، و(*Timici*)

القلعـة، و(*Mina*) غيليـزان، و(*Quiza*) سيـدي بلعطـار؛ بالقـرب مـن مستغانــم، **و(*Ballene Praesidum*) لهيليـــل، و(*Castra Nova*) المحمديـة، و(*Tasaccura*) سيـق، و(*Regiae*) أريـال؛** في نـواحي جبـل تسالـة، **و(*Albulae*) عين تموشنت.**

ـ والخـط الثالـث نحـو الجنـوب: (*Marcimeni*) عيـن البيضـاء، و(*Vasampus*) مرســط، و(*Theveste*) تبســة، و(*Vegesala*) قصــر الكلـــب، و(*Mascula*) خنشلــة، و(*Thamugadi*) تيمقـــاد، و(*Verecunda*) مركونـة، و(*Lambaesis*) تازولـت، و(*Diana*) زانـة، و(*Lamasba*) مروانـــة، و(*Zarai*) سرايـــة، و(*Tubunae*) طبنـــة، و(*Calceus Herculis*) ـ أي ركلة هرقل ـ القنطرة، و(*Vescera*) بسكرة، و(*Badias*) بادس، و(*Thabudeos*) تهودة، و(*Gemellae*) جاميـلي أو مليـلي الحاليـة، **و(*A D Majores*) نقريـن، و(*Castellum Dimmidi*) مسعـد، و(*Columnata*) عيـن تركيـة؛ أو** خميسـتي الحاليـة **و(*Aquae Sirenses*) حمـــام بوحنيفيـــة، و(*Cohors Breucorum*) سعيـــدة، و(*Alamiliaria*) بانيـان، و(*Kaputtasaccura*) سيـدي علي بـن أيـوب، و(*Altava*) أولاد ميمـــون** أو حجـــر الـــروم، **و(*Pomaria*) تلمســـان، و(*Numerus Syrorum*) مغنيـة.**

ـ في المغــرب الأقــصى:

بالإضافة إلى مـدن الساحـل الـتي شيـدت مـن قبـل الفينيقييـن؛ فـإن الرومـان أضافـوا مدناً أخرى داخلية؛ أهمهـا:

(*Volubilis*) وليـلي، و(*Zilis*) أرزيلة؛ بيـن طنجة والعرائش، **و(*Babba Campestris*) بابــا كومبستريـــس** بالقـــرب مـــن وزان، **و(*Valentia Banasa*) سيـدي علي بوجنـون؛** عـلى وادي سبـو.

وعلى الرغم من الطابع المدني الذي تتميز به بعض المدن ؛ إلاّ أنها بقيت ـ طوال الحكم الروماني ـ تخضع لمستعمرين أجانب يحتمون بقوات من الجيش الروماني ؛ ولا تهمهم مصلحة أهل البلاد الأصليين ؛ وكل ما يشدهم إليهم هو استغلالهم في الأعمال الحقيرة والأشغال المتعبة ، وحملات السخرة والأعمال الإجبارية ؛ التي تضمن للمحتلين خدمات رخيصة أو مجانية ؛ يقوم بها أولئك السكان التعساء في تلك المدن أو المعسكرات. ومن هنا تتضح بعض الأسباب التي حالت دون النمو المطلوب لمعظم المدن الرومانية في بلاد المغرب. لأن الإقامة في تلك المدن لا تكون مريحة إلاَّ لبناتها أو قدماء الجند ، وبعض المستعمرين اللاتينيين. أما الباقون من العمال الكادحين والعبيد المسحوقين ؛ فلا يعرفون طريقاً للراحة أو الاستمتاع بسكنى المدن الرومانية. غير أن ثمة فئة قليلة من المغاربة كانوا يسكنون تلك المدن الزاهرة ؛ وهم فئة ميسورة الحال ؛ كانوا قد ارتبطوا بالرومان ـ منذ البداية ـ بروابط وثيقة. سواء كانوا من أسر جنود ، أو أسر موظفين مدنيين خدموا الدولة الرومانية بإخلاص.

ـ مراكز الثقافة الرومانية :

وقد احتلت بعض المدن مكانة مرموقة في المجالات الثقافية والعلمية ؛ من بينها المدن التي تشتمل على ما يمكن تسميته بجامعات أو معاهد عليا. وهذه المدن هي : *OEA* **طرابلس ، و** *Leptis Magna* **لبدة ، و** *Hadrumète* **سوسة ،** و *Carthago* **قرطاج** و *Thagaste* **سوق أهراس ، و** *Tubursicu* **مداوروش و** *Theveste* **تبسة ،** و *Cirta* **قسنطينة.** بالإضافة إلى مدن أخرى كان بها مدارس للمبتدئين ؛ وكانت تلك المدارس كلها خاصة ؛ لا علاقة لها بالدولة الرومانية ؛ وإنما تتلقى بعض العون من

البلديات أو بعض الميسورين من الرومان وغيرهم. ومن أشهر المتخرجين من جامعات ومعاهد هذه المدن:

ـ **أبولي :** *L. Apulée* : ولد في مدينة *Tubursicu* **مداوروش** الحالية ؛ في سنة 114 وتوفي في سنة 184 **ميلادية. وهو فيلسوف وأديب؛** ويعتبر من أشهر الكتاب المنتمين لبلاد المغرب في ذلك الوقت ؛ إذ ينحدر من أسرة ارستقراطية حاكمة ؛ وكان والده من الحكام في القرن الثاني. وقد زاول دراسته العليا في **قرطاج**، ثم سافر إلى **إطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى والإسكندرية** ؛ حيث تزود بعلوم متنوعة منها الفلسفة والخطابة. ومن آثاره الأدبية: الأبولوجيا *Apologie*، الأزاهير *Florides*، ثم المسوخ *les métamorphoses* أو الحمار الذهبي ؛ وهي أول قصة كتبت في تاريخ الآداب العالمية.

ـ **سالفيوس جوليانوس** *Salvius Sulianus* : كان حياً في سنة 129 ميلادية. وهو من *Hadrumetum* **سوسة**. كان مهتماً بالقانون ؛ فشارك بأعمال كتابية حول هذا الموضوع.

ـ **منليوس:** كان شاعراً فحلاً وخطيباً ذائع الصيت. عاش في عهد الإمبراطور **تيبريوس** (14 ـ 37 م). عالج موضوع التنبؤ بالغيب عن طريق قراءة الطالع ؛ فكان له صدى في ذلك الوقت ؛ الذي يستجيب ويتأثر بهذا الشكل من التنجيم.

ـ **كَرْنيتوس :** فيلسوف رواقي وخطيب لوذعي. أدار مدرسة **بروما** في عهد الإمبراطورين: **كلوديس** (41 ـ 54 م) **ونيرون** (54 ـ 68م).

ـ **سبتيموس سواريوس:** له باع طويلة في ميدان الثقافة، وكان أيضاً خطيباً فصيحاً، قوي الحجة؛ وهو جد الأمبراطور **سبتيموس سافاروس** (193ـ211 م) المولود في مدينة **لبدة** الليبية.

ـ **فلوروس:** وهو من كبار الشعراء؛ ويعتبر أيضاً من أشهر الخطباء في عهد الإمبراطور **هارديانوس** (117 ـ138 م). وله كذلك اهتمام بكتابة التاريخ؛ إذ ألف تاريخاً في حروب **روما**؛ منذ عهد الملوك.

ـ **فرونتيوس:** وهو من مدينة **سيرتة**؛ تولى وظيفة قنصل، وكان خطيباً بارعاً؛ كلفه الإمبراطور **أنطونين** (138ـ161 م) بتدريس البلاغة اللاتينية للأميرين: مركوس أورليوس، ول فاروس.

ـ **ترتوليانوس**: ولد في مدينة **قرطاج** في سنة 155 أو 160 م. وتلقى فيها دروسه؛ فأتقن اللغتين: اللاتينية واليونانية؛ كما أحاط بمبادئ الطب، واتسعت معارفه القانونية، وتحكم في الأساليب الخطابية. وهو من أصل مغربي.[1] وكان والده قائد سرية رومانية؛ وقد تحول ترتوليانوس فجأة نحو التنصر؛ منجراً في ذلك مع موجة التنصر التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية آنئذ. وأهم مؤلفاته هو كتابه **الدفاع عن المسيحية** *Apologitique*.

ـ **القديس قبريانوس** *Saint Cyprien*: ولد **بقرطاج** في أوائل القرن الثالث الميلادي. وتقلد مهام الكنيسة فيها سنة 249 م. وتعرض المسيحيون في عهده للاضطهاد والقمع من قبل الإمبراطورية الرومانية؛ التي كانت تدين بالوثنية. وفي سنة 258 م تم إعدامه بأمر أمبراطوري. وله مؤلفات دينية وأخلاقية عديدة.

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 258.

ـ **دوناتــوس**: *Donatus*؛ ولـد في مدينـة **ميلـة** *Milev*، وتـوفي في سنـة 355م؛ ثار على خنوع رجال الكنيسة الكاثوليكية التابعة للدولة، وسـن مذهباً جديداً عـرف **بالدوناتوسيـة**. وقـد اعتبـر أتباعـه خـوارج، ومخالفيـن للمذهب الكاثوليكي. وقد تميز المذهب الدوناتوسي بسعة الانتشار في بـلاد المغرب؛ خاصة بين الطبقة الكادحة. ومن مؤلفات **دوناتـوس** كتـاب عـن الروح القدس.

ـ **القديــس أوريليــوس أغسطينــوس** *Saint Augustin*: ولــد في *Thagaste* **سـوق أهـراس** سنـة 364 م مـن أب وثـني يسـمى **بطريقيـوس** *Patricius*، وأم مسيحية ارتقت إلى منزلة قديسـة؛ وهـي القديسـة **مونيـك** *Sainte Monique*. وزاول تعليمـه في المدينــة الــتي ولــد بهــا، وفي *Tubursicu* **مداروش**، ثـم أكمل تعليمه العالي في **قرطاج وميلانو** بإطاليا سنة 384 م. وكان في شبابه يدين بالوثنية على نهج أبيه؛ إلى أن حل عـام 387 م؛ حيـن أضـحى عمـره 33 سنـة؛ عندهـا اعتنـق المسيحيـة. وفي سنـة 395 أصبح أسقفـاً لمدينـة **عنابـة** *Hippone*. وغـدا بعدهـا مـن أبـرز علمـاء اللاهــوت الكاثوليــك؛ إذ تصــدى للمخالفيــن، والمذاهــب المناوئــة للكاثوليكيـة؛ ومنهـا الدوناتوسيـة. ومــن أشهـر مؤلفاتــه: مدينـة اللــه، والاعترافات. وتوفي أغسطينوس في سنة 430 م؛ أثناء الحصار الوندالي لعنابة.

ولنتساءل الآن؛ هل هـؤلاء العلمـاء **مغاربـة** في أصولهـم الأولى..؟ أم هـم **رومـان ولاتيـن**؛ اكتسبوا الصفة المغربية بحكم أقدمية الاستيطـان..؟ في الحقيقة لا يوجد مـا يؤكـد هـذا أو ذاك؛ لأن النصـوص المتوفـرة حـتى الآن تجاهلت تأكيد أي انتماء لهم؛ سوى أنهم من مواليد المـدن المغربيـة. ومـع هـذا لا يستبعد أن يكون معظمهم مغاربـة في أصولهـم؛ ولكنهـم ترومنـوا، واندمجـوا في الحضـارة الرومانيـة. ويؤيـد ش. أ. جوليـان هـذا الـرأي؛ حيـن

قال: ((**وإنه يتعذر أن نعرف بالضبط هل كتاب إفريقية ينحدرون من معمرين رومان. وأغلب الظن أن أكثرهم كانوا من البربر المتأثرين بالحضارة الرومانية؛ الذين عبروا في لغة الفاتحين عما كانت اللغة الليبية ـ وحتى البونيقية ـ قاصرة دونه**)). [1]

هكذا كان حال المدن الرومانية في أوقات ازدهارها؛ تبعاً لما كانت عليه الدولة الرومانية من قوة وعنفوان. ولكن ذلك لم يدم إلى ما لا نهاية؛ إذ دب التآكل والتدهور في المدن المغربية أيام الوندال والبيزنطيين؛ فأخذت تتراجع وظائفها وحيويتها بالتدريج؛ بل خرجت مدن كثيرة عن المراقبة الوندالية والبيزنطية؛ حيث تحول معظمها إلى مراكز لإمارات مغربية محلية مستقلة. وبالمقابل جمدت حركة البناء تماماً؛ ولم تنشأ أي مدينة في ذلك الوقت. وقد أشار إلى ذلك ش. أ. جوليان: ((**ولم يشعر الوندال ولا البيزنطيون بضرورة تأسيس مدن أخرى**)). [2]

ولا بد من الإشارة ـ هنا ـ إلى أن الفوائد التي جناها السواد الأعظم من السكان الأصليين من تلك المدن ـ بعد زوال الحكم الروماني ـ لم تلب حاجاتهم، ولم تحقق لهم أي تقدم حضاري مقبول. وكل ما في الأمر أنهم ورثوا عن أولئك الأجانب ـ بعد رحيلهم ـ بعض المعسكرات الأزلية المدمرة؛ والمدن الفلاحية المنهكة؛ نتيجة للغزو الوندالي، والاضطرابات الداخلية. وهذا الأمر استدعى بذل مجهود كبير لإعادة ترميم بعضها، وبناء بعضها الآخر؛ بغرض الاستقرار فيها، وتحويلها إلى مدن مغربية؛ ذات طابع محلي.

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 252.
[2] نفسه، ص: 33.

وحتى بعد استقرار أهل البلاد في تلك المدن ؛ فإنهم لم يضيفوا إليها معالم جديدة ؛ ذات أهمية خاصة تميزها بميزات حضارية معتبرة. وهذا ـ طبعاً ـ يعود إلى الذهنية التي فرضتها عليهم الروح القبلية المتشبعة بالبداوة ؛ التي كانت تتواجد حتى داخل المدن. ومن الشواهد على ذلك ؛ أن معظم مدن المغرب كانت تنقسم إلى أحياء عديدة، وكل حي يخصص لشكل من أشكال القبيلة ؛ التي تلتزم بطاعة شيخ يرأسها، وتتمسك بنظم قبلية ؛ تستند إلى القرابة بالانتماء والصِّهْر.

ويبدو أن هذا الأمر لاحظه ابن خلدون ؛ [1] بل لاحظ أيضاً ندرة الأمصار، وقلة المدن ببلاد المغرب ؛ وأشار إلى ذلك ضمن "**فصل في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة**" حيث قال: ((**والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام ؛ وكان عمرانها كله بدوياً، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها. والدول التي ملكتهم ـ من الإفرنجة والعرب ـ لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها. فلم تزل عوائد البداوة وشئونها، فكانوا إليها أقرب ؛ لم تكثر مبانيهم. وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر ؛ لأنهم أعرق في البدو ؛ والصنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المباني بها ؛ فلا بد من الحذق في تعلمها ؛ فلما لم يكن للبربر انتحال لها ؛ لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن... لذلك كان عمران إفريقية والمغرب كله، أو أكثره بدوياً ؛ أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال**)). [2]

[1] إذ يقول : ((أهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصِّهْر؛ يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لُحَماً لُحَماً، وقرابة قرابة؛ وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله؛ فيفترقون شيعاً وعصائب)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 1019 ـ 1020.

[2] المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ـ 990.

ومع هذا فالقبيلة كظاهرة اجتماعية وتاريخية تنجلي وتبرز في أوضح صورها عبر البوادي: بالأرياف المغربية وسهوبها وصحاريها؛ حيث تكاد التركيبة الاجتماعية فيها تقتصر على النموذج القبلي.



مجتمع قبلي بدوي

ولما كانت القبلية هي إحدى الخواص الأساسية للبداوة، [1] ـ نظراً لاشتداد ظاهرة العصبية فيها ـ بحكم أن ((**البداوة هي شعار العصبية**)) كما يقول ابن خلدون. والعصبية ـ طبعاً ـ تظهر بعنفوانها في البيئة البدوية ـ فلا بد في هذه الحال ـ من الإشارة بإيجاز لظاهرة البداوة، التي تعتبر من أبرز الملامح المميزة للمجتمعات المغربية عامة. وعليه يمكن القول أن البداوة [2] بالمغرب لم تكن تنحصر في الصحراء والقفار فحسب، بل كانت تتواجد ـ أيضاً ـ في الأرياف [3] بسهولها وجبالها. والبداوة كظاهرة اجتماعية هي مرحلة بدائية في مسيرة الإنسان الحياتية؛ [4] إذ تحتل مكانة أسبق في مرحلة التحضر؛ التي انبثقت عن البداوة بمرور الوقت.

---

[1] العلامة ابن خلدون، ص : 134.

[2] تفسر البداوة لغة على أن: ((البَدْوُ، والبادية، والبَداةُ والبَداوَة: خلاف الحضر. والنسب إليه بدوي...وبدا القوم بدواً: أي خرجوا إلى باديتهم.. وقيل للبادية بادية: لبروزها وظهورها. وقيل للبرية بادية: لأنها ظاهرة بارزة... وقال الليث:البادية اسم للأرض التي لا حَضَر فيها، وإذا خرج الناس من الحَضَر إلى المراعي في الصَّحارِي قيل: قد بَدَوْا)). لسان العرب، ج: 1، ص: 178. أما معنى البداوة من حيث الاصطلاح فهو كما أورده صلاح مصطفى الفوال: ((البداوة هي نمط من أنماط الحياة المجتمعية؛ تسود بوجه خاص في المجتمعات البدوية ـ محلية كانت أو قومية ـ وتعتبر بداية التكيف الاجتماعي لكل من الفرد، والجماعة، والمجتمع مع الظروف البيئية الصعبة والقاهرة التي أحاطت به؛ وارتكز هذا التكيف سواء بالنسبة للإنسان أو الجماعة أو المجتمع البدوي على مجموعة من القيم والعادات والتقاليد والأعراف والنظم التي مكنته في النهاية من أن يحيا ويستمر؛ على الرغم من العزلة شبه التامة المفروضة عليه)). علم الاجتماع البدوي، ص: 73.

[3] ((الرِّيفُ: الخِصْبُ والسِّعَة في المَآكِل، والجمع أرْياف.. والرِّيفُ: ما قَارَبَ الماء من أرض العرب وغيرها، والجمع أرياف ورُيُوفٌ... والريف: أرض فيها زَرْعٌ وخِصْب ورافَتِ الماشية: رَعَتِ الرِّيفَ)). لسان العرب، ج: 1، ص: 1268. والريف كمصطلح اجتماعي لم يكن واضحاً في العصور الأولى؛ ومع ذلك يمكن اعتبار ابن خلدون أول عالم ميز بين سكان الريف وسكان المدن والصحراء على السواء.

[4] ويفسر ابن خلدون ذلك بقوله: ((ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي، وسابق عليه؛ لأن الضروري أصل، والكمالي فرع ناشئ عنه... لأن أول مطلب الإنسان الضروري؛ ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة)). المقدمة، ج: 2، ص: 583.

وهذا الرأي سبق لابن خلدون أن شرحه ضمن "**فصل في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مددٌ لها**" ثم يشرح فكرته بقوله: ((**ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر، ومتقدم عليه؛ أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار؛ وجدنا أوَّلِيَّةَ أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه؛ وأنهم أيسروا؛ فسكنوا المصر، وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة، وأنها أصل لها**)). [1] إذن فالبداوة يمكن اعتبارها مرحلة متخلفة في سلم التقدم الإنساني؛ حتى وإن تميزت ببعض المزايا الخلقية الخيرة من: **فطرة، وشجاعة، ونخوة، وعفة، وكرم**...إلخ [2] والبداوة في بلاد المغرب لم تكن سوى مظهر من مظاهر ما قبل التاريخ؛ [3] توقف أصحابها عند تلك الحدود؛ رافضين التقدم نحو الأمام..

ومن هذا المنطلق تبرز ضرورة البحث في القبلية؛ ذات الطابع البدوي، (أي الصحراوي والريفي معاً). لأن القبلية ـ بمظهرها العام ـ تنتشر في بلاد المغرب كلها عبر الصحاري والأرياف. وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن المواطن الحقيقية (للقبلية) في ديار المغرب هي: **الصحراء بمفاوزها وأطرافها السهبية، ثم الأرياف بسهولها وجبالها وهضابها التلية.** على أن هذا التصنيف لا يمنع ـ أحياناً ـ ظهور القبلية ـ أيضاً ـ ضمن مدن

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 583.

[2] أنظر مقدمة ابن خلدون، ج: 2، ص ص: 583 ـ 591.

[3] وهذا يتفق مع ما قيل بخصوص البداوة عموماً مثل: ((البداوة كانت تمثل ـ منذ القدم ـ حضارة ما قبل التاريخ؛ وهي وإن كانت تختلف ـ في معظم صورها ـ عما هي عليه اليوم؛ إلا أن جمهرة المؤرخين قد أجمعت على أن الإنسانية قد نشأت بين أحضان البداوة؛ حيث كانت بداوة إنسان ما قبل التاريخ ترتكز على عدم الاستقرار، والتنقل سعياً وراء الماء والعشب...كان شبه الإجماع على أن الإنسان بدأ حياته بدوياً، وظل على بداوته وتجواله حتى استقر على شواطئ الأنهار؛ بعد اكتشافه للزراعة؛ وكان ذلك قبل آلاف السنين)). علم الاجتماع البدوي، ص: 73.

صغيرة ؛ يعتمد سكانها ـ أساساً في عيشهم ـ على الفلاحة والتجارة البسيطة وبعض الصناعات التقليدية.

ويمكن ـ في هذا المجال ـ الإشارة إلى تصنيف اجتماعي يستند إلى شكل المعاش، ونوعية الأعمال المعتمدة من طرف السكان في منطقة معينة، وأوضاعهم الاقتصادية والخلقية. وقد اشتمل هذا الموضوع المجتمعات الإنسانية بصفة عامة ؛ إلى جانب المجتمعات المغربية خصوصاً. وهذا التصنيف الاجتماعي وضعه ابن خلدون ؛ حيث قسم المجتمعات الإنسانية ـ ومن بينهم المجتمعات المغربية آنذاك ـ إلى فئتين متباينتين : **فئة الحضر، وفئة البدو**.[1] كما أنه لم يقتصر على التمييز بين الحضر والبدو فحسب ؛ بل ميز كذلك بين فئات البدو أنفسهم ؛[2] إذ اعتبر أن كلمة

---

[1] وفي هذا يقول: ((اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نِحْلتِهم من المعاش... فمنهم من يستعمل الفلح من: الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من:الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لِنَتاجِها واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ـ ولا بد ـ إلى البدو؛ لأنه متَسِعٌ لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن، والمسارح للحيوان وغير ذلك. فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 577 ـ 578.ويقول أيضاً : ((ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرَّفْه؛ دعاهم ذلك إلى السكون والدَّعَة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا الأقوات والملابس، التأنق فيها، وتوسعة البيوت، واختطاط المدن والأمصار للتحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 577 ـ 578.

[2] ((إن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من: الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجِيّ أو كمالي... فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح؛ كان المقام به أولى من الظعن؛ وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال؛ وهم عامة البربر والأعاجم.ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعَّن ـ في الغالب ـ لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم..ويسمون شاوِيَّة؛ ومعناه القائمون على الشاء والبقر؛ ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة؛ وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر، وورود مياهه المِلْحَة، والتقلب فصلَ الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دَفاءَة هوائه، وطلباً لماخض النِّتاج في رماله؛ إذ الإبل أصعب الحيوان فصالاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدَّفاءَة؛ فاضطروا إلى إبعاد النُّجْعة..فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً. وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العُجْم. وهؤلاء هم العرب؛ وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق؛ إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة؛ لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط؛ وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 579 ـ 583.

بدو تشمل أهل الصحراء والقفار، وأهل الريف والجبال.[1] وفي سياق حديثه أشار إلى بعض الفروق التي تجعل مفهوم البدو يعني فئات عديدة؛ تختلف عن بعضها حسب اختلاف حرفتها، ومدى حركتها وتنقلها، وطبيعة عيشها[2]. وعلى هذا فهو يصنف المجتمعات المغربيية ـ في وقته ـ إلى: **حضر**؛ يسكنون الأمصار والمدن. **وبدو**؛ يعيشون في البادية بقفارها وأريافها.[3]

1ـ الحضر:

فالحضر هم السكان المستقرون في الحواضر والعاملون في التجارة والصناعة؛ وهم الذين لا يكتفون في حياتهم بالضروري من المتطلبات؛ بل يتعدونه إلى ما هو حاجي وكمالي. ساعين إلى الانغماس ـ أكثر فأكثر ـ في أحوال الرفه، وأصناف الترف والنعيم؛ وذلك عندما: ((**تزيد أحوال الرَّفْه والدعة؛ فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق؛ في علاج القوت، واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها؛ من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح** [أي الارتفاع بطبقاتها]، **وإحكام وضعها في تنجيدها** [أي تزيينها]، **والانتهاء في الصنائع؛ في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها؛ فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صَرْحِها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلقون** [يبتدعون ويبتكرون] **في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من: ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر؛ ومعناه الحاضرون؛ أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه**

---

[1] ((كان ابن خلدون سباقاً عندما وضع البدو في مستويات ثلاثة؛ تبعاً لدرجة ظعنهم في الصحراء وبعدهم عن مظاهر الحضارة)). تنمية المجتمعات الصحراوية (أسس نظرية)، ص: 110.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 579 ـ 583.

[3] اقترب حمدان بن عثمان خوجة من تقسيم ابن خلدون للمجتمعات المغربية؛ حين صنف سكان القطر الجزائري إلى بدو وحضر؛ ثم اعتبر أهل الريف وأهل السهول والصحراء في عداد البدو. أنظر المرآة، ص ص: 27 ـ 28.

الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضروري، ومعاشهم على نسبة وُجْدِهم [أي ما يجدونه])).[1]

وانتماء الحضر لا يكون لقبيلة معينة؛ بل هم مرتبطون برباط مصلحي مكاني؛ فهم أبناء الحاضرة التي تظلهم، ويتوفر فيها عيشهم.

2ـ البـدو:

أما البدو فهم جماعات رعوية وزراعية؛ منهم: المستقرون في بيئة زراعية خصبة؛ مستوفية الشروط للقيام بأعمال الزراعة، والعناية بالحيوانات كـ: **البقر والشياه والمعز والخيول**. وهؤلاء هم الذين يعرفون الآن بأهل الريف. وهم الذين يسكنون في بيوت بسيطة بنيت ـ بدون عناية كبيرة ـ من الطين والحجارة أو بالخوص وأغصان الأشجار؛ وقد يكتفي آخرون بسكنى الكهوف.

وإذا كان حال أهل الريف هؤلاء لا يصل إلى حال المتحضرين؛ في المعاش والملبس والمسكن؛ فهم ـ من جهة أخرى ـ يتجاوزون حدود الضروري إلى مستوى الحاجي؛ بسبب ما قد توفره لهم أعمالهم الفلاحية من خيرات. ويدخل في هذا الاعتبار جملة من القبائل المغربية هي: **نفزاوة، ومطغرة، ولماية، ومطماطة، ومغيلة، وأحياء من مديونة، وكومية، وزواوة، وجَمْع من مكناسة، وأحياء من هوارة، وازداجة، وعجيسة، وأوربة، وكتامة، وتلكاتة وصنهاجة الشمال، ومصمودة، وبعض الأحياء من زناتة، وأحياء أخرى من بني هلال وأحلافهم**؛ الذين اختارو الاستقرار والزراعة.

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 578 ـ 579.

وإلى جانب أهل الريف هؤلاء؛ يتواجد - أيضاً - أهل الظعن والنجعة؛ سكان الخيام المنسوجة من الشعر والوبر والجلود. وربما لجأ بعضهم إلى سكنى ما تجود به الطبيعة من غيران وكهوف؛ قصد الاستظلال والكِنِّ لا غير. ويقضي أعضاء هذا الصنف من البدو حياتهم في التنقل خلف حيواناتهم؛ طالبين مسارح العشب ومنابع المياه. ويقسم ابن خلدون هؤلاء البدو الرحل - حسب ما لاحظه في زمانه - إلى صنفين رئيسين:

أ - الصنف الأول: يتميز أصحابه بالنجعة القريبة المحدودة؛ ولا يتوغل أصحابه في عمق الصحراء؛ مكتفين برحلاتهم المحدودة؛ التي لا تتجاوز أطراف الصحراء والسباسب القريبة؛ وهو ما يلبي حاجتهم، وحاجة حيواناتهم. ويطلق على هؤلاء القوم اسم **الشاوية**؛ نظراً لاهتمامهم - في الأغلب - بتربية الشياه ورعيها؛ مع أنهم - أيضاً - يملكون قطعاناً من المعز والخيول، وبعض الإبل التي يتخذونها - بالأساس - كوسيلة نقل وحمولة؛ أكثر منها وسيلة للغذاء.

والشاوية في اصطلاح ابن خلدون يخالف ما هو شائع الآن؛ بل يعني لديه كل القبائل والأفراد الذين يمتلكون الشياه ويرعونها، وينتجعون بها في حدود الرحلة القريبة. ومساكن الشاوية هؤلاء قد تكون بيوتاً من الشعر والوبرً والخوص، أو تكون عبارة عن كهوف ومغارات. كما أنهم قد يقومون بنشاط زراعي فصلي بسيط متنقل غير دائم. إلى جانب حرفتهم الأساسية المتمثلة في رعي الحيوانات؛ ومن هؤلاء: ((**البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة**)).[1] ويدخل في هذا الاعتبار - طبعاً - سكان الجزء الشمالي من بلاد المغرب - بريفها وسهوبها -

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 582.

عبر الأطراف الصحراوية. مثل: **لواتة، ولماية، وأحياء من مطغرة، ومعظم مديونة، وأحياء من مكناسة، وسدويكش من كتامة، وأحياء من هوارة، وكزولة. ومعظم زناتة. وبعض بطون بني هلال وسليم.**

ب - الصنف الثاني: وهذا الصنف من البدو هم أهل الصحراء الضاربين في المفازات النائية؛ إذ أنهم رحالة باستمرار؛ لا يعرفون للاستقرار معنى، ولا يقنعون سوى بالظعن، والنجعة البعيدة في البراري والقفار. وهؤلاء هم البدو الذين يصفهم ابن خلدون **بالوحشية**؛ بسبب حياتهم الموحشة؛ التي لا أنيس لهم فيها، ورحلتهم الموغلة في أعماق الصحراء الشحيحة؛ ذات الطبيعة القاسية. وتسمى هذه الفئة من البدو بـ**(الجمّالة أو الإبالة)**؛ الذين يعتمدون في حياتهم على رعي **الإبل**؛ ويتميزون بحب الرحلة البعيدة؛ في أعماق الصحراء والمفازات الخطيرة؛ معتمدين في تنقلهم على إبلهم القوية والصبورة؛ تلك الإبل التي لا تناسبها إلا الحياة في القفار ذات الطقس الحار، والمياه المالحة، والنباتات الشوكية الغليظة.

وهؤلاء القوم لا يعرفون الفلاحة، ويعتمدون في معاشهم على الجمع والالتقاط والقنص، وما تمدهم به الإبل من ألبان ولحوم. ومساكنهم تلبي مقتضى حالهم؛ حيث يسهل بناؤها بدون عناء، ثم تفكيكها ونقلها أينما ذهبوا. وعليه؛ فهي عبارة عن خيام مصنوعة في الغالب من شعر ووبر أو جلود. ويعتبر هؤلاء القوم من أبعد الخلق عن الحرف والصناعات، أو الزراعة: فصلية كانت أم مستقرة دائمة. وقد ذكرهم الحسن الوزان بقوله: **((يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى**

الموت في الصيد واختطاف جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام او أربعة؛ ريثما ترعى إبلهم كلأه)). [1]

وقد أسهب ابن خلدون في الحديث عن هذا الصنف من البدو ضمن بعض الفصول من مقدمته؛ إذ أضفى عليهم أوصافاً عديدة كـ: التوحش، والشجاعة المتناهية، وشدة البأس، والصبر على الشدائد. حيث يقول فيهم: ((**كان هذا الجيل الوحشي** [2] **أشد شجاعة من الجيل الآخر؛ فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم. بل الجيل الواحد تختلف أحواله ـ في ذلك ـ باختلاف الأعصار. فكلما نزلوا الأرياف،** [3] **وتفنقوا** [أي تنعموا] **النعيم، وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم؛ نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم. واعتبر ذلك في الحيوانات العجم؛ بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحُمُرِ؛ إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها؛ كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة؛ حتى مشيتها وحسن أديمها** [أي جلودها]**. وكذلك الآدمي المتوحش؛ إذا أنس وألف)).** [4] ويدخل في هذا الاعتبار: ((**العرب؛** [5] **وفي معناهم البربر** [6] **وزناتة بالمغرب، والأكراد**

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 58 ـ 59.

[2] لا يقصد ابن خلدون بكلمة وحشي النبز أو الشتم؛ بل كل ما يقصده هو التفرد وعدم الاستئناس.

[3] بهذا يفرق ابن خلدون بين أهل الريف والبدو من أصحاب الرحلة البعيدة.

[4] المقدمة،ج : 2، ص: 608.

[5] المقصود بكلمة عرب هم الأعراب من البدو.فهذا التعبير مازال شائعاً إلى يومنا هذا. كما أن تصنيف العرب والبربر وزناتة ضمن البدو المتوحشين لا يرمي إلى الشتم أو النبز؛ بل ثمة من يصف بها نفسه دون حرج؛ إذكانت مصدر فخر عندهم أحياناً. فها هو الأمير اليفرني يدوي بن يعلى يجيب رسول المنصور بن أبي عامر؛ حين جاءه يعرض عليه الصلح، ويغريه بالوفادة إلى الأندلس؛ فقال له: ((متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد إلى البياطرة)). العبر، مج: 7، ص: 62. وقد سبق أن استعمل هذا التعبير الإمام أبو حامد الغزالي حين قال: ((وأقرب الناس إلى البهائم أجلاف العرب والترك، ورعاة البهائم منهم. ولو وقع بينهم راع أوفر منهم عقلاً، وأكثر منهم دراية بصناعتهم؛ لوقروه طبعاً. ولذلك ترى الأتراك بالطبع يبالغون في توقير شيوخهم)). ميزان العمل، ص ص: 332 ـ 333.

[6] لا يقصد ـ هنا ـ كل البربر؛ بل المقصود هي فئة منهم اختارت الحياة البداوية المتطرفة؛ مثل قبائل الملثمين.

والتركمان والترك بالمشرق)).[1] ويدخل ضمنهم ـ في بلاد المغرب ـ على الخصوص: معظم قبائل **بني هلال وسليم، والمعقل وأحياء من هوارة، وصنهاجة الجنوب أهل اللثام منهم: لمتونة وكدالة ومسوفة، ولمطة.**

وجملة القول؛ هي أن المجتمعات المغربية يغلب عليها طابع البداوة بشكليها: الصحراوي، والريفي. وحتى مدن هذه الديار فهي لا تخلو من النزعة القبلية. ومن هنا يتطلب الحال معرفة معنى القبلية، ومفهوم النظام القبلي كمظهر اجتماعي عام؛ مع التركيز على النموذجين: المغربي والعربي في المشرق.



[1] المقدمة، ج: 2، ص: 583.

القبليـة والقبيلـة

القبيلِيَّــة أو القبَلِيَّــة هـي المظهـر العـام للوحـدة الاجتماعيـة المسمـاة **بالقَبِيلَـة**. وهي بمثابـة الصـورة المعبـرة عـن **روح القبيلـة**: بنظامهـا، وكيانهـا المادي، وقيمهـا المعنوية. وهي مثـل عبـارة **المَدَنِيَّة** أمـام عبـارة **المَدِينَـة**. **فالقَبَلِيَّـة أو القبيلِيَّــة** بهــذا الاعتبـار ليســت **القَبِيلَــة** فحســب؛ بــل هــي **الظاهــرة الاجتماعية** المنبثقة عن مفهوم القبيلة كوحدة اجتماعية، اقتضتها ظروف معينة.

أمـا **القبيلـة** فـهي تركيبـة بشريـة اجتماعيـة، مكونـة مـن عـدة وحـدات صغـرى؛ قـد تكـون **أسـراً، أو عشائـر، أو أفخـاذاً**...الـخ. عـلى أن تتلاحـم تلـك الوحـدات؛ بفضـل الاعتقـاد في الانتمـاء الدمـوي **(النسـب)**، وتبعـاً لمقتضى المصلحة المشتركة. كما يشترط في القبيلة أن يعيش أفرادها معـاً، في حلهـم وترحالهـم، ضمـن منطقـة محـددة. ويخضـع أفـراد القبيلـة إلى عـرف وعـادات متفـق عليهـا، ويدينـون بديانـة واحـدة. ويسهـر عـلى تطبيـق العـرف واحترام العـادات فيهـا **رئيـس ينتـمي إلى أقـوى أسـر القبيلـة، وأشرفهـا حسبـاً**. ويعيــش أعضــاء القبيلــة ووحداتهــا الصغــرى في حــدود نظــام اجتمــاعي؛ تتسلســل فيــه الوحــدات في شكــل هــرمي؛ تكــون القبيلــة في القمــة، بينمــا تتشكـل القاعـدة مـن الأسـر المنتمية للقبيلـة.

أولاً ـ النظـام القبـلي:

يتجلى النظام القبلي من خلال تلك السلسلة من الحلقات والزمر؛ المشكلة من فئات اجتماعية؛ ذات قرابة حقيقيـة أو وهميـة. وأطلقـت هـذه التسمية نسبة إلى إحدى الحلقات الهامة في تلك المنظومة؛ ألا وهي **القبيلة**. كمـا يسمى هذا النظام ـ أيضاً ـ **بالنظـام العشائـري**، نسبة إلى حلقة أخرى ـ

أقل حجماً ـ وهي **العشيرة**. فمنذ أن شعر الإنسان بضرورة اجتماعه مع غيره، وسلم بحتمية الحياة مع الآخرين، والتعاون معهم ـ بفضل ما ركب الله فيه من غرائز محفزة على التكافل والترابط ـ فمنذئذ؛ أخذ ذلك المخلوق في وضع نمط اجتماعي ينظم به حياته، ومعاشه مع غيره، من أبناء جنسه.

وهكذا؛ توصل الإنسان ـ بمرور الوقت ـ إلى بلورة نمط اجتماعي منظم سمي ـ فيما بعد ـ **بالنظام القبلي**، أو **النظام العشائري**. وهذا النظام فرضته طبيعة الحياة على الإنسانية؛ حيث انبثق عن غريزة التناسل ـ التي وضعها الله في مخلوقاته ـ نسل عرف بالذرية؛ التي شكلت ما يسمى الآن **بالأسرة**، وهي الخلية الأولى في النظام القبلي. وليست غريزة التناسل وحدها هي الكفيلة بظهور هذا النظام ـ من خلال خليته الأولى **الأسرة** ـ بل ثمة عوامل اجتماعية أخرى تعتبر من خصوصيات الإنسان؛ كونه اجتماعياً بالطبع. وتبعاً للتطور المحتوم ـ نظراً للتناسل الكثيف وتشعب الولادات ـ ظهرت وحدات اجتماعية أخرى ـ بالتتابع ـ أوسع من الأسرة؛ يمكن أن تكون **فصيلة أو فخذاً أو عشيرة**..إلخ.

وهكذا؛ كلما تضاعف عدد أفراد الوحدة، وازداد تفرعها؛ نشأت وحدة اجتماعية أعلى من الأولى وأشمل. وما **القبيلة** إلاّ وحدة اجتماعية وسياسية ارتبطت بتلك المنظومة؛ التي اختلف الناس في تحديد حلقاتها، وفي تسلسلها. كما تباينت الأسماء التي أطلقت على وحداتها؛ بتباين المجتمعات البشرية واختلافها. إلى جانب هذا **فالنظام القبلي** يتميز ببعض السمات التنظيمية: شكلاً ومحتوى وسلوكاً. ويمكن حصر تلك **السمات** في:

1 ـ النسب : إذ يعتبر النسب أو **ثمرات النسب** ـ كما يسميها **ابن خلدون** [1] ـ بمثابة الركيزة الأساسية في **النظام القبلي ببلاد المغرب**. وثمرات النسب جاءت تعبيراً، ونتيجة لاستحالة التحقق ـ بيقين ـ من صحة النسب ؛ ضمن سلسلة طويلة ومتشعبة من الآباء والأجداد. **فمجرد الاعتقاد في النسب الواحد، وفي القرابة يكفي لتعزيز وتقوية الأواصر، وتمتين اللحمة**. وبما أن الثمرات تتحقق بذلك الاعتقاد في الانتماء ؛ فلا يهم البحث في الحقيقة ذاتها. ولولا الاعتقاد التام في النسب ـ حتى وإن كان وهما ـ لتفككت عرى القبائل، بإنحلال الأواصر الداعية للقرابة والالتحام. وهذا ما حدث في المجتمعات الإنسانية التي ذابت فيها القبلية، وأنحلت نظمها ؛ تاركة المجال فسيحاً أمام نظم الدولة، وروح المواطنة. [2] حيث تبنت تلك المجتمعات أسلوباً معيناً ؛ ساعد على فصم الوصلة، وكسر الالتحام بين فئات القبائل وأعضائها، وبذلك انتهت القبلية، والعشائرية في تلك الأوساط، بانتهاء العصبية فيها.

أما المجتمعات **العربية والأمازيغية** فقد حافظت على النظم القبلية تبعاً لمحافظتها على **الأنساب**، والاستناد إليها ـ سواء كانت وهماً أم حقيقة ـ عندما يستدعي الأمر سلوكاً معيناً. بل تطور الأمر ؛ إذ أدخل **العرب والأمازيغ** اشكالاً أخرى في نسبهم ؛ أضفت عليه مرونة ملحوظة ؛ ساعدت على نمو القبلية وازدهارها. وتلك الأشكال لا يشترط فيها النسب الصريح، أو النسب العرقي الدموي ؛ الذي يقتضي نسباً حقيقياً، معلوماً أباً عن جد، وعليه فقد أقروا ما يعرف بالانتساب بوسطة طرق مختلفة منها :

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 427.

[2] كالمجتمعين: الإغريقي والروماني. أنظر نظام الآثينيين لآرسطو، وكتاب أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص: 154 وما بعدها. وقصة الحضارة، ج: 1، ص ص: 39 ـ 47. وج: 6، من الباب: 4 إلى الباب السادس. الباب الأول والثاني.

أ ـ الحلف والجوار: ويعرف هذا الشكل **بنسب الإستلحاق** ؛ سواء إلحاق شخص أو جماعة أو قبيلة بكاملها بنسب معين ؛ فتذوب فيه مع مرور الزمن.[1]

ب ـ العتاقة: ويتم ذلك بعتق عبد، أو أسير، أو أكثر ؛ ثم إلحاقه بنسب سيده الأول أو آسره.[2]

وهكذا ؛ صارت **القبائل العربية والأمازيغية** ـ بمرور الوقت ـ تمتص عناصر جديدة، وتلحقها بها شيئاً فشيئاً ؛ فيضاعف ذلك في مجهودها البشري، ويساعدها على البقاء والحياة طويلاً. وقد افتقرت إلى هذا العامل الهام نظم قبلية أخرى ـ في مجتمعات غير عربية، أو أمازيغية ـ فذابت القبلية في مؤسسات احتماعية أخرى ؛ كما حدث في **بلاد الإغريق** على الأغلب ؛ إذ اعتمدت عشائرها التبني في نطاق ضيق، وفي أوضاع استثنائية.[3] وهذ الأمر ساعد على تآكل النظام القبلي في تلك الديار، وتسبب في تصدع المؤسسات القبلية التي كانت سائدة في العصر البطولي، وما قبله. حيث عجزت القبائل في تلك البلاد عن مواصلة مسيرتها ضمن النظم القبلية ؛ وذلك راجع إلى عجزها عن امتصاص فئات أخرى ضمنها وتبنيها ؛ بواسطة الإستلحاق وغيره. إذ أنه حدث ـ بعد اتساع الحركة التجارية وتنوع المبادلات ـ أن اختلط الناس من أعضاء العشائر في

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 4، ص ص: 356 ـ 365. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص: 16. وعادة الإستلحاق بالتبني عرفت في حالات استثنائية عند اليونان، والرومان. وهو معمول به عند الهنود الحمر. أنظر أصل الأسرة، ص ص: 136 . 157. 190 ـ191.

[2] يقول ابن خلدون في موضوع العتاقة: ((فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي، والتحموا بهم ـ كما قلناه ـ ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعين بنسبهم في تلك العصبية، ولبسوا جلدتهم كأنها عُصْبَتهُم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها؛ كما قال رسول الله e : "مولى القوم منهم"؛ وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف)). المقدمة، ج:2، ص ص: 603 ت 604. أنظر أيضاً المفصل، ج: 4، ص: 366. وأدب العرب، ص: 31. كانت عادة استلحاق العبيد المحررين والغرباء بالقبيلة متبعة في حدود معينة عند الرومان أيضاً، أصل الأسرة، ص: 190 ـ 191.

[3] أصل الأسرة، ص: 157.

أماكــن معينــة ؛ دون أن يستلحقــوا وينضمــوا للعشائــر ؛ ولكنهــم بالمقابــل امتزجوا ـ دون رابط عشائري ـ فيما بينهم ؛ عند انتقالهم من منطقة إلى أخرى.

ونتـج عـن ذلـك الانتقـال والاختـلاط ؛ ازدحـام كـل منطقـة بعناصـر لا تنتـمي إلى القبائـل المتواجـدة بهـا. وبمـا أنهـم ـ في نظـر **المجمــع الشعــبي** *Agora* **والملـك** ـ مواطنـون يتمتعـون بحقـوق متساويـة وكاملـة ؛ فقـد ظهـرت بعـض المشاكـل ؛ نظـراً لوجـود أولئـك الغربـاء في منطقـة لا تتبـع قبائلهـم ؛ الأمـر الـذي يستـدعي ـ بالتـالي ـ حرمانهـم مـن المشاركـة في الحيـاة السياسيـة ؛ ضمـن المناطـق العائـدة إلى قبائـل لاينتمـون اليهـا. وعليـه فقـد انجـر عـن هـذا تعـارض واضطـراب في تطبيـق قـرارات المؤسسـات القبليـة المستقبلـة لأولئـك النازحيـن الغربـاء. وهكـذا استدعـت تلـك العراقيـل ، والتناقضـات إدخـال تعديـلات عـلى **الدستــور القبــلي** المعمـول بـه. وكانـت التعديـلات في صـالح **السلطـة المركزيـة** عـلى حسـاب القبائـل. وبذلـك انتقـل **المجتمـع الأثيـني** خطـوة هامـة ؛ نحـو **إنشـاء الدولـة** وتعزيـز دستورهـا. [1]

وهـذا بالطبـع لـم يحـدث في **البـلاد الأمازيغيـة والعربيـة** ؛ بسبـب المرونـة الـتي تميـزت بهـا الأعـراف القبليـة في تلـك الربـوع. لأن الإقـرار باستلحـاق الغربـاء ، وادماجهـم ضمـن **القبيلـة الأمازيغيـة والعربيـة** ـ بشكـل واسـع ـ أدى إلى عـدم ظهـور التناقضـات الـتي عرفهـا المجتمعـان : **الإغريـقي والرومـاني**. بينمـا يظهـر بـأن هـذه العـادة (**عـادة الإستلحـاق**) قـد عرفتهـا ـ بشكـل واسـع أيضـاً ـ **قبائـل الهنـود الحمـر** وعملـت بهـا. [2] وهـذا ـ بالطبـع ـ ساعـد عـلى **بقـاء النظـام القبـلي** وازدهـاره في ذلـك الوسـط.

---

[1] أصـل الأسـرة ، ص ص: 170 ـ 171.

[2] نفسـه ، ص ص: 136 ـ 137.

وعادة الإستلحاق لا تكفي وحدها لضمان بقاء القبلية، بل ثمة عوامل أخرى تجتمع وتتفاعل. وما الإستلحاق إلاّ أحد العوامل الإضافية؛ لأن بعض الشواهد تنص على أن الإستلحاق عُمِلَ به ـ ولو بشكل محدود ـ في القبائل **الإغريقية والرومانية**.[1] ومع هذا لم يمنع من انقراض القبلية في **أثينا وروما**. ويعود ذلك ـ فيما يبدو ـ إلى توافر شروط أخرى؛ ذات قوة وفعالية. وتلك الشروط تم العمل بها في بلاد **الإغريق** قبل **روما**؛ وترتكز ـ أساساً ـ على **تراث فكري، وأعمال فلسفية؛ ذات قيمة علمية كبيرة**؛ فكان لها تأثيرها الكبير في انكماش القبلية وزوال مفعولها.

ومن جهة أخرى فإن بعض **القبائل الأمازيغية والعربية** اختارت **حياة العزلة والانطواء؛ في الصحاري القاحلة، والجبال الشامخة**؛ بعيداً عن الاختلاط بغيرهم من الفئات الأجنبية؛ في التجمعات السكانية المختلطة ـ كما حدث في **بلاد الإغريق** ـ لذا فمن السهل على تلك القبائل الاحتفاظ بالنسب الصريح. ومع هذا؛ فثمة **قبائل عربية وأمازيغية** أخرى اختلطت بغيرها منذ أقدم العصور؛ لهذا لا يمكن اعتبار نسبها صريحاً، خالياً من شوائب الاختلاط.

2 ـ البناء القبلي:

يتجلى النظام القبلي ـ أيضاً ـ من خلال **بنائه الشكلي أو الهيكلي**؛ وذلك **بتركيب وحداته الاجتماعية وتسلسل مراتبه**؛ في شكل هرمي تظهر عليه البساطة وعدم التعقيد. وهذا البناء لا تخلو منه النظم القبلية في المجتمعات البشرية كلها. والاختلاف بينها قد يكون في عدد الوحدات وفي

[1] أصل الأسرة، ص ص: 157. 190 ـ 191.

أسمائها. فلدى **الإغريق** ـ مثلاً ـ تُرَتَّبُ وحدات المنظومة القبلية ، وتسمى كالتالي : [1]

ـ الأسرة. ـ العشيرة. ـ الأخوة. ـ القبيلة. ـ إتحاد القبائل. ـ الشعب.

أما **الرومان** ؛ فلا يختلفون كثيراً عن **الإغريق** ؛ فيما عدا **اتحاد القبائل، والأخوة ؛** التي تسمى عندهم **كورية**. [2] كما وضع **الويس هنري مورغان** *MORGAN L.H.* ـ في كتابه **المجتمع القديم** *ANCIENNE SOCIETE* ـ تسميات للوحدات القبلية في مجتمعات **الهنود الحمر** متبعاً نفس الترتيب المعروف في بلاد **الإغريق**. [3]

أما **المجتمعات الأمازيغية** ؛ فإنها تفتقر للدراسات الاجتماعية المعمقة ؛ التي من الواجب أن تفصل في الاختلاف والتضارب اللذين وقع فيهما **المؤرخون، والنسابة الأمازيغ والعرب** على السواء. وكما هو معلوم ؛ فعلى الرغم من بقاء النظام القبلي في **بلاد المغرب** إلى الآن ؛ فقد ظل موضوع البناء القبلي، والعشائري في هذه الديار يتطلب اتفاقاً في الرأي وتوحيداً للمصطلح. وهذا الاتفاق غير وارد إلاَّ في بعض الحالات. فالتقسيمات المعروفة للبناء القبلي، والتسميات المتداولة لمراتبه **هي تقسيمات ومسميات عربية الأصل** ؛ ومع هذا فهي تبعث على الشك في صدقها ؛ حتى وإن تعلق الأمر **بالقبائل العربية** ذاتها ؛ نظراً للطابع المصطنع الذي يبدو عليها. ولا يخفى على المهتم ـ أيضاً ـ أن السند الكافي لتلك التقسيمات والمسميات غير متوفر حتى الآن. [4]

---

[1] أنظر أصل الأسرة، ص ص: 154 ـ 168.

[2] نفسه، ص ص: 197 ـ 198.

[3] نفسه، ص ص: 137 ـ 145.

[4] تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ص ص: 23 ـ 24. والمفصل، ج: 1، ص ص: 509 ـ 517. وج: 4، ص ص: 314 ـ 330. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 60 ـ 61.

المهم ـ هنا ـ يمكن تلخيصه في أن الاختلاف في صورة **البناء القبلي عند العرب** يتجلى في تباين وجهات النظر ؛ التي سجلت في كتب الأنساب، والموسوعات الأدبية ؛ حيث جعل بعضهم حلقات ذلك النظام **ست حلقات** ؛ [1] بينما أضاف بعضهم الآخر إليها **حلقة سابعة** ؛ [2] وقد توسع آخرون ؛ إلى حد جعل المراتب في **عشر حلقات.** [3] ولم يقتصر الاختلاف على عدد المراتب فحسب ؛ بل تباينت آراؤهم ـ أيضاً ـ في أسمائها. وكل هذا ـ بالطبع ـ يبعث على الاعتقاد بأن تلك المراتب من وضع النسابة العرب في صدر الإسلام ؛ حتى وإن كانوا قد ورثوا شيئاً منها عن العصر الجاهلي. وقد يكون ما ورثوه هي التسميات التي وردت في **القرآن الكريم**. مثل : **الشعب والقبيلة، والعشيرة، والفصيلة، والرهط.** لذا فإن هذه التسميات ظلت في بلاد الجزيرة العربية والمغرب الاسلامي طوال العصر الوسيط ؛ بل مازال بعضها مستعملاً حتى هذا العصر.

وقد كانت كل قبيلة من القبائل المتواجدة في **ربوع المغرب الإسلامي** تشعر بالانتماء إلى الأصول التي تنسب نفسها إليها ـ حتى وإن كان ذلك وهما ـ وتتصرف بوحي من ذلك الشعور الذي لا ريب فيه. **والبناء القبلي في بلاد المغرب** لا يختلف عما هو عليه في **المشرق**. على أنه لا يستبعد حدوث بعض التباين والاختلاف ؛ الذي يعود إلى حقبة تاريخية سبقت الفتح الإسلامي. وربما استدعى هذا الموضوع دراسة شاملة ومعمقة ؛ نظراً لأهميته من جهة، ولتبديد الغموض الذي يكتنف الموضوع من جهة أخرى.

[1] صبح الأعشى، ج: 1، ص ص: 308 ـ 309. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص: 60.
[2] العقد الفريد، ج: 3، ص335.
[3] نهاية الأرب، ج: 2، ص ص: 276 ـ 285.

ومع هذا فإنه يمكن إجمال القول في التأكيد على أن **مراتب البناء القبلي في ربوع المغرب** ليست واضحة كل الوضوح ؛ لأن النسابة هنا ـ على الرغم من قياسهم على ما عرفوه من التقسيمات المعروفة لدى **العرب** ـ فإنهم لم يهتموا كثيراً بالتصنيف الاصطناعي الذي وضعه النسابة في **المشرق** كـ: **التقسيم السداسي أو العشري** مثلاً. وحتى بعض المؤرخين **كابن خلدون** ـ على سبيل المثال ـ فإنه كان يخلط في المراتب المعروفة. فأحياناً يستعمل مرتبة **بطن** في محل **قبيلة**، ومرتبة **قبيلة** في محل **شعب**، **وجذم** في محل **قبيلة**، **وبطن** في محل **فخذ**.[1] وهكذا ؛ لا يلتزم بنهج يحدد فيه المراتب، أو يقابلها بأسماء ثابتة ؛ مع ما عرف عنه من دقة في التعبير، وضبط للمصطلحات. وحسبما يبدو فإنه يعتبر تلك المصطلحات مترادفات ؛ تؤدي إلى معنى واحد وهو القبيلة.

وحتى **ابن حزم** الذي ألف الكتاب القيم **جمهرة أنساب العرب**. فإنه لم يتعرض بدوره لتلك المراتب ؛ وكل ما هناك ؛ أنه شرع في سرد أسماء القبائل ؛ منطلقاً من الجد الأول متدرجاً حتى أصغر الأبناء في سلسلة الذرية ؛ دون أن يقابل ذلك بمراتب معينة. وصاحب **روض القرطاس** ـ أيضاً ـ خلط في هذا الأمر عدة مرات خلال مواضع مختلفة ؛ حيث يعتبر **لمتونة بمثابة فخذ من صنهاجة** ؛ بينما يذكر في السطر نفسه بأن **صنهاجة فخذ من حمير**. ثم يضيف قولاً آخر يجعل **صنهاجة إحدى أفخاذ هوارة** ؛ **وهوارة بدورها عبارة عن فخذ في حمير** ؛ وبعدها يقسم **صنهاجة إلى سبعين قبيلة**، ثم يقول: **((وفي كل فرقة وقبيلة بطون وأفخاذ وقبائل))**.[2] وهكذا يدخل في كل قبيلة قبائل..**!!**

---

[1] إن الأمثلة على ذلك كثيرة؛ ويمكن الرجوع إليها في المجلدين: السادس والسابع من كتاب العبر؛ من ذلك أن ابن خلدون يجعل مرتبة جذم في وضع أصغر من مرتبة شعب، وفي موضع آخر يعكس الأمر.

[2] الأنيس المطرب في روض القرطاس، ص: 75.

وصاحب **الذخيرة السنية** - بدوره - لا يقيد نفسه بترتيب يحدد فيه المراتب ؛ حيث جعل **بني مرين فخذاً من زناتة** ؛ وفي موضع آخر جعلهم في **مرتبة قبيلة**. وبعدها ذكر **أن لبني مرين قبائل تتفرع عنهم** ؛ الأمر الذي يبعث على الاعتقاد بأن مرتبتهم أعلى من مرتبة قبيلة. ثم يقول: ((**فولد ورتاجن بن مرين جميع شعوب قبائل بني ورتاجن وهم تسعة عشرة قبيلة**)). [1] وهكذا يخلط ويعجن الموضوع ؛ بحيث يتعذر على القارئ فهم ما يقصده بالضبط. وكذلك الحال بالنسبة **ليحيى بن خلدون** ؛ فقد خلط - هو الآخر - في الأمر ؛ حين تعرض **لمراتب بني عبد الواد**، إذ جعلهم أحياناً في **مرتبة قبيلة، وأحياناً أخرى في مرتبة فخذ** ؛ ثم ذكر فروعهم ؛ جاعلاً منها في **مرتبة شعب**. [2]

غير أن **الشيخ مبارك الميلي** - في العصر الحديث - حاول ضبط المصطلح، ووضع بعض الفئات في مراتبها ؛ وذلك عندما ذكر **بني هلال وسليم في بلاد المغرب** ؛ [3] حيث جعل **هلالاً في مرتبة شعب** ؛ وفروعها: **الأثبج، ورياحاً، وزغبة، وقرة** ؛ كل فرع في **مرتبة قبيلة** ؛ وفروع **الأثبج** وهي: **دريد، وكرفة، وعياض، والضاحك ولطيف والعمور، والعاصم، ومقدم** ؛ كل وحدة من هذه الوحدات في **مرتبة عمارة** ؛ وفروع **رياح** بمثابة **عمائر** أيضاً وهي: **مرداس، وسعيد، وعامر، وعلي** ؛ وكذا الحال في فروع **زغبة**، حيث وضعها في مرتبة **عمائر** أيضاً وهي: **يزيد، وحصين ومالك وعامر، وعروة**. هذا ولم يذكر **الشيخ مبارك** إن كان هذا التصنيف اجتهاداً منه أم استقاه من مصادر معينة.

[1] الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص: 17.
[2] أنظر بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص ص: 186 - 190.
[3] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج: 2، ص: 566.

ويبدو أنه وضع ذلك الترتيب قياساً على ما اصطلح عليه **العرب** من قبل. علماً بأنه لم ينهج هذا النهج عند تطرقه **للقبائل الأمازيغية** ؛ مبرراً ذلك بمراعاته للحياة **الأمازيغية** ؛ التي تتميز باستقلال قبائلها عن بعضها. [1]

وهذه ملاحظة هامة ، يستفاد منها أن **القبائل الأمازيغية** ـ آنئذ ـ يتعذر عليها الاتحاد ضمن وحدة أعلى من **القبيلة** ، وربما أقل من مستوى قبيلة ؛ علما بأن هذه الظاهرة يتميز بها **العرب** أيضاً. [2] حيث عجزت قبائلهم عن التكتل في وحدات أكبر من **قبيلة**. وحتى **مستوى القبيلة** لا يتم الوصول إليه إلاَّ في حالات استثنائية وظرفية ؛ ثم تتفتت عرى الاتحاد ؛ حيث تتجزأ **القبائل إلى بطون وأفخاذ** متناثرة ومتعادية.

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف موضوع **البناء القبلي** في **المغرب الإسلامي** ؛ فإنه يمكن الاستعانة بما جاء في كتب الأنساب ، وطبقات القبائل العربية لتقريب الصورة المطلوبة في المغرب. خاصة وأن نسابة أمازيغ كثيرون ينسبون قبائلهم إلى **أصول عربية**. وعليه فلا حرج في الاعتماد على ما ذكره أولائك النسابة ؛ تجاوباً واحتراماً لإحساسهم وشعورهم بالانتماء للعرب ؛ ذلك الانتماء الذي يؤمن به عدد كبير من **القبائل الأمازيغية** آنئذ. [3]

وجملة القول فإن **التقسيم القبلي العربي** المتداول يكون إما **في ست مراتب أو عشر مراتب** ؛ وأصحاب الرأي الأول يجملونه في الأبيات الشعرية التي نظمها **العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطي** : [4]

---

[1] تاريخ الجزائر، ج: 2، ص: 580.

[2] المفصل، ج: 4، ص ص: 345 ـ 348.

[3] أنظر جمهرة أنساب العرب، ص: 495. وروض القرطاس ص ص: 75. 110. 119. 184. 189. والذخيرة السنية، ص ص: 9. 16. والمسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، ص ص: 107. 109. والعبر، مج: 6، ص ص: 177. 180. 182. 192. ومج: 7، ص ص: 6. 9. وبغية الرواد، ج: 1، ص ص: 178. 181. ونظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، ص ص: 152. 153.

[4] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج: 4، ص ص: 308 ـ 309.

الشعـبُ ثـمَّ قبيلةٌ وعمـارةٌ بَطـنٌ وفَخْـذٌ والفَصيلةُ تابعَـهْ
فالشعبُ مجتمعُ القبيلةِ كُلهـا ثُـمَّ القبيلـةُ للعِمـارةِ جامِعَـهْ
والبطنُ تجمعهُ العَمائِرُ فاعْلَمَنْ والفَخْذُ تَجْمَعهُ البُطونُ الواسِعَهْ
والفَخْذُ يجمعُ للفَصائِلِ هاكَهَا جاءَتْ عَلى نَسَقٍ لَها مُتتابِعَهْ
فَخُزَيمَةٌ شَعْبٌ، وإنَّ كِنانَـةً لَقَبيلَـةٌ مِنْها الفَصائِلُ شائِعَهْ
وقُرَيشُها تُسْمى العِمارَةَ يا فَتَى وقُصَيٌّ بَطْنٌ لِلأعـادِي قامِعَهْ
ذا هاشِـمٌ فَخْـذٌ وذا عَباسُهـا أثَرَ الفَصِيلَـةِ لاَ تُنَـاطُ بِسابِعَـهْ [1]

أ ـ الشعـب: وهـو أوسـع الوحـدات الاجتماعيـة والسياسيـة، وأبعدهـا في هـذا التقسيـم؛ ويقتـرن لـدى النسابـة العـرب **بعدنـان أو قطحـان**. وسـمي كذلك لتشعب القبائل منه. وثمة من يرى بأن هذه المرتبة من **خصوصيات العجم**؛ إذ الشعب من مراتبهم؛ بينما **القبيلة من مراتب العرب**. [2]

وقد جاء في **القرآن الكريم** ذكر الشعوب والقبائل: ***﴿يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا؛ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أتْقاكُمْ؛ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.*** [3] وهـذه التسمية استعملها **اليونانيـون والرومـان** ـ بلغتهم ـ للدلالة على اتحاد **قبائلهـم كافة**؛ ضمـن **شعـب واحـد**؛ تقـوده حكومـة موحـدة. وربمـا توصـل **العـرب** ـ في حـالات مـا ـ إلى تجميع قبائلهـم ضمن هـذه المرتبـة؛ حيـن استطـاع بعضهـم تشكيل حكومات **عربية**؛ وخاصة في **جنوب شبه الجزيرة**. ويصدق هـذا ـ أيضـاً ـ عـلى **بـلاد المغـرب** الـتي عرفـت ـ في فتـرات مـا ـ **تجمعـات قبليـة كبـرى**؛ ولكنها سرعـان مـا تنفـرط، وتنقسـم إلى وحـدات صغـرى بمجـرد

---
[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج: 4، ص ص: 308 ـ 309.
[2] العقد الفريد، ج: 3، ص: 335.
[3] الآية 13 من سورة الحجرات.

انتهاء الأسباب الظرفية للاتحاد مع بعضها.[1] هذا وقد تخيل **الشيخ مبارك الميلي** أحياء **بني هلال** الزاحفين إلى بلاد المغرب في مرتبة **شعب**.

ب ـ القبيلـة : هي عبارة عن تجمع، واتحاد لوحدات اجتماعية أقل منها حجماً؛ تؤمن بأن نسبها واحد. ويمكن أن تكون تلك الوحدات: **عمائر، أو أفخاذاً، أو عشائر، أو فصائل، أو أرهاطاً. والقبيلة**[2] بدورها تنتمي إلى **حلقة أعلى** منها وأشمل؛ قد تسمى باسم "**شعب**" كما ورد ذلك في **القرآن الكريم**. ويعتقد بعض النسابة **أن تسمية قبيلة** جاءت تعبيراً عن **تقابل الأنساب**. وقد **تكون القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الكبرى في بلاد المغرب** ـ مع بعض الاستثناءات الظرفية ـ وذلك في حالة تمكن **البطون أو العمائر** من السمو إلى ما هو أعلى من القبيلة في **المسيرة الاتحادية**. وقد يحدث هذا في فترات زمنية قصيرة أيضاً؛ عند ظهور تهديدات، وأخطار؛ تعجز عن صدها التكتلات الصغرى. وقد يحدث أيضاً أن تتحد مجموعة من القبائل خلف رجل عظيم لفترة ما؛ ثم ينفرط ذلك الاتحاد. وقد يدوم وقتاً طويلاً؛ إذا ما تحول الاتحاد إلى دولة قوية. وهذا ما حدث في دولة **مسنيسا** وخلفائه، وعند قيام دولة **المرابطين**، ومن بعدهم **دولة الموحدين، ودولة الفاطميين**. ولكي نُكَوِّن صورة واضحة للقبيلة في بلاد المغرب؛ يمكننا تصور ما سبق أن تخيله **الشيخ مبارك الميلي**؛ حين وضع الأحياء التي تفرعت عما سماه **شعب هلال**؛ حيث وضع فروع **هلال** في مرتبة: **قبائل**؛ مثل: **الأثبج، ورياح، وزغبة، وقرة، وجشم، والخلط، وسفيان، والمعقل.**

[1] مثل الاتحاد الذي وقف خلف يوغرطا، واتحاد القبائل الخمسة الذي ساند أيام الرومان في البداية بقيادة فيرموس، والاتحاد الذي جمع قبائل زناتة خلف ميسرة المطغري، والاتحاد الذي قاده أبو قرة، والاتحاد الذي سار وراء أبي يزيد...إلخ. فكلها انتهت بالتفكك والتلاشي.

[2] أنظر: الآية 13 من سورة الحجرات؛ السابقة الذكر في الصفحة التي سبقت هذه.

جـ ـ *العمـارة*: وهـي **الطبقـة الثالثـة** في **التقسيـم السـداسي**. وتنشـأ هـذه الوحـدة الاجتماعية بانقسـام القبيلـة ذات النسـب الواحـد إلى **عمائـر**؛ تبعـاً للتكاثـر في النسـل الـذي يحدث، وللتشعب الكثيف في الوحدات الصغـرى؛ وذلـك عندمـا يتزايـد أعضـاء الوحـدة نفسهـا، فتتفـرع عنهـا ـ وبجوارهـا ـ وحدة شقيقة ومماثلة لهـا. ويقـرن النسابـة العـرب هـذه المرتبـة **بقريـش، أو بكنانـة**؛ إذ وضـع كليهمـا في **مرتبـة عمـارة**. أمـا في **بـلاد المغـرب**؛ فيمكـن مسايـرة رأي **مبـارك الميلي** في اعتبار أحيـاء: **دريـد، والضحـاك، والعاصـم، والعمـور** ـ علـى سبيـل المثال ـ في **مرتبـة عمـارة**.

د ـ *البطـن*: وهـي **الطبقـة الرابعـة**؛ وتحدث نتيجة للانقسام الـذي يحصـل في الوحدة الأعلى وهي العمارة، أو للتشعـب الناتـج عـن التزاحـم الحاصـل في الوحـدة ذاتهـا؛ أي **البطـن** فتتوالـد بطـون أخـرى. وكلهـم يعتقـد في الجـد الواحـد لأعضـاء البطـن. ومرتبـة بطـن يقرنهـا النسابـة العـرب **ببـني عبـد منـاف، وبـني مخـزوم**. ويبـدو أن هـذه المرتبـة شائعـة جـداً **لـدى مـؤرخي المغـرب الإسـلامي**؛ وقـد تحـدث في الشكـل النهـائي الـذي تتوصـل إليـه **الجماعـات البدويـة في مسعاهـا نحـو الاتحـاد**؛ وذلـك بسبب صعوبـة الوصـول إلى اتحـاد تتشكـل منـه **مرتبـة القبيلـة**؛ وإذا حـدث هـذا؛ فـلا يكـون إلاَّ في حـالات خاصـة؛ مبعثهـا الإحسـاس بالخطـر في الغالـب. ومـا أن تـزول الدوافـع لذلـك حـتى "**تعـود حليمـة لعادتهـا القديمـة**"؛ فتتفكـك عـرى الاتحـاد، ويكتـفي أعضـاء القبائـل بالعيـش ضمـن **وحـدات صغـرى**؛ قـد تكـون أكبرهـا في **مرتبـة بطـن**. وربمـا يتـم هـذا في وحـدات أصغـر كمرتبـة **فخـذ** مثـلاً. وبالطبـع؛ فـإن مـن الخاصيـات البـارزة للعقليـة القبليـة؛ هـي اللجـؤ للانفـراد والتجزئـة؛ نظـراً لمـا تمليـه **العصبيـة القبليـة**؛ الـتي تدفـع أعضـاء القبيلـة نحـو الارتبـاط بمـن هـو أقـرب نسبـاً إليهـم؛ إذ كلمـا بعـد النسـب

بعدت معه روابط التلاحم ؛ لأن المصلحة المشتركة تكون دوافعها أقوى في التجمعات الصغرى. ويعبر عن ذلك ما جاء في القول الشعبي : ((**مع أخي على ابن عمي، ومع ابن عمي على الغريب**)). أضف إلى هذا أن الأنانية متجذرة في أفراد **القبائل البدوية** ؛ فتلزمهم بالانفراد والتقوقع.

وجملة القول ـ بخصوص **المغرب الإسلامي** ـ فإن التمييز بين **مرتبة القبيلة ومرتبة البطن** أمر صعب وعسير في هذه الديار ؛ لأن المتتبع لكتابات المؤرخين والنسابة ؛ لا يجد ما يدعم ذلك التقسيم الاصطناعي الموضوع من قبل **النسابة العرب** ؛ بل يمكن أن يلاحظ ـ فيما كُتِبَ ـ اختلاطاً في المصطلحات. وحتى **ابن خلدون** نفسه لم يلتزم بمصطلح معين ـ كما سبق ذكره ـ من ذلك ؛ أنه قد اعتبر ـ عند تقسيمه **الأمازيغ** ـ الفروع التي خرجت من **جذمي**: **البرانس، والبتر** ؛ بمثابة **بطون** ؛ متجاوزاً بذلك مراتب: **شعب، وقبيلة، وعمارة**. [1] أما **الميلي** فقد اعتبر في مرتبة **بطن** كلا من: **أولاد سرور، وأولاد عطية، وأولاد عبد الله ؛ وكل هؤلاء من هلال.**

هـ ـ *الفخذ*: وهي **الطبقة الخامسة**، وتنشأ من جراء **انقسام البطن إلى أفخاذ**، أو تشعب الوحدة ذاتها ؛ فتتوالد عنها وحدات مماثلة لها. ويقرن النسابة العرب هذه المرتبة **ببني هاشم أو ببني أمية**. والفخذ هي شكل من أشكال التنظيم القبلي ؛ ويكون وحدة إجتماعية أعلى من **العشيرة**، لأنها تجتمع فيها عدة عشائر متقاربة ومتجاورة في المسكن ؛ على أنه يحسن بنا التنبيه إلى **أن العشيرة ليست واردة في التقسيم السداسي**. كما يؤمن أعضاء **الفخذ** الواحد بوجود جد مشترك بينهم. هذا **وتتمتع مرتبة الفخذ بوظائف اجتماعية ؛ وربما سياسية** ؛ تسند تلك الوظائف إلى رئيسه أو شيخه ؛ الذي يمثل الفخذ في المستوى الأعلى ؛ **كالبطن** أو **القبيلة** مثلاً.

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 177. 181. أنظر أيضاً ما قبله.

ويتم اختيار الرئيس طبقاً لما يتمتع به من صفات أخلاقية ؛ وما لديه من ثروة وعصبية. وهذه المرتبة ليست واضحة كل الوضوح في كتابات المؤرخين والنسابة **المغاربة**. وقد وضع **الميلي** ـ كمثال على **مرتبة الفخذ** ـ كلا : من **أولاد جار الله، وتوبة في مرتبة أفخاذ لأولاد عبد عبد الله**.

و ـ الفصيلة : وهي **الحلقة السادسة والأخيرة في هذا التقسيم السداسي**. أما **التقسيم العشري فتحتل الفصيلة فيه المرتبة التاسعة**. ويعتبر التلاحم بين أعضاء الفصيلة أشد وأمتن من التلاحم الحاصل في مراتب أعلى ؛ بسبب قرب اللحمة بينهم. وقد ورد ذكر الفصيلة في **القرآن الكريم** : **(*وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ*)** .[1] ومن الأمثلة على الفصائل التي وضعها **الميلي** : فصيلة **أولاد عنان المنحدرة عن فخذ أولاد جار الله، وفصيلة أولاد وشاح المنحدرة عن فخذ توبة.**

&&&

هذا ما أمكن عرضه بخصوص **البناء القبلي** ذي **الترتيب السداسي** ؛ أما الذين يجعلون البناء القبلي في **عشر مراتب**، فيضيفون ـ إلى ما جاء ذكره سابقاً ـ مراتب أخرى :

(1) ـ الجذم : وهو **أول الطبقات** وأقصاها. ومعناه لغة القطع، أي **قطع كل بحث في تسلسل الآباء وأسمائهم** ؛ لتعذر الأمر **بعد مرتبة الجذم**. ويمكن ـ **في بلاد المغرب** ـ اعتبار **مادغيس الأبتر في مرتبة جذم** ؛ وكذلك **برنس** في المرتبة نفسها.[2]

(2) ـ الجمهور : ويسمى أيضاً **التجمهر** ؛ بمعنى الاجتماع والكثرة. وتأتي هذه **المرتبة كطبقة ثانية** ؛ تلي **الجذم** في **التقسيم العشري**. وقد نشأت هذه المرتبة بعد **انقسام الجذم إلى جماهير عديدة**، أو تفرع الجمهور بعد

---

[1] الأية 13 من سورة المعارج.

[2] العبر، مج: 6، ص: 176.

إزدحامه فنشأت عنه وحدة مماثلة له. ولم يستعمل المؤرخون عبارة **جمهور في المغرب الإسلامي** إلاَّ في سياق مجازي ؛ دون أن يقصدوا به مصطلحاً معيناً.

(3) ـ العشيرة: وهي **الطبقة الثامنة لدى أصحاب التقسيم العشري**. وتنشأ **بانقسام الفخذ إلى عشائر**، أو بعد تشعب العشيرة وتكاثفها ؛ فتتوالد عشائر أخرى إلى جانبها. وقد أشتق اسمها **من المعاشرة** ؛ أي المخالطة. وهي من المراتب التي ورد ذكرها في **القرآن الكريم**: **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾**. [1] هذا وقد تعرضت هذه المرتبة ـ **من البناء القبلي** ـ لأبحاث كثيرة ؛ من قبل علماء الاجتماع. وقد أدى هذا إلى شيوع ذكرها، وذيوع أمرها في مجتمعات إنسانية متنوعة ؛ منها ما هو قائم إلى حد الآن.

ومجمل القول ؛ فإن **العشيرة** عبارة عن **قبيلة مصغرة**. واللحمة في العشيرة تكون أقرب وأمتن ؛ ولها وظائف اجتماعية ؛ وربما سياسية ؛ ويدير شئونها شيخ، أو رئيس يتميز بمميزات أخلاقية بارزة ؛ ويتمتع **بعصبية قوية** ؛ يستمد منها نفوذه المعنوي. وعليه يمكن القول بأن العشيرة هي فئة صغيرة من الأقرباء، مشكلة من أسر عديدة، يعتقد أعضاؤها في انتمائهم: إلى أصل واحد ؛ أي **جد أو جدة** في بعض الحالات، أو إلى **طوطم** مشترك في حالات أخرى. ويعيش أعضاء العشيرة على أرض مشتركة، وفي أحياء متقاربة ومتجاورة ؛ وتجمعهم روابط اجتماعية واقتصادية وثقافية موحدة. **ويحدد النسابة العرب نطاق العشيرة بالجد الرابع** ؛ إذ ((**هم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء**)). [2] أما الباحثون المحدثون

[1] الأية 214 من سورة الشعراء.
[2] نهاية الأرب، ج: 2، ص: 285.

في المجتمعات الإنسانية ؛ فقد اهتموا بموضوع العشائرية ؛ حيث تبين لهم بأن المجتمعات البشرية **عرفت ثلاثة أنواع هامة من العشائر** ؛ هي :

(أ) ـ العشيرة الطوطمية : [1] وتتميز **بوحدة الطوطم** ؛ **الذي يعتقد أفراد العشيرة بأنهم ينتمون إليه روحياً. والطوطم يكون إما حيواناً، أو نباتاً معيناً**. ومازال هذا المعتقد سائداً حتى الآن في بعض الجهات من المعمورة ؛ **كالأمازون. واستراليا وإفريقيا السوداء.**

(ب) ـ العشيرة الطوطمية الإقليمية : يتميز هذا النوع من العشائر **بوحدة الطوطم، ووحدة الإقليم** معاَ ؛ إذ يعتقد أعضاؤها بأنهم ينتمون إلى طوطم مشترك وإقليم واحد. وبذلك تكون الرابطة ـ هنا ـ **طوطمية واقليمية.**

(جـ) ـ العشيرة الإقليمية : تتميز هذه العشيرة برابط الإقليم الواحد ؛ الذي يجمع أعضاءها. ويرى الباحثون أن هذا النوع من العشائر يغلب على الفئات البشرية التى **تتدرج نحو ترك البداوة**، واختار الاستقرار في القرى والأرياف ؛ حيث يتعاطون مهنة الفلاحة. ويبدو أن **العشيرة الإقليمية** هي السائدة في **البلاد العربية وفي المغرب.**

وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى أن **العشيرة العربية والأمازيغية** لم يثبت بعد ؛ أنها عرفت **الطوطمية** في يوم من الأيام. ومع هذا فثمة من يقول بذلك. أما نحن ـ في هذا المجال ـ سنتجنب الحديث عن **الطوطمية** ؛ لخروج هذا الموضوع عن اهتمامات هذه الدراسة. وعليه سنقتصر على مفهوم العشيرة الشائع لدى النسابة المسلمين. ويمكن حصر ذلك في صنف **العشيرة الإقليمية ؛ ذات الروابط الدموية.**

---

[1] للتوسع يستحسن الرجوع إلى كتاب النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، ص ص: 91 ـ 143. وكتاب علم الاجتماع البدوي، ص ص: 200 ـ 206. 269 ـ 273.

وفي **المغـرب الإســلامي** يستعمــل المؤرخــون عبـارة **عشيــرة** بصــورة مجازية للدلالـة على **حي** مـن **أحيـاء القبيلـة**. وهـذا مـا جـرت عليـه العـادة عند **المشارقة** أيضـاً. وعليه فلا علاقة بيـن **شكـل العشيرة المغربيـة وشكـل العشيـرة في المجتمعـات البدائيـة ؛ ذات الطابـع الطوطـمي**. ويصدق هـذا الحكـم ـ على الأقـل ـ خـلال **الفتـرة الإسلاميـة**. **والنظـام العشائـري في بـلاد المغـرب يسـود في الأريـاف، والصحـاري**. [1] حيـث تمركـز هـذا النظـام ـ في الأريـاف ـ ضمـن القـرى وأطرافهـا ؛ أيـن تشتمـل كـل قريـة عـلى وحـدات اجتماعيـة معينـة ؛ يمكـن تسميتهـا **بالعشائـر**. [2] وهـذه الوحـدات تـأتي في المرتبـة الثانيـة بعـد مرتبـة **العائلـة** ـ أي **الرهـط** ـ نحـو الأعلى.

وربمـا يكـون هـذا النظـام قـد نشـأ في حقبـة تاريخيـة بعيـدة مـن تاريـخ **بـلاد المغـرب** ؛ وربمـا فرضتـه سنـة التطـور ؛ الـتي طـرأت عـلى شكـل العائلـة ؛ حيـث وجـدت العائلـة نفسهـا في حاجـة ماسـة لحمايـة أملاكهـا ومنتوجاتهـا الحيوانيـة والزراعيـة ؛ فاضطـرت للاتحـاد مـع عائـلات أخـرى ؛ تجمعهـا بهـا صـلات القرابـة. فتكونـت بذلـك وحـدة اجتماعيـة وسياسيـة تـدعى **عشيـرة**. ومـع مـرور الوقـت اجتمعـت العشائـر ضمــن اتحـادات أعـلى ؛ ذات طابـع قـروي ؛ فتشكـل ـ مـن جـراء ذلـك ـ مـا يعـرف **بالجمهوريـات القرويـة الصغيـرة** ؛ [3] ذات **الطابـع القبـلي** ؛ وكـان يحكـم تلـك القـرى مجالـس لشيـوخ العشائـر طبقـاً لعـرف خـاص.

وفي حـال الحـرب تسلـم السلطـات لقائـد عسكـري واحـد. وقـد يتطلـع ذلـك القائـد إلى تأسيـس دولـة ؛ منتهـزاً الفـرص الـتي توفرهـا الحـروب ؛ حيـن تتوحـد عشائـر وقبائـل عديـدة ضمــن اتحـاد قـوي. أمـا المناطـق الصحراويـة

---

[1] علـم الاجتمـاع البـدوي، ص ص: 200 ـ 206. 269 ـ 273.
[2] قبائـل المغـرب، ج: 1، ص: 281.
[3] تاريـخ إفريقيـا الشماليـة، ج: 1، ص: 81.

فقد لجأت العائلة فيها إلى الاتحاد مع غيرها من ذوي القربى ؛ بقصد التعاون على العيش والكسب والحرب ؛ فنشأت بذلك **العشائر**، ثم **الأفخاذ**، ثم **البطون، فالقبائل**...الخ. وتجدر الإشارة إلى أن **العشيرة الصحراوية** أقل انضباطاً ونظاماً من **العشيرة القروية**.

(د) ـ *الرهط*: بمعنى **الأسرة**. ويزعم بعضهم أنها **أقل من الأسرة** ؛ حيث يقولون: ((**الرهط دون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك**)). [1] والمقصود بالأسرة ـ هنا ـ هو **الأسرة الممتدة أي العائلة**. وقد ورد ذكر الرهط في **القرآن الكريم**: ***(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ)***. [2] **والأسرة في بلاد المغرب** تعرف باسم **العائلة**. ومفهوم العائلة ـ في الحقيقة ـ يختلف عما هو شائع حديثاً حول **الأسرة** ؛ لأن الأسرة تنشأ ـ حسب المصطلح الحديث ـ من الزواج بين اثنين ؛ يضاف إليهما أبناؤهما. أما العائلة في **بلاد المغرب** فقد استمدت صفاتها من مصدرين رئيسيين: أولهما **المجتمعات الأمازيغية القديمة**، وثانيهما **المجتمعات العربية**. وكلاهما أنتج شكلاً واحداً من أشكال **الأسرة** ؛ مع بعض الاختلافات البسيطة. وهذا الشكل معروف باسم: **الأسرة الأبوية، أو الأسرة الممتدة، أو المركبة، أو المشتركة، أو الجامعة البيتية.** [3] وتقوم الأسرة هنا على بعض المقومات الاجتماعية والاقتصادية ؛ أهمها:

ـ تمركز السلطة المطلقة في **شخص الأب**، أو **أكبر أعضاء الأسرة سناً**. [4] ويتولى هذا الأخير صلاحياته بعد ممات الأب الأكبر.

---

[1] نهاية الأرب، ج: 2، ص: 285.

[2] سورة النمل، آية: 48.

[3] أصل الأسرة، ص ص: 88 ـ 94. وعلم الاجتماع البدوي، ص ص: 186 ـ 193.

[4] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 80 ـ 81. ولدى الشعوب السلافية ينتخب المسئول عن الأسرة، ولا يشترط فيه كبر السن. أنظر أصل الأسرة، ص: 90.

ـ إباحة **تعدد الزوجات**؛ بقصد إكثار النسل، وتوفير اليد العاملة داخل الأسرة.

ـ اشتمال الأسرة على **عدد من العبيد، وأزواجهم، وأولادهم** أيضاً؛ فتنشأ من جراء ذلك كتلة بشرية؛ تتصدى للمهام الاقتصادية والاجتماعية: كرعي المواشي، وحرث الحقول وزرعها، وإنجاب الأطفال والعناية بهم، وإعداد الطعام...الخ.

وعليه فاختلاف هذا الشكل من أشكال الأسرة اقتضى إضفاء تسمية عليه تميزه؛ وربما كانت أصلح تسمية هي **عائلة**؛ كما هو معروف الآن في هذه الديار. وهذا النوع من أنواع الأسر كان معروفاً ـ أيضاً ـ في مجتمعات أخرى: **سامية وآرية**؛ منها المجتمعات: **الرومانية، والسلافية، والجرمانية والهندية**. ومن مميزات هذا الشكل أن أعضاءه يشتركون في العمل جماعياً؛ كما يشتركون في اللباس والمأكل؛ والملكية عندهم جماعية؛ إلاَّ في حدود معينة. وقد تختلف ـ أحياناً ـ صلاحيات الأسرة؛ حسب اختلاف المجتمعات، وتباين العقليات.

&&&

هـ ـ *مراتب إضافية:* ثمة من أضاف **مراتب أخرى**؛ منها ما يعرف **بالجيل**؛ ورتبوها **بين الفصيلة والفخذ**؛ أي **في موضع العشيرة**.[1] كما أضاف غيرهم حلقات أخرى: **كالأسرة، والعترة، والذرية.** ثم أضافوا أيضاً: **البيت، والحي، والجماعة.**[2] كل ذلك تفنن واختراع؛ من قبيل المجاز والفذلكة. ونظراً لتجنب الخلط، ومنعاً للالتباس فقد أجاز **العرب** لأنفسهم إطلاق تسمية واحدة تعبر عن المراتب كلها؛ وهي "**الحي**"؛ فصاروا يقولون بأسلوب التعميم: "**حي من العرب**". وعند التخصيص

---

[1] المفصل، ج: 1، ص: 509.

[2] نفسه، ص: 510.

يقولـون : "**حي مـن بـني فـلان**". [1] كمـا أن الشائـع لديهـم هي مرتبتـان فقـط : **القبيلـة ثـم البطـن**. وفي الوقت الحاضـر أصبحـت مرتبتـا : **القبيلـة ، والعشيـرة** تعنيـان شيئـاً واحـداً ؛ بغـض النظـر عـن الحجـم والوظيفـة.

ويـرى جـواد عـلي بـأن اسـم **قبيلـة** هـو الشائـع عنـد البـدو مـن العـرب ؛ حيــث يستعملــون هــذه التسميــة بشكــل واســع ؛ دلالــة عــلى الوحــدات الاجتماعيــة الكبــرى. [2] ويــرى ـ أيضــاً ـ أن **عــرب الجنــوب** في القديــم لــم يستعملـوا **اسـم قبيلـة** ؛ حيـث ثبـت لـه ـ مـن خـلال دراسـة الآثـار المكتشفـة ـ بأنهـم كانـوا يسمـون تلـك الوحـدة الاجتماعيـة "**شعبـم**" ، أو "**شعبـن**" بمعـنى : **الشعـب**. وحـتى الحلقـات الاجتماعيـة الصغـرى ؛ لـم يثبـت لهـا وجـود في الآثـار ؛ بـل ثبـت أنهـم كانـوا يقسمـون الشعـب إلى أجـزاء يسمونهـا "**ربعــن**" أي الربـع أو "**ثلثـن**" بمعـنى **الثلـث**.

ويستحسـن ـ في هـذا المجـال ـ الإشـارة إلى بعـض الملامــح الــتي وردت في كتـاب العبـر عـن مرتبـتي : **جـذم** و**شعـب**. وذلـك أن **ابـن خلـدون** اعتبـر كـلاً مـن **برنـس ، ومادغيـس الأبتـر** في مرتبـة **جـذم** [3]. ثـم قسـم **جـذم برنــس** إلى عــدد مــن **الشعــوب** هــي : **أزداجــة ، ومصمــودة ، وأوربــة ، وعجيســة ، وكتامـة ، وصنهاجـة وأوريغـة ، ولمطـة ، وهسكـورة ، وكزولـة**. أمـا **جـذم البتـر** فقسمـه ـ أيضـاً ـ إلى أربعـة **شعـوب** هي : **أداسـة ، ونفوسـة ، وضريسـة ، وبنـو لــوا الأكبــر**. وهنــا يتضــح بــأن **البنــاء القبــلي** في **المغــرب** يمكــن أن يشمــل مرتبـتي : **جـذم ، وشعـب** ؛ غيـر أنـه لوحـظ بعـض الاضطـراب في حديـث **ابـن خلــدون** ؛ لأنــه خلــط في الترتيــب بعــد ذلــك ؛ بحيــث يزعــم أن **شعــوب**

---

[1] صبـح الأعـشى، ج: 1، ص: 309.

[2] ((والقبيلـة هي المجتمـع الأكبـر بالنسبـة إلى أهـل الباديـة؛ فليـس فوقهـا مجتمـع عندهـم. وهي في معـنى "شعـب" عندنـا وفي مصطلحنـا الحديـث. وتتفـرع مـن القبيلـة فـروع وأغصــان؛ هـي دون القبيلـة؛ لأنهـا في منزلـة الفـروع مــن الشجــرة. ثــم اختلفــوا فــي عــدد الفــروع المتفرعــة مــن القبيلـة)). المفصـل في تاريـخ العـرب قبـل الإسـلام، ج: 1، ص: 511.

[3] العبـر، مج: 6، ص: 176.

البرانس تنقسم إلى **أجذام** ؛ في الوقت الذي يعتبر فيه **برنس** نفسه **جذماً**. فكيف ـ إذن ـ تصير فروعه أجذاماً..؟**!** ثم كرر التناقض نفسه مع **البتر**. [1] وبعدها أضحى يسمي الفروع التي خرجت عن الشعوب **بطوناً** دون إعطاء أي اعتبار للتدرج المنطقي.

كل هذا التعارض والاضطراب يقودنا إلى الاكتفاء بعبارة "**قبيلة**" قصد التعبير ـ بشكل مجازي ـ عن تلك الوحدات الاجتماعية كلها ؛ حتى وإن تم ـ في بعض الحالات التعبير عنها بكلمة "**عشيرة**" ؛ حيث نطلق على النظام القبلي كله اسم "**النظام العشائري**" ؛ بسبب ذيوع وشيوع هذه التسمية بين الأمم جميعها.



[1] العبر، مج: 6، ص ص: 176 ـ 179.

الرئاسة في القبيلة

يشتمل كل نظام قبلي على شكل ما، وأسلوب معين من أساليب وأشكال الحكم. وتتميز جميعها - مع اختلاف صورها - بالبساطة والسذاجة. وفي الغالب تنشأ في النظام القبلي مجالس متفاوتة في الترتيب والصلاحيات، حسب وحدات النظام؛ من الصغرى إلى الكبرى. أي من **مجلس العشيرة، إلى مجلس الفخذ، فمجلس القبيلة.** وهكذا؛ ويضم كل مجلس من تلك المجالس عدداً من شيوخ وأعيان الوحدة المعنية. وعلى رأس كل مجلس رئيس؛ ينتخب أو يعين ليرعى شئون عشيرته أو قبيلته. ويسند منصب السيادة في القبيلة إلى رئيس عام؛ يكون من وجهاء القبيلة. ويتم ذلك إما بواسطة الانتخابات أو بالتعيين؛ تبعاً لسُنَّة الوراثة أو غيرها. وإلى جانب الرئيس يتشكل مجلس للقبيلة؛ يضم شيوخ الوحدات الصغرى ك: **العشائر، أو البطون أو الأفخاذ**...الخ.

هذه صورة عامة؛ لما يمكن أن يكون عليه شكل الحكم في النظم القبلية كافة؛ غير أنه يختلف - في بعض جوانبه - من مجتمع إلى آخر. فلدى **الإغريق، والرومان، والهنود الحمر** - مثلاً - يتلخص النظام القبلي، وشكل المؤسسات الحاكمة في قبائلهم كما يلي.[1]

1 - في النظام القبلي الإغريقي:

يمكن إجمال النظام القبلي عند الإغريق عموماً؛ في أنه يتأسس على **النسب الأبوي** بالخصوص. كما أن البناء الاجتماعي في قبائلهم يتكون - باستثناء الأسرة - من أربع مراتب هي: **العشيرة، والأخوة، والقبيلة، واتحاد القبائل**. ويعتبر النظام الآثيني من أشهر نظمهم. وبهذا

[1] أنظر أصل الأسرة، ص ص: 154 - 178. وانظر أيضاً كتاب نظام الآثينيين.

تكون العشيرة هي أصغر مرتبة في النظام القبلي لديهم. وتختص العشيرة عندهم ببعض المزايا التي تعزز وحدة أعضائها ؛ من ذلك :

ـ وحدة الطقوس الدينية. والاعتقاد في الأب الأول للعشيرة، وهو معبود لديهم.

ـ توفر مبقرة مشتركة للعشيرة.

ـ حقوق الوراثة مشتركة بين أعضاء العشيرة.

ـ الواجب المشترك بينهم في الدفاع عن العشيرة، وتحمل التبعات، والاشتراك في تعويض الخسائر.

ـ وجوب الزواج داخل العشيرة ؛ إذا كانت الفتاة من الوارثات.

ـ الأملاك المشتركة للعشيرة في بعض الحالات.

ـ يتسلسل النسب عندهم في الشطر الأبوي فقط.

ـ العمل بحق التبني ضمن العشيرة (بشكل محدود) ؛ مثلما يحق أيضاً داخل الأسرة.

ـ يحق لأعضاء العشيرة أن ينتخبوا شيخهم "**الأرخون**" أو يعزلونه.

&&&

أما المؤسسات القبلية الدستورية لديهم ؛ فيمكن تلخيصها في المناصب والجمعيات والمجالس التالية :

***أ ـ الأرخون** Archante:* وهو شيخ عشيرة يرأسها ؛ بعد أن يقوم أعضاء **العشيرة** بانتخابه.

***ب ـ المجلس التمثيلي** Boulê:* كان ـ في بداية الأمر ـ هذا المجلس يتشكل من شيوخ العشائر ؛ ولكن ـ بعد تكاثر الشيوخ ـ أصبح أعضاؤه يخضعون للانتخاب. ويفصل هذا المجلس ـ عادة ـ في القضايا الهامة. وقد تحول ـ عند نشأة الدولة ـ إلى **مجلس للشيوخ** *Senate*.

جـ ـ الاجتماع الشعبي *Agora*: و**الأغورا** هذا؛ عبارة عن مجلس شعبي عام؛ يفصل في القضايا الكبرى؛ ويعقد بدعوة من **المجلس التمثيلي** *Boulê*. ويحق لجميع الرجال بالتدخل، وإبداء الرأي داخل هذا المجلس. كما يتم التصديق على القرارات ضمنه برفع الأيدي. وتعتبر قرارات هذا المجلس نهائية، ولا تعلوها قرارات أخرى.

د ـ البازليوس *Basileus*: والبازليوس هو الرئيس العسكري. ويحتل أعلى الدرجات في الحكم القبلي الآثيني؛ ويرأس البازليوس **اتحاد القبائل** كافة؛ وصاحبها هو **القائد العسكري** للقبائل الآثينية؛ وله صلاحيات أخرى ذات **طابع قضائي، وكهنوتي**. ولا يعرف إن كانت هذه المرتبة تخضع للانتخابات، أم يعين صاحبها عن طريق الوراثة. وهذا النظام القبلي في أثينا تطور ـ بالطبع ـ بانتهاء العصر البطولي، وظهور الدولة في ذلك المجتمع.

2 ـ في النظام القبلي الروماني:

أما المجتمع القبلي الروماني.[1] فهو شبيه ـ في حالات كثيرة ـ بالمجتمع القبلي الإغريقي، إذ يستند ـ بدوره ـ على النسب من جهة الأب. ومن وحداته: **العشيرة، والأخوة** وتسمى **كورية** ***Curia***؛ وهي عبارة عن اتحاد لعشر **عشائر**. ثم **القبيلة**؛ وتتشكل ـ بدورها ـ من عشر **كوريات**. ويتشكل الشعب الروماني من **ثلاث قبائل**. وكما هو الحال في النظام القبلي الإغريقي؛ فإن **العشيرة الرومانية** تعتبر ـ أيضاً ـ أصغر مرتبة في هذا النظام القبلي. كما تختص هي الأخرى ببعض المزايا؛ التي تعزز وحدة أعضائها؛ مثل:

[1] أصل الأسرة، ص ص: 187 ـ 204.

ـ تورث العشيرة أملاك أعضائها المتوفين. الأمر الذي يساعد على بقاء الثروة داخل العشيرة. وتبعاً لحق الأبوة لديهم؛ فإن أبناء الإناث يحرمون من الميراث.

ـ وجود مقبرة مشتركة للعشيرة.

ـ إقامة احتفالات دينية مشتركة للعشيرة.

ـ لزوم الملكية المشتركة لأرض العشيرة.

ـ ضرورة التكافل، والتعاون الاجتماعي بينهم، وحتمية الدفاع المشترك عن أعضاء العشيرة، وحماية مصالحم.

ـ حق استلحاق العبيد إلى العشيرة (بشكل محدود)؛ بحيث يحملون اسم عشيرة أسيادهم.

ـ حق استلحاق الغرباء عن طريق التبني: لمن هم تحت الحماية *clients* (**الموالي**)؛ في حود ضيقة أيضاً.

أما المؤسسات القبلية الدستورية عند الرومان؛ فيمكن تلخيصها في المؤسسات التالية:

أ ـ مجلس الشيوخ *Sénat*: ويتكون من شيوخ **العشائر الثلاثمائة**. وهم أكبر الناس سناً؛ لذا فقد سموهم **الآباء** *Patres*؛ وسموهم جميعاً "**مجلس الأكابر سناً**" *Sénat*. وهذا المجلس يقابل **المجلس التمثيلي** *Boulé* في أثينا.

ب ـ اجتماع الكريات *Gomitia Curiata*: وهذا المجمع يضم **ثلاثين** "**كورية**" تمثل المجتمع الروماني. وتتمتع كل كورية بصوت واحد. ويقابل هذا المجمع **الأغورا** في أثينا.

جـ ـ مرتبة الملك *Rex*: وهذه المنصب يقابل مرتبة **البازيليوس** في النظام الأثيني. ومهام الملك تنحصر في دوره القيادي، ذي **الطابع العسكري**، بالاضافة إلى الصلاحيات **القضائية والكهنوتية**. هذا ويقوم أعضاء **اجتماع الكوريات** بانتخاب أحدهم لمنصب الملك.

3ـ في النظام القبلي عند الهنود الحمر:

ينبني النظام القبلي عند معظم الهنود الحمر؛ [1] على **النسب عن طريق الأم** وليس الأب. أما مراتب نظامهم الاجتماعي فتنحصر في **أربع مراتب**؛ مثلها مثل النظام الإغريقي. وهذه المراتب هي: **العشيرة، والأخوة، والقبيلة، واتحاد القبائل**. على أن هذه التسميات ليست هندية المصدر؛ بل أعطاها هذه الأسماء العالم الأنثروبولوجي الأمريكي **هنري لويس مورغان (1818ـ 1881م)**؛ الذي اقتبسها من النظام الإغريقي. وقد لاحظ هذا العالم بعض الخصائص، والأعراف التي تميز العشيرة الهندية؛ منها:

ـ أنها **عشيرة طوطمية**؛ إذ تعتقد كل عشيرة منهم بانتمائها روحياً إلى حيوان معين، وتحمل اسمه. والعشيرة هي المرتبة الأصغر عندهم. وقد ذكر **مورغان** أن كل قبيلة منهم تتكون من **ثمان عشائر**؛ وكل عشيرة تحمل اسم حيوان؛ مثل: **عشيرة الذئب، وعشيرة الدب، وعشيرة السلحفات**... إلخ.

ـ تنتخب العشيرة شيخها المسمى بـ "**الساشام**" في زمن السلم. ولا يجوز بقاء منصب **الساشام** شاغراً. وتكون سلطاته أدبية فقط؛ وليست ملزمة ولا قاهرة. ويتمتع هذا الشيخ بالعضوية داخل **المجلس القبلي، ومجلس اتحاد القبائل**.

---
[1] أصل الأسرة، ص ص: 130 ـ 153.

ـ يتولى شئون الحرب في العشيرة **قائد** أو **رئيس** ؛ ينتخب لتلك المهمة. ويجوز أن يكون ذلك الرئيس العسكري من خارج العشيرة المعنية. على أن منصب الرئيس العسكري يكون شاغراً في أغلب الأوقات ؛ التي يسود فيها السلام.

ـ للعشيرة الحق في أن تعزل **الساشام والرئيس العسكري** ؛ بعد عملية التصويت،

ـ يرث أفراد العشيرة موتاهم الذين ينتمون للعشيرة.

ـ وجوب التكافل والتضامن بين أعضاء العشيرة ؛ كما أن حماية العشيرة وأعضائها واجبة عليهم جميعاً. وحق الثأر مكفول أيضاً.

ـ من حق العشيرة أن تتبنى الغرباء ؛ من أسرى أو منضوين تحتها. بحيث يتمتعون بكل الحقوق داخل العشيرة.

ـ تمتلك كل عشيرة مقبرة مشتركة خاصة بها.

وبمقتضى العرف المتبع عند جل الهنود الحمر ؛ فقد اعتمدوا في نظامهم القبلي المؤسسات التالية :

أ ـ مجلس العشيرة : ويشارك فيه أفراد العشيرة بكاملهم ؛ سواء كانوا نساء أم رجالاً ؛ ولا يستثنى من ذلك سوى الأطفال غير الراشدين. ويقوم هذا المجلس بانتخاب رئيسين : أحدهما لأوقات السلم ويدعى **الساشام**، أما الآخر فمهامه تبرز في أوقات الحرب ؛ ولا يشترط في هذه المرتبة أن يكون صاحبها من العشيرة ذاتها ؛ كما أنها لا تكون مشغولة بصورة دائمة ؛ مثلما هو الحال في مرتبة الساشام.

ب ـ مجلس القبيلة : ويشترك فيه شيوخ العشائر. ولهذا المجلس سلطات أدبية أسمى من سلطات مجلس العشيرة. فمن صلاحياته عزل أي شيخ من مشائخ العشائر ؛ حتى وإن كان ذلك بدون رغبة أعضاء عشيرته. وتعقد جلسات هذا المجلس بصورة علنية ؛ ويسمح خلالها لأعضاء

العشائر العاديين بإبداء آرائهم ؛ ويبقى القرار ـ بعد ذلك ـ من صلاحيات المجلس. وهذا المجلس هو الذي **يعلن الحرب أو السلم**. ويترأس المجلس شيخ له سلطات أدبية فقط.

جـ ـ مجلس الأخوة: ويشمل هذا المجلس شيوخ القبائل التي تنتمي إلى تلك الأخوة ؛ وهو أسمى مرتبة من **مجلس القبيلة**. وصلاحياته أوسع وأشمل ؛ حيث يفصل في القضايا التي تستدعي التدخل تجاه أخوة أخرى، أو نحو إتحاد القبائل.

د ـ مجلس اتحاد القبائل: وهو أعلى المراتب، وأسمى الأشكال التنظيمية في المنظومة الاجتماعية الهندية. وهذا الشكل ليس معمماً لدى الهنود جميعهم ؛ لأن الأغلبية في تلك الأوساط تتوقف منظومتها عند مرتبة "**قبيلة**". ويعتبر مجلس اتحاد القبائل هذا بمثابة السلطة العليا للقبائل المتحدة كلها. حيث يتصدى للشئون الهامة. وتتم مداولات هذا المجلس بصورة علنية ؛ ويسمح لأفراد القبائل والعشائر ـ المنتمية للاتحاد ـ أن يدلوا برأيهم أمام المجلس ؛ الذي يبقى القرار من صلاحياته. وليس لهذا المجلس رئيس فحسب ؛ بل يشترك في تسيير شئونه **رئيسان عسكريان** ؛ يتمتعان بصلاحيات متساوية. ويشبه هذا ما كان متبعاً في **إسبرطة ؛** التي كان فيها ملكان. **وروما** ؛ التي تولى أمرها قنصلان.

4 ـ في النظام القبلي العربي والأمازيغي:

إذا كان النظام القبلي ـ في المجتمعات الإنسانية كلها ـ قد حظي ببعض الاهتمام من قبل علماء الاجتماع ؛ الذين خصصوا لبعض التجمعات البشرية أبحاثاً ميدانية ونظرية في غاية الأهمية ؛ فإن هذا النظام في المجتمعات الإسلامية مازال في حاجة لدراسات معمقة كافية، وكفيلة بكشف خفايا النظام القبلي في هذه الأوساط. كما أن أخذ العينات من

الشكل الحالي للنظم القبلية لا يكفي، ولا يمكن اعتباره حقيقة ثابتة، ومطابقة ـ تماماً ـ لما كانت عليه نظم القبائل في العصر الوسيط أو القديم. ومع هذا فإنه يجوز أن تكون القبائل الحالية قد ورثت بعض التقاليد والأشكال؛ التي ترجع إلى حقبة بعيدة في التاريخ.

وجملة القول؛ فإنه من الثابت أن الوحدات القبلية في **المجتمعات: العربية والأمازيغية** كانت تتمتع بشكل ما من أشكال الحكم؛ تختلف طبيعته باختلاف المكان والزمان، وبعض المؤثرات الأخرى. ومن الثابت ـ أيضاً ـ أن الطابع الديمقراطي [1] كان سائداً في المجتمعات **القبلية العربية والأمازيغية**؛ على الرغم مما يظهر ـ في بعض الأحيان ـ من شواهد تخالف ذلك؛ حين نشهد بأن قدماء العرب، وقدماء الأمازيغ يقرون ـ أحياناً ـ بمبدأ تفاوت طبقات القوم، واختلاف منازل الشرف بين الناس؛ بحكم اقتصار الرئاسة على فئة معينة؛ تنتمي إلى طبقة خاصة؛ [2] ذات نفوذ مادي ومعنوي. وهي طبقة السادة والأشراف. وبالإضافة إلى هذا؛ فثمة الكيفية التي يتولى بها رئيس القبيلة أو العشيرة منصبه الجديد بعد ممات الأول؛ حيث يتم ذلك ـ في غالب الأحيان ـ بفضل حق الوراثة. [3]

وإذا كانت **الممالك العربية**، ومدنها في العصر الجاهلي ـ وهي ممالك ذات طابع قبلي ـ تحظى بمجالس للشورى [4] إلى جانب الملوك والأقيال، فإن الحديث عن تلك المجالس ـ في القبائل البدوية ـ يحتاج إلى كثير من البحث؛ للتأكد من صحة وجودها، والكيفية التي كانت تعمل بها. وعلى الرغم مما ذكره جواد علي في كتابه **المفصل في تاريخ العرب قبل**

---

[1] تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ص: 35. وتاريخ العرب (مطول)، ج: 1، ص36.
[2] المفصل، ج: 4، ص ص: 541 ت 573. العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 63 ـ 73.
[3] المفصل، ج: 4، ص ص: 349 ـ 350. العصبية القبلية، ص ص: 73 ـ 74. تاريخ إفريقيا الشمالية، ج:1، ص81.
[4] تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ص: 35 ـ 36. تاريخ العرب (مطول)، ج: 1، ص: 36. المفصل، ج:5، ص ص: 213 ـ 215. 226 ـ 236.

الإسلام [1] عن وجود تلك المجالس في **القبائل العربية الحضرية**؛ مستنداً ـ في ذلك ـ على ما تم كشفه؛ بخصوص **مجلس** يدعى "**عهرو**" **(ع.هـ.ر.و)** باللهجة **القتبانية.** [2] كما أن **دار الندوة**؛ التي كانت موجودة في **مكة** توحي بوجود مثيل لها في قرى أخرى من بلاد العرب؛ وإن كانت تلك الدار عبارة عن نادي ـ كما يوحي اسمها ـ أكثر من كونها مجلس حكم أو مجلس للشورى. وحتى إن كانت كذلك؛ فإن هذا لا يكفي للحكم بوجود مجالس في القبائل العربية كافة؛ خاصة البدوية منها. وهذا لا يعني نكران وجودها بالتمام؛ إلى أن يظهر ما يثبت وجودها؛ بواسطة المزيد من البحث والتنقيب. أما **المجتمع الأمازيغي القروي** فقد ثبت أنه كان يتمتع **بمجالس قروية**؛ تمثل القبائل التابعة لها؛ منذ عهد **مسنيسا**. وكانت تلك المجالس ـ ومازالت إلى الآن ـ تدعى **الجماعة.** [3] أما القبائل البدوية الرحالة فتحتاج ـ هي الأخرى ـ إلى دليل يؤكد وجود مجالس ضمنها.

وما كان يجري في المجالس القبلية الأمازيغية بقي في طي الغموض والإبهام. ومع هذا فقد وصف **حمدان خوجة** بعض ما كان يجري ـ في أيامه ـ ضمن تلك المجالس القبلية؛ ذات الطابع العام بقوله: ((**تتألف هذه الجلسة من جميع رجال القبيلة: شباناً وشيوخاً. وأول من تعطى إليه الكلمة ـ هناك ـ الشيوخ المسنون؛ فيعرضون على الجلسة مشاريعهم، ويوضحون ما تحتويه من فوائد. وإذا لم تحظ هذه المشاريع بالموافقة، أو يوجد ـ هناك ـ أحد المضادين لهذه الفكرة؛ يصيح هذا المضاد ـ في وسط**

---

[1] ج: 5، ص: 238.
[2] نسبة إلى مملكة قديمة في اليمن الجنوبية تسمى قتبان؛ كانت قائمة في حدود 312 ق. م. أنظر التفاصيل عن هذه المملكة في المفصل، ج: 2، ص ص: 171 ـ 240. وتاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص ص: 125 ـ 128.
[3] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 81. وقبائل المغرب، ج: 1، ص: 281.

الجلسة ـ صيحة تسمى عندهم بـ"صيحة الإنذار". ونصّ لفظها ـ في لغتهم ـ هو "وياك" ثم ينطق ـ على إثر هذه الصيحة ـ ذلك المضاد بصوت مرتفع جداً فيقول: "انظروا إلى هذا الرجل الذي يريد إهانتنا والإطاحة بشرفنا، ويريد ان يجعلنا في صفوف الأنذال". وبمجرد التلفظ بهذه الكلمات؛ تسود المجلس البلبلة وتشتد حدة الاضطراب فيه، ثم لم يلبث أن يفترق ويتشتت)). [1] وبالتمعن في هذا النص؛ سيتبين لنا مدى الإنفعال الذي يتحكم في أعضاء مجلس الجماعة؛ وهذا كله يعود إلى ما تفرزه العصبية القبلية من توترات، وردود أفعال متسرعة وحمقاء.

وإذا ما تتبعنا الأمر ـ في العصر الروماني ببلاد المغرب ـ نجد أن المدن الواقعة تحت النفوذ الروماني تشكلت فيها **مجالس للبلديات**؛ تتكفل بتسيير الشئون الإدارية والضريبية على الخصوص. ولهذه البلديات أصناف أربعة:

ـ **أولاها المستعمرة الرومانية:** وهي التي يتمتع سكانها بحق المواطن من الدرجة الأولى؛ ويعتبرون مثل سكان مدينة روما بالضبط.

ـ وتأتي بعدهم مباشرة **البلديات الرومانية:** وتختلف عن الأولى بأن سكانها يخضعون للضرائب؛ على خلاف المستعمرة الرومانية.

ـ أما **الصنف الثالث فهو البلدية اللاتينية:** التي تختلف عن الصنفين الأولين بكون سكانها لا يتمتعون بحقوق المواطن في المستعمرة الرومانية، ولا حتى حقوق أصحاب البلدية الرومانية؛ إذ تكون حقوقهم منقوصة عن الصنفين المذكورين.

[1] المرآة، ص: 31.

ـ وبقي الآن **الصنف الرابع** ؛ وهو المهم لدينا ؛ لأنه يتعلق بأبناء هذه الديار الأصليين. وقد سميت بلدياتهم **بالبلديات الأجنبية** : واعتبر سكان هذه البلديات **في المرتبة الرابعة** من صنف المواطنين وفيها يقول ش. أ. جوليان : ((**وكانت البلديات الأجنبية آهلة بالأجانب، وهم رعايا يكاد يكون غالبهم بربراً بدواً كانوا أو حضراً. لم يخضعوا كلم لنظام واحد. فكانت روما تقتصر تارة على تزكية قواد البربر الوارثين بخلخ الحلة الحمراء عليهم، وتسليمهم عصا العاج، وتعيينهم ولاة وأمراء** *Praefecti, principer* ؛ **وربما اتخذوا في بعض الأحيان لأنفسهم لقب الملك** *reguli*، **وتحتفظ طوراً ببعض النظم القرطاجية، وعلى الأقل بلقب الشافط** [*Suffète*]، **وطوراً آخر تُكَوِّن مجلساً أهلياً ؛ يكون نواة لمجلس بلدي لاطيني أو روماني**)). [1]

أما بلاد المغرب في العهد الإسلامي فقد عرفت مصطلح **الشورى**، أو تركوا ذلك لبعض **العلماء** الذين يستشيرهم الحكام في حالات معينة ؛ ولكن يحدث ذلك بشكل اختياري وغير منتظم. وبهذا تكون **مرتبة الملك متفردة، وطاغية** على الأمر كله، ومهيمنة على شئون الدولة ؛ إلاَّ في الحالات التي يشعر فيها بالعجز ؛ عندها يطلب رأي بعض العلماء والمختصين ؛ على أن تكون الكلمة الأخيرة له ؛ فله حق القبول أو الرفض. ويتم هذا على مستوى القبيلة أيضاً ؛ حيث تتركز السلطة ـ غالباً ـ في يد شيخ القبيلة. وأهم ما يمكن ذكره هنا هو التنظيم القبلي الذي

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 202.

ايتكره **ابن تومرت** واعتمده الموحدون كنظام حكم. وهو يتألف من **أربع عشرة طبقة**: [1]

ـ **الطبقة الأولى**: أصحاب المهدي العشرة؛ ويعرفون باسم أهل الجماعة. ويعتبر هؤلاء بمثابة الوزراء.

ـ **الطبقة الثانية**: وهم أهل الخمسين. ويتألف منهم مجلس يمكن اعتباره مجلساً كمجلس الشيوخ في هذه الأيام؛ أي الغرفة العليا في البرلمان.

ـ **الطبقة الثالثة**: وهم أهل السبعين. ويمكن اعتبارهم بمثابة الغرفة السفلى للبرلمان في الوقت الحالي.

ـ **الطبقة الرابعة**: وهم الطلبة؛ أي علماء الموحدين.

ـ **الطبقة الخامسة**: وهم الحفاظ؛ أي الطلبة.

ـ **الطبقة السادسة**: وهم أهل الدار؛ أي أعضاء بيت المهدي وعترته.

ـ **الطبقة السابعة**: قبيلة هرغة؛ وهي قبيلة المهدي.

ـ **الطبقة الثامنة**: أهل تينمل؛ وهم عبارة عن أحياء مختلفة من قبيلة مصمودة يسكنون في تنمل.

ـ **الطبقة التاسعة**: قبيلة كدميوة.

ـ **الطبقة العاشرة**: قبيلة كنفيسة.

ـ **الطبقة الحادية عشرة**: قبيلة هنتاتة.

[1] أنظر نظم الجمان، ورقة: 33 أ. وكتاب الدولة الموحدية بالمغرب، ص ص: 257 ـ 259.

ـ **الطبقة الثانية عشرة**: قبائل عديدة ـ من غير مصمودة ـ ناصرت المهدي.

ـ **الطبقة الثالثة عشرة**: وهم الجند؛ أي المتطوعون المناصرون للمهدي؛ ويتنتمون إلى قبائل مختلفة.

ـ **الطبقة الرابعة عشرة**: وهم الغزاة؛ أي الموالي.

&&&

ولما تمكن **عبد المؤمن بن علي** من إمساك الأمر؛ أخذ يُشَيِّدُ دولته على أسس جديدة؛ إذ اختزل الطبقات الأربعة عشرة في **ثلاث فئات فقط**؛ دون اعتبار **للقبلية**. وبذلك أخذ في تعزيز مكانة الدولة على حساب القبيلة. وتلك الفئات هي:

ـ **الفئة الأولى**: وتشمل الباقين على قيد الحياة من أصحاب المهدي العشرة، ومن بقي من أهل الخمسين والسبعين من الذين سبقوا غيرهم في مبايعة المهدي؛ دون أي اعتبار للانتماء القبلي.

ـ **الفئة الثانية**: وتشمل الموحدين المنخرطين في الدعوة؛ بعد موقعة البحيرة سنة 524 هـ الموافق لـ 1129 م إلى معركة وهران سنة 539 هـ الموافق لـ 1144 م؛ دون التقيد بأي قبيلة كانت.

ـ **الفئة الثالثة**: وتشمل الذين انضموا للموحدين؛ بعد موقعة وهران؛ دون النظر للانتماء القبلي.

&&&

وفي عصر ما بعد الموحدين ضعفت الدولة؛ وعادت القبلية إلى عنفوانها؛ فهيمنت على المجتمعات المغربية بكاملها. وفي فترة معينة من فترات ما بعد الموحدين أشار **الحسن الوزان** إلى مجالس كانت تحكم بعض القرى والمدن في نواحي **هسكورة** كما ذكر أن **مدينة تفزة** حاضرة تادلا؛

كانت تحكم حكماً شبيهاً بالجمهرية.[1] وفي **وهران** كـان السكـان ينتخبـون رئيساً لمجلس يتولى القضايا المدنيـة والجنائيـة.[2] وفي **مدينـة ترودانـت** ببـلاد السـوس ؛ يتـولى الحكـم فيهـا الأعيـان ؛ إذ ينتصب في سدة الحكم بها أربعـة مـن أولئك الأعيان مجتمعين لمـدة لا تتجـاوز الستـة أشهـر.[3] وهـذا التقليـد يذكرنا بنظام الحكـم في **رومـا** ؛ حينمـا تعدد القناصل بها.

أضف إلى هذا ؛ الإشارة التي ذكرهـا حمدان خوجـة ؛ حينمـا تكلـم عـن الرئاسة ضمـن القبائل المتواجدة في السهـول الجزائريـة ؛ حيـث قـال أن تلك القبائل تسكـن في **خيام** منسوجـة بوبـر الجمـال ؛ وتتجمـع خيامهـم في مجموعـات ؛ تعـرف كـل مجموعـة منهـا باسـم "**دوار**" ؛ ويـرأس "**دواويـر**" عديدة رئيس يعينه "**البـاي**" أو "**أغـا**" الناحية. وعندما تكلـم حمدان خوجـة عـن سكـان المناطق الصحراوية الخاضعة للحكـم العثماني بالجزائـر ؛ قـال :

((وهـذا الشعب عربي النجـار ؛ كمـا قلنـا سابقـاً ؛ يحكمـه ـ عـن طريـق الوراثة ـ رؤسـاء ... وتحت سلطة كـل رئيس زهـاء عشرة آلاف خيمة متنقلة هنا وهنـاك... ومـن اختصاصـات "بـاي" قسنطينـة البـتّ في تعييـن شيـوخ الصحـراء بولايتـه ؛ وعندمـا ينجـز توليتهـم، ويتـم إسنـاد مهـام الحكـم إليهـم ؛ يلبس كـل واحد منهـم قفطانـاً مذهبـاً. ثـم يجعـل تحت تصرف كـل شيـخ عشريـن خيمـة ؛ تضـم جنـود الأتـراك ؛ كمـا يجعـل تحت تصرفه ـ أيضـاً ـ عـدة رايـات وجوقـة موسيقيـة عسكريـة. وهـذا الشيـخ يعتبـر بيـن سكـان الصحراء بمثابة الملك)).[4] وقـد وصـف عثمـان خوجـة مضـارب شيـخ مـن شيـوخ العـرب ؛ وهـو الشيـخ **ابـن قانـة** ـ خـال أحمـد بـاي ـ فذكـر أن مضاربـه تتكـون مـن عشـرة آلاف خيمـة ضخمـة ومرتفعـة ؛ ذات بهـاء ورونـق،

---

[1] وصـف إفريقيـا، ج: 1، ص: 169. 177.
[2] نفسـه، ج: 2، ص: 30.
[3] نفسه، ج: 1، ص: 118.
[4] المـرآة، ص ص: 52 ـ 53.

ومتميزة بالأبهة والفخامة. ويقول أن **بن قانة** في متناول يده عشرة آلاف فارس على أقل تقدير؛ إذ يمكنه ـ في الحالات العادية ـ أن يضمن من كل خيمة فارساً واحدا. وقد يزداد عددهم عند الحاجة؛ خاصة وأن أهل تلك الجهة يملكون أعداداً كبيرة من الخيل؛ غالباً ما تكون مربوطة على أبواب خيامهم. ويتواجد في تلك النواحي ـ أيضاً ـ عدد آخر من الشيوخ؛ بخيامهم وبدواويرهم وفرسانهم.[1]

والذي لا شك في وجوده ـ بعد كل هذا؛ ضمن النظم القبلية العربية والأمازيغية ـ هو منصب الرئيس؛ أي **الشيخ** عند العرب، **والأمغار** عند الأمازيغ. ذلك لأن المصادر التاريخية والأدبية كافة؛ تتفق على تواجد هذه المرتبة؛ ضمن القبائل العربية والأمازيغية؛ منذ أقدم العصور. بل أسهبت المصادر العربية في وصف مزايا صاحب هذا المنصب، وشرح الصفات التي من الواجب أن يتحلى بها الرؤساء، وتمجيد أعمالهم والتغني بمناقبهم.

وحتى إذا صمتت المصادر المختلفة ـ نوعاً ما ـ عن الحديث بإسهاب في مناقب **الأمغار الأمازيغي**، ومزاياه، وأعماله الاجتماعية، والدينية، والحربية؛ فلا يعني ذلك انعدام تلك الأشياء والصفات فيه. ومع هذا فقد وردت بعض الأقوال ـ هنا وهناك ـ تشير إلى عدد من شيوخ القبائل الأمازيغية؛ ومن خلالها يمكن استخلاص صفاتهم ومناقبهم، وأعمالهم، وما يتميزون به من سلطات. من ذلك؛ ما قاله الحسن الوزان عن شيخ من شيوخ قبيلة صنهاجة؛ الذي لقبه **مجازاً** **بأمير**؛ وهو الذي اعترض طريق قافلتهم؛ لأخذ ضريبة المرور في أراضي القبيلة؛ ولكنه صرف ـ في ضيافتهم أضعاف الذي أخذه منهم. ويقول الوزان أنه

---

[1] المرآة، ص: 59.

حضـر إلى مجلسهـم مرفوقـاً **ببعـض النبـلاء والأشـراف** مـن أقاربـه، كمـا أجلس معه بعض **العلماء والأدباء**.

ومن خلال هذه الصورة الخاطفة؛ يمكننا تخيل الهيئة التي يمكن أن تكون عليها **مجالس الحكم** في القبيلة الأمازيغية الصحراوية. خاصة وأن الوزان يصرح ـ بكل وضوح ـ أنما شاهده في هذه القبيلة؛ لا يختلف عما هو معمول به في بقية القبائل الصحراوية النوميدية.[1] **إذن؛** فمجالسهم ـ هنا ـ شبيهة بمجالس القبائل البدوية العربية؛ تلك المجالس التي تتصف بالعشوائية، والاختيارية غير الملزمة. كما أنها أقرب إلى مجالس السمر؛ من كونها مجالس للحكم. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بأنها قد تصبح مجالس للشورى، التي تعقد بدون ضبط أو انتظام.

وعليه؛ يمكن اعتبار أن مرتبة **شيخ القبيلة** هي التي تطغى، وتهيمن على شئون الحكم في القبائل العربية والأمازيغية. أما المجالس الشبيهة بما عرف في **بلاد الإغريق وعند الرومان**؛ فيبقى أمرها ـ ضمن القبائل العربية والأمازيغية ـ في طي الغموض؛ حتى يظهر ما يجلي تلك العتمة. وربما كان هذا **التراث القاصر**؛ هو الذي كبل حركة المجتمعات: العربية والأمازيغية؛ وحَدَّ من بعث الأساليب الديمقراطية فيها. كما يمكن أن يكون هذا **التراث المنكمش**؛ مبرراً ملتوياً للحكم الفردي السائد في ديار العرب، وبلاد المغرب إلى اليوم.

وجملة القول؛ هي أننا لا نملك ـ حتى الآن ـ ما يسد حاجتنا؛ بخصوص معرفة الشكل الحقيقي للنظام القبلي في بلاد المغرب. ومع هذا؛ يمكن مقاربة ذلك بما وصل إلينا من أخبار عن النظم القبلية العربية؛ التي تبرز أدوار شيوخ القبائل؛ بشكل خاص؛ لأن التشابه كبير بين

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 60 ـ 61.

النظامين؛ من جهة، ولأن النظم القبلية الإنسانية متقاربة ـ في بعض الجوانب ـ تقريباً من جهة أخرى.. فكل قبائل الأرض المنظمة؛ لها رئيس يدير شئونها؛ وكل رئيس منهم؛ لا بد من توافر جملة من الصفات الخلقية فيه، وتحليه ببعض المزايا المادية، والقدرات العقلية والجسدية..

وفي حال التسليم بوجود مجالس للحكم في كل قبيلة، وعشيرة من القبائل والعشائر العربية والأمازيغية؛ يكون من الثابت ـ أيضاً ـ اختصاص رئيس القبيلة بشئون الحكم الحقيقي ضمنها؛ معتمداً على رأي المجلس المحتمل؛ الذي يتألف ـ على ما يبدو ـ من وجوه القبيلة وأعيان أحيائها وعشائرها. وربما انحصرت صلاحيات مجلس القبيلة في القضايا الهامة؛ مثل: **إعلان الحرب، أو اللجؤ إلى السلم، أو التشاور فيما يجب عمله عند إصابة المراعي بالجدب، وتعرض منابع المياه للجفاف**...الخ. وقد وضعت بعض الشروط الاجتماعية والخلقية في رئيس القبيلة؛ وذلك بأن يكون من أسرة ذات حسب ونسب، [1] وأن يكون من فئة السادة والأعيان، وأن يتحلى بسجايا سمحة، وخصال حميدة، وخلال طيبة، وشيم كريمة. [2]

وقد لخص بعضهم الشروط الخلقية؛ الواجب توافرها في رئيس القبيلة؛ ضمن ست خصال هي: ((**السخاء، والنجدة والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان**)). [3] وأضاف آخرون صفاتاً مرتبطة بالمهام التي

---

[1] يقول ابن خلدون في هذا: ((وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال؛ ومعنى البيت أن يَعُدَّ في آبائه أشرافاً مذكورين؛ تكون له بولادتهم في أهل جلدته؛ لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم. والناس في نشأتهم وتتاسلهم معادن؛ قال e : "الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا")). المقدمة، ج: 2، ص: 601.

[2] قال ابن خلدون: ((إذ الخير هو المناسب للسياسة. وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينبني عليه، وتتحقق به حقيقته؛ وهو العصبية والعشير، وفرع يتمم وجوده ويكمله؛ وهو الخلال...فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدْرة، وأونِسَت منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه؛ فقد تهيأ للخلافة في العباد، وكفالة الخلق، ووجدت فيه الصلاحية لذلك)). المقدمة، ج:2، ص ص: 614 ـ 615.

[3] المفصل، ج: 4، ص: 350.

سيتحملها الرئيس ؛ ومنها : **سداد الرأي، ورجاحة العقل، والحلم، ووفرة المال مع السخاء والجود،** [1] **والشجاعة، والصبر على المكاره، والفصاحة.** وقد أجمل شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان ابن ثابت الصفات المطلوبة في الرئيس ضمن الأبيات التالية : [2]

وإنَّا لقوم ما نسوّد غادراً
ولا ناكلاً عند الحَمالة [3] زملا [4]

ولا مانعاً للمال في ما ينوبه
ولا عاجزاً في الحرب جبساً [5] مغفلا

نسود منَّا كل أشيب بارعٍ
أغر تراه بالجلال مكللا

ومع هذا فالرئاسة يمكن أن تأتي لبعضهم طائعة مستسلمة بالوراثة ؛ دون حاجة لكل تلك الصفات مجتمعة ؛ وهذا ما أشار إليه بشامة بن الغدير الذي قال : [6]

وجَدْت أبي فيهم وجَدِّي كِلَيْهِمَا
يُطاعُ ويُؤتَى أمره وهو محتَبي

---

[1] الثراء مع البخل رذيلة عندهم.وصاحب الثروة إن لم يكن جواداً ؛ لن يصل إلى سدة الرئاسة القبلية. وقد عبر عن هذا شاعر عربي بقوله:

إذا المَرْءُ أثرَى ثم قال لِقوْمِهِ أنا السَّيدُ المُفضَى إليهِ المُعَمَّمُ
ولم يُعْطِهمْ خَيْراً أبَوْا أنْ يَسُودَهُم وهانَ عليهِمْ رَغمُهُ وهو أظلمُ

عيون الأخبار، ج: 1، ص: 248. الحيوان، ج: 3، ص: 83.

[2] العصبية القبلية، ص: 78.

[3] عند الحمالة؛ أي عند التكليف. الصحاح، ج:1، ص: 301.

[4] الزمل: الضعيف الجبان. الصحاح، ج: 1، ص: 544.

[5] الجبس: الجبان. الصحاح، ج: 1، ص: 169.

[6] الحيوان، ج: 2، ص: 96.

فلم أتعمَّل للسيادة فيهِمُ

ولكن أتَتْنِي طائِعاً غَيرَ مُتْعَبِ

وفي هذه الحال؛ لا بد لتحقيق الرئاسة من توافر شروط أخرى؛ يمكن إجمالها في العصبية الجياشة. وهي ضرورية لكل طامع في مرتبة السيادة؛ ضمن القبائل العربية والأمازيغية. وبالعصبية يمكن الوصول للرئاسة عن طريق الوراثة؛ [1] إلاّ أن شرط الوراثة هذا قد يجتمع في اثنين أو أكثر؛ وهنا يبرزعامل آخر؛ كشرط لتعزيز حق الوراثة؛ وهو ـ بالطبع ـ عامل **القوة والغلبة**؛ إلى جانب العصبية النافذة طبعاً. [2] وربما جاءت أبيات عامر بن الطفيل تعبيراً صادقاً عن هذا. [3]

إني وإن كنت ابن سيد عامر

وفارسها المندوب في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة

أبَى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتقي

أذاها وأرمي من رماها بمنكب

[1] ((والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد؛ تعَيَّن له الغلب بالعصبية... والرئاسة لا بد وأن تكون موروثة عن مستحقها)). المقدمة، ص: 599.

[2] ((والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها، وتتم الرئاسة لأهلها.)). المقدمة، ج: 1، ص: 598.

[3] ديوان عامر بن الطفيل، ص: 28. وعيون الأخبار، ج: 1، ص: 227.

وليست الرئاسة في القبيلة امتيازاً؛ يبعث على الدعة، والهناء، وراحة البال؛ بل هي مسؤلية ثقيلة؛ تلقى على عاتق القائم بها؛ كما قال حبيب الهذلي: [1]

وإن سيادة الأقوام فاعلم

لها صُعَدَاءُ مطلبها طويل

إذن؛ فعلى الرئيس أن يتحمل أعباء قبيلته؛ في حالات السلم والحرب؛ وعليه أن يحرص - بدأب وحزم - على وحدة القبيلة، وتعزيز روح الأخوة والألفة بين أعضائها، ويسعى - باستمرار - نحو تحقيق الرخاء الاقتصادي بينهم، وتوجيههم نحو ما يعود عليهم بالخير والفائدة؛ سواء عن طريق الغزو، أو بتتبع المراعي الخصبة؛ لمضاعفة قطعانهم والحفاظ عليها؛ كما عليه - إلى جانب ذلك كله - أن يسهر على أمن القبيلة، والدفاع عنها، وقيادتها في الحروب والغزوات؛ فخسارتها خسارة له بالدرجة الأولى؛ كما أن فوائدها تعود عليه بالخير الجزيل. ويتمتع رئيس القبيلة - في مقابل أعبائه ومهامه الثقيلة - بفوائد مادية معتبرة؛ [2] حيث اختص بحقوق يمكن تلخيصها في بيت واحد من الشعر؛ قاله عبد الله ابن عتمة الضبي؛ في رثاء بسطام بن قيس الشيباني. [3]

لك المرباع منها والصفايا

وحكمك والنشيطة والفضول

---

[1] عيون الأخبار، ج: 1، ص: 226.

[2] أنظر حقوق السادة والرؤساء في المفصل، ج: 5، ص ص: 264 ـ 267. وكتاب العصبية القبلية، ص ص: 76 ـ 79.

[3] الأصمعيات، ص: 28.

ـ **فالمرباع**: هو ربع الغنيمة ؛ تمنحه القبيلة لسيدها ورئيسها. ويبدو أن هذا الحق لا يطوله إلاّ الرئيس القوي، صاحب النفوذ والعصبية الغالبة ؛ حيث أضحى المرباع مبعث فخر واعتزاز، وعلامة على شرف مستحقها من الرؤساء، وسمو مرتبته.

ـ أما **الصفايا**: فهي ميزة أخرى ؛ يتميز بها الرؤساء والسادة البارزون ؛ وتتمثل فيما يصطفونه لأنفسهم من دون الناس ؛ سواء كان ذلك سلاحاً، أم فرساً، أم جارية. وفي هذا يقول الشاعر الأندلسي المنذر بن رضي السرقستي في قصيدة رفعها إلى أبي يعقوب يوسف الموحدي:

ويُؤثِرُون من النُّعْمَى بجلَّتِها
فيَسْتَوي فاضِلٌ فيها ومَفْضُول
لا يَطْمَعون سِوَى ما أنْضَجَتْ لَهُمُ
نارُ الوَغَى وصَفايَا الزَّادِ مَبْذُول

ـ والحق الثالث هو **النشيطة**: وهي ما يحصل عليه الغزاة في طريقهم، وقبل الوصول إلى هدفهم المقصود. فتكون النشيطة هذه من حظ سيد القبيلة ورئيسها المبجل.

ـ أما الحق الرابع فهو **الفضول**: بمعنى الباقي من الغنيمة ؛ الذي تعذر اقتسامه ؛ فيكون بذلك من نصيب الرئيس أيضاً.

ـ أما الحق الخامس فيتمثل في **الحكم**: وهو حكم الرئيس عندما يبارز أحد فرسانه فارساً من الأعداء فيقتله. عندئذ تعود الغنيمة إلى حكم الرئيس ؛ فإن شاء أعطاها للفارس المنتصر، وان شاء ضمها إلى جملة غنائم القبيلة، وإن شاء أخذها لنفسه.

وهذه الموارد المخصصة للسادة والرؤساء تساعدهم ـ بالطبع ـ على القيام بواجباتهم المادية ؛ تجاه أعضاء قبائلهم وضيوفهم ؛ نظراً لما يقتضيه العرف منهم ؛ كـ: **الجود والسخاء والبذل والعطاء** ؛ كما قال زيان بن سيار الفزاري: [1]

ولسنا كقوم محدثين سيادة

يرى ما لها ولا يحس فعالها

مساعيهم مقصورة في بيوتهم

ومسعاتنا ذبيان طراً عيالها

واذا اعتبرت هذه الحقوق بمثابة الموارد المادية التي يتزود منها رئيس القبيلة ؛ فإنها في ـ الحقبة ـ لا تكفي لتنمية ثروته، وتلبية مطالب قبيلته ؛ لذا فهو يعتمد على موارد أخرى أكثر فائدة، وأضمن عطاء كـ: **التجارة وتربية الأنعام، والهدايا، والإقطاعات.** وما تفرضه القبيلة من رسوم على القوافل المارة بأرضها..إلخ. [2]

وما ذكره الوزان في حكاية ذلك الرئيس لقبيلة صنهاجية الذي اعترض طريقهم في أعماق الصحراء ـ وبالتحديد في **سهل أرون** ـ وهو على رأس خمسمائة رجل ؛ ممتطين الجمال. لدليل كافي على كرمه وجوده وطيب خصاله. وحكايته أنه لما استلم الإتاوة من أصحاب القافلة التجارية ؛ وهي عبارة عن قطعة من القماش على كل حمولة جمل ؛ أصر على استضافة كل من كان في القافلة ؛ مدة ثلاثة أيام في خيامه التي تبعد زهاء الثلاثين ميلاً. وكان ذلك الرئيس في منتهى الجود والكرم،

---

[1] عيون الأخبار، ج: 1، ص: 248.

[2] تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ص: 34. وتاريخ العرب (مطول)، ج: 2، ص31. والمفصل، ج: 5، ص ص: 228 ت 229. 261 ـ 263.

وطيب المعشر. ثم قال الوزان: ((**ولا أخفي أن الأنعام التي أمر بذبحها لإطعامنا تساوي عشرة أضعاف ما قدمناه له من حق المرور**)). [1] كما أشار في موضع آخر إلى أحد الرؤساء في **تقوداست** بنواحي **هسكورة**. حيث ذكر أن ذلك الرئيس يتصف بالشجاعة والمروءة والكرم؛ إذ تمكن في شبابه من قتل أربعة من رؤساء العصبيات الذين لا يكفون عن إشعال الفتن بين الناس واضطهاد السكان. ولما سيطر على الأمر في تلك الجهة؛ شرع في أعمال الخير والإحسان للناس والحرص على سيادة العدل بينهم؛ الأمر الذي سهل عليه جمع شمل الفئات المتفرقة. وقد استضاف هذا الرئيس **الوزان** وثمانية من الفرسان المرافقين له مدة ثلاث ليال؛ فأكرمهم أحسن إكرام. وقال أنه عاملهم هكذا طبقاً لما ورثه عن أجداده من عادات تقتضي إيواء الذين يمرون ببلاده؛ وعليه فهو إن أكرمهم فلا يهم إن كانوا معروفين لديه أم غير معروفين؛ وكل ذلك لوجه الله، وطبقاً للتقاليد النبيلة ثم قال لهم: ((**إن الله الذي يعطي كل شيء قدر له أن يحصد في تلك السنة نفسها نحو سبعة آلاف مد من القمح والشعير؛ بحيث أن عدد الناس الذين يعولهم أقل بكثير مما لديه من المؤن الضرورية لهم. وله أيضاً أكثر من مائة ألف رأس من الغنم الماعز لا يأخذ من نتاجها سوى الصوف والشعر؛ لأنه يترك اللبن والجبن للرعاة الذين يعطونه مع ذلك شيئاً من السمن... وقد ودعنا ذلك الشيخ الكريم، وظللنا نلهج بشكره ومدحه**)). [2]

[1] وصف إفريقا، ج: 1، ص ص: 60 ـ 61.
[2] نفسه، ص: 168.

كما ذكر الوزان أيضاً حكاية رئيس آخر في جبل **آيت واوزقيت**؛ حيث قال أنه يرأس شيوخاً آخرين؛ يأخذ منهم الجبايات ليصرفها في الحروب القائمة بينهم وبين سكان جبل تنزيتة. وعندما زاره الوزان أكرمه غاية الإكرام؛ وقال فيه: **((رجلاً في غاية الكرم... لم يكن له نظير في اللطف؛ إذ يعطي كل ما يملك، وينشرح لاستماع اللغة العربية الفصحى ـ ولو أنه لا يفهمها ـ ويستخفه الطرب عندما ينشده الشعراء ما نظموه في مدحه... وأرسل في طلبي للإلتحاق بقصره، فتقدمت إليه وقبلت يده مرة أخرى، ثم أطريته كثيراً وقدمت إليه الهدايا التي سر بها غاية السرور على ما ظهر لي... جلس الرئيس لتناول الطعام وأجلسني على مقربة منه. وكان هذا الطعام متركباً من لحم الغنم شواء وطبيخاً ملفوفاً في مرققات من العجين المتناهي في الدقة تشبه شريطيات "لازانيا" قليلاً إلا أنها أمتن منها وعجينها أغلظ. ثم أحضروا الكسكسو والفتات وألواناً أخرى من الأطعمة لم أعد أتذكرها الآن. ولما انتهينا من الأكل... أخذت أنشد قصيدتي. والرئيس أثناء ذلك يطلب تارة أن يُشرح له ما ند عن فهمه، وينظر أخرى إلي... وفي صباح الغد الباكر استدعاني لتناول الفطور معه. وبعد الأكل أعطاني مائة مثقال أقدمها لعمي وغلامين يخدمانه أثناء سفره، وأهدى إلي شخصياً خمسين مثقالاً وفرساً، وأعطى كلاً من الرجلين اللذين يرافقاني عشرة مثاقيل... وقد أبيت إلاّ أن أروي هذه القصة لأبرهن لكم على أنه يوجد بإفريقيا كذلك نبلاء ورؤساء في غاية اللطف مثل رئيس هذا الجبل)).** [1]

[1] وصف إفريقا، ج: 1، ص ص: 170 ـ 173.

وثمة عينات كثيرة ذكرها الوزان عن رؤساء القبائل في بلاد المغرب كلها؛ منها: ما أشار إليه عن أهل **مسلاتة** القريبة من **طرابلس**؛ حيث ذكر أنهم يختارون رئيساً منهم يتكفل بشئون السلم والحرب أمام الأعراب المحيطين بهم. وفي **درعة** أين يتواجد **بنو صبيح** المقسمين إلى قسمين متعاديين؛ ويرأس كل قسم منهما رئيس يسهر على مصالح فرقته في توزيع مياه الري وغيره. ولا تقتصر هذه الظاهرة على **بني صبيح** فحسب بل أن سكان **درعة** كلهم يخضعون لعدد من الرؤساء؛ شغلهم الشاغل إشعال نار الفتن والقتال مع غيرهم؛ مستعينين في ذلك بالأعراب المحيطين بتلك المنطقة؛ مقابل مبالغ كبيرة من المال. وكذلك الحال في **سجلماسة** حيث يرأس كل قصر من قصورها شيخ؛ لا هم له سوى إدارة الحروب بين سكان قصره وأعدائهم من بقية القصور؛ مستعينين حميعهم بالأعراب المحيطين بهم؛ مقابل ما يقدمونه لهم من رسوم وإتاوات. وكذا الحال في **مضغرة** التي يرأسهم فيها أمير عربي الأصل؛ مدعوماً بأفخاذ من قبيلته **المنابهة**؛ منهم من يسكن القصور، ومنهم من اختار العيش تحت الخيام في بادية المنطقة. [1]

أما **توقرت وورقلة وفزان والواحات** القريبة من مصر فإن الرئيس في كل منها يسمو في مرتبته إلى حدود الإمارة. ففي توقرت مثلاً يرأسها أمير استطاع أن يجبي منها مائة ألف مثقال؛ فاستعمل حرساً من الفرسان، والرماة بالقذائف والبنادق من الأتراك: ((**يعطيهم أجراً مناسباً حتى يبقى كل واحد منهم في خدمته عن طيب خاطر. وهو شاب شهم كريم اسمه عبد الله؛ اتصلت به فوجدته في تمام الظرف ولين العريكة؛ كثير الانشراح عطوفاً على الغرباء**)). [2] أما بقية الجهات المذكورة فيرأسها

[1] وصف إفريقا، ج: 2، ص ص: 111. 119. 120. 123. 126.

[2] نفسه، ص: 136.

أشخاص يتشبهون بالملوك ؛ ويفرضون الضرائب على السكان ؛ ولكنهم ـ في المقابل ـ مجبرون على تقديم إتاوات ومغارم إلى الأعراب المتغلبين على مناطقهم.[1]

ويبدو أن الرئاسة في القبائل المغربية لا تختلف كثيراً ؛ عما كانت عليه القبائل العربية في المشرق. وهذا الموضوع ـ مع الأسف ـ مازال غامضاً ويحتاج لمزيد من البحث. خاصة بالنسبة للقبائل الأمازيغية في العصر القديم ؛ ويعود سبب ذلك الغموض ؛ لانعدام المادة المكتوبة بصورة خاصة ؛ لأن أجدادنا القدماء لم يهتموا بكتابة تاريخهم ، وآدابهم ؛ مثل ما كتبه عرب صدر الإسلام عن عرب الجاهلية. وحتى إن كتب بعضهم باللغة اللاتينية أو اليونانية ؛ فما كتبوه ليس له علاقة بشعبهم ، ولا بآداب أمتهم ، أو تاريخ وطنهم ، أو فنون أبناء جلدتهم. على أنه يمكن استثناء ما كتبه **يوبا الثاني** في كتابه **ليبيكا** ؛ ولكن ما قيل عن ذلك الكتاب بقي في علم الغيب ؛ ولم يظهر له أثر..

وكل ما يمكن قوله في هذا المجال ؛ هو أن كل قبيلة من القبائل المغربية الريفية ـ على اختلاف مشاربها ـ تخضع لسيد يرأسها ؛ قد يسمونه **أمغاراً**[2] ، أو **شيخاً**. ويستعين ذلك الشيخ **بمجلس للشورى** ؛ يتألف من أعيان القبيلة. ويسمى هذا المجلس "**الجماعة**".[3] والطريقة التي يعين بواسطتها رئيس القبيلة أو أعضاء "**الجماعة**" غير معروفة بالضبط إلى الآن ؛ حتى وإن قال بعضهم ـ دون سند ـ أنهم كانوا يعينون بواسطة

---

[1] وصف إفريقا، ج: 2، ص ص: 137. 147. 156.

[2] بمعنى الكبير. وهذه العبارة تطلق على شيوخ القبائل الأمازيغية، وعلى ملوكهم. وتوحي هذه الكلمة ـ من معناها ـ أنه يشترط فيمن يتولاها؛ أن يكون أكبر السادة سناً .

[3] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، 81. وقبائل المغرب، ج: 1، ص: 281. والقبائل العربية في المغرب، ص: 259.

الانتخاب.[1] ومع هذا فبعض الشواهد التاريخية تثبت غير هذا ؛ خاصة عندما يتدخل سلطان الدولة ـ أحياناً ـ في تعيين سادة القبائل.[2]

وجملة القول ؛ فإنه يشترط في المترشح للرئاسة أن يكون من أعيان القبيلة ، ومن أسرة ذات يسار وثروة ، وذات حسب وعصبية جامحة. هذا بالإضافة إلى السجايا الحميدة الواجب توافرها في المترشح. أما سلطات رئيس القبيلة فهي طوعية ، وليست قهرية ؛ وذلك تبعاً للأعراف القبلية ؛ التي تميل نوعاً ما للديمقراطية ، وحب الحرية ؛ حتى وإن كانت أحياناً ديمقراطية بدون ضوابط. وقد يحدث ـ في بعض الحالات ـ أن تقوم القبيلة بعزل رئيسها أو قتله.[3] كما يحدث ـ أيضاً ـ أن يؤدب سلطان الدولة ذلك الرئيس أو يقتله. وثمة بعض القبائل تعطي سلطات واسعة لشيخها ؛ وقد أشار إلى ذلك الحسن الوزان ؛ حين تكلم عن القبائل النوميدية المتوغلة في الصحراء ؛ حيث قال : ((**ورغم ما قلناه من أن هؤلاء القوم لا يخضعون لأي قانون، ولا شرع ؛ فإن لهم جميعاً أميراً شبه ملك ؛ يعظمونه ، ويخضعون له تمام الخضوع**)).[4]

ويحكم رئيس القبيلة جماعته ؛ تبعاً لما تمليه عليه الأعراف القبلية. وقد يتخذ الرئيس أعواناً لمساعدته في بعض المهام ؛ كمراقبة أراضي الإقطاع وجبايتها. ويسمى صاحب هذا المنصب "**الوكيل**". كما كان لرئيس القبيلة ـ أحياناً ـ **كاتباً** لمراسلاته.[5] وربما تطلع بعض رؤساء القبائل

---

[1] قبائل المغرب، ج: 1، ص: 281. والقبائل العربية في المغرب، ص259.

[2] العبر، مج: 6، ص ص: 61. 99. 100. 109. 150. 151. 545. والقبائل العربية في المغرب، ص ص: 113. 259.

[3] العبر، مج: 6، ص ص: 101. 108. 157.

[4] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 59.

[5] القبائل العربية في المغرب، ص: 260.

إلى تعيين **وزير** لهم ؛ [1] من بين أعضاء القبيلة ، أو من الأجانب عنها. ويحدث هذا ـ على الأرجح ـ ضمن القبائل القروية ، أو المتمركزة في المدن.

ومع هذا ؛ فثمة بعض الفئات ـ في بلاد المغرب ـ من لا رئيس لهم يرجعون إليه عند الحاجة ؛ أو يستعينون به لتنظم حياتهم. فهذه بعض الأحياء من قبيلة كرفة الهلالية تعيش ـ كما يقول الوزان ـ بدون رئيس يسهر على النظام في أوساطهم : ((**وتوجد كرفة في مواطن مختلفة بدون رؤساء ؛ ويختلطون مع المنابهة والعمارنة**)). [2] وفي بلاد جزولة بالمغرب الأقصى يعيش سكانها بواسطة رعي المواشي التي يملكون منها أعداداً معتبرة ؛ بالإضافة إلى اكتسابهم لكميات كبيرة من الشعير. ولا يتواجد سوى بعض القرى : ((**وسكان هذا الإقليم لا سلطان لهم ؛ فيحكمون أنفسهم بأنفسهم ؛ حتى أنهم كانوا منقسمين ومتحاربين في غالب الأحيان ؛ ولا تطول هدنتهم أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع. وفي خلال أيام الهدنة يمكن للخصوم أن يتجروا فيما بينهم ، وأن يتنقلوا من جهة إلى أخرى. ولكنهم في غير هذه الأيام يقتتلون كالوحوش**)). [3] ولا يقتصر هذا الأمر على سكان نواحي جزولة فحسب ؛ بل ثمة عينات أخرى لقبائل مغربية لا رئيس لها ؛ مثل سكان جبل "**سْكِيمْ**" ، وقبائل جبل "**داداس**". [4]



[1] رحلة التجاني، ص: 101. والعبر، مج: 6، ص ص: 154. 546. 792. وصبح الأعشى، ج: 1، ص: 345.
[2] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 52.
[3] نفسه، ص ص: 144 ـ 145.
[4] نفسه، ص ص: 186. 189.

عادات وتقاليد قبلية

تدخل **العادات والتقاليد** في الأبحاث التي تعالج موضوع الثقافة ؛ لأن التقاليد والعادات ـ في الحقيقة ـ معارف تلقن بالممارسة والتطبيق العملي ؛ فهي نتاج تربية طويلة النفس. والذي يهم ـ هنا ـ هي **تلك المظاهر الاجتماعية والثقافية التي تُعَرِّف ببعض العادات القبلية** في بلاد المغرب. وبما أن الحديث عن العادات والتقليد يتطلب مجالاً واسعاً ؛ فإن موضوعنا هذا لا يسمح بالتوسع كثيراً ؛ لذا فإنه من اللازم ـ في هذه الحال ـ تحديد المحاور ضمن عادات: **الطعام، واللباس، والزينة، والمسكن، والأثاث، والأفراح والولائم، والطقوس الدينية والجنائز، والخرافة والشعوذة، وكرم الضيافة.**

1 ـ نوعية الطعام:

يتميز الطعام في الأوساط القبلية ـ ريفية كانت أم صحراوية ؛ منذ العصور القديمة جداً ـ بالبساطة التامة.[1] على أن القبائل الصحراوية أكثر بساطة في مأكلها. وهذا يخالف ما كان عليه أهل المدن والأمصار ببلاد المغرب.[2] حيث الحضارة والبذخ اللذان تتولد عنهما فنون الطبخ، وأصناف الطعام. وعلى الرغم من بساطة طعام أهل الريف إلاّ أنه ـ مع ذلك ـ لذيذ الطعم ومفيد. أما طعام القبائل المتوغلة في أعماق الصحراء ؛ فلا يصح وصفه بطيب المذاق والجودة ؛ بسبب خشونته، وسوء إعداده.

---

[1] يقول ش. أ. جوليان عن المغاربة القدماء: ((إنهم كانوا قنوعين ونباتيين في غالب الأحيان. وقد كان الفلاحون يأكلون الكسكسي منذ ذلك العهد، ومربوا المواشي قليلاً ما كانوا يذبحون حيواناتهم بل يكتفون بلبن المعز؛ وكانوا يؤثرون الصيد والحلزون، والعسل. ولا يشربون إلاّ الماء)). تاريخ إفريقيا الشمالية،ج: 1، ص: 76.

[2] وصف إفريقية، ج: 1، ص ص: 234. 236. 252 ـ 253. وج: 2، ص ص: 75 ـ 76.

وقد تكون بعض أصناف الطعام الموجودة في الريف والصحراء ـ الآن ـ هي نفسها التي عرفتها الأوساط القبلية منذ حقبة بعيدة من الزمن. [1]

وعلى العموم؛ فطعام المغاربة القدماء يتميز بكونه نباتي في أكثر الحالات؛ إلاّ أنهم كانوا يأكلون اللحوم في أوقات معينة؛ وبالخصوص لحوم الحيوانات التي يصطادونها. أما حيواناتهم التي يرعونها؛ فنادراً ما يأكلونها؛ بل يكتفون بألبانها. وبالجملة فطعام أهل هذه الديار ـ أصبح مع مرور الزمن ـ يرتكز ـ أساساً ـ على **الحبوب المختلفة واللحوم، أو العُجُنِ** المطبوخة بكيفيات متنوعة، أو أطباق تشتمل على كمية من العُجُنِ؛ يضاف إليها قدر من **الخضار واللحم**. لذلك فإن جل أطعمتهم تكون **إما كسكساً، أم أشكالاً من الثريد**. وهذا باستثناء الأطعمة التي لا تتطلب إعداداً أو طبخاً مسبقاً كـ: **اللبن، والعسل، والزيوت (**زيت الزيتون وغيره**)، والتمر، والفواكه الطرية والجافة**...الخ.

وعليه يمكن إجمال المأكولات المغربية ـ في عصور سبقت العصر الحديث ـ في: **الكسكسي، والثريد، واللحوم المشوية والمسلوقة، والحلزون، والأسماك، وخبز الشعير والحنطة والدخن والذرة، وعسل النحل، والدبس (**أي عسل التمر**)، والسمن، والزبد، وزيت الزيتون، وزيوت أخرى، ومختلف الثمار والفواكه؛ كـ: التمر، والتين الطري والمجفف، والرمان والعنب والزبيب والإجاص، والسفرجل**...إلخ.

وشراب قدماء المغاربة ـ في الغالب ـ هو: **الماء الصافي؛ فضلاً عن الحليب، واللبن المُخَثَّر (**أي الرائب**)، واللبن الحامض** (الذي استخرجت

[1] تأكيداً على بساطة مأكولات المغاربة قديماً؛ راجع الخبر الذي جاء فيه: أن القائد الروماني شبيون الإيميلي؛ عندما زار الإغليد مسنيسا؛ وجده أمام خيمته يأكل قطعة من الخبز الناشف. أنظر مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص: 179.

منه زُبْدُهُ). وقد تضاف الخمور في بعض العصور القديمة. وربما شربته بعض الأحياء من قبائل المغرب في العصر الإسلامي. [1]

وقد عدد ش. أ. جوليان بعض المحاصيل الزراعية التي كان المغاربة القدماء ينتجونها فقال: ((**وإلى جانب القمح كان القوم يحصدون العلس** [أي الطعام عموماً] **والبيقة** [نبتة من فصيلة الطانيَّات تقدم كعلف للحيوانات]. **وكان يوجد أشجار مثمرة كشجر: التين والرمان واللوز والإجَّاص والسفرجل والليمون والجوز، ونباتات غذائية كالسلجم** [وهو اللفت]، **والفول والخرشوف والبطيخ والهليون البري** [نبات من فصيلة الزنبقيات، تؤكل سوقه مسلوقة]، **والثوم والبصل والكمء الإفريقي** [نوع من الفطر]، **والكمون. وكانت تزرع الخضر خاصة في ضواحي قرطاج**)). [2]

أضف إلى كل ذلك ما ورد في مواضع أخرى عن بعض الحبوب الغذائية كـ: **الشعير والذرة والدخن، والحمص والعدس**. كما أن غراسة **الكروم** كانت منتشرة بكثرة؛ حتى أن روما عملت على الحد من غراستها وتعوضها بزراعة القمح. [3] أما أشجار الزيتون فيظهر أنها كانت منتشرة في مناطق شاسعة من بلاد المغرب. غير أن المصادر القديمة لا تطري كثراً على زيت الزيتون المغربي؛ وتوصمه بالحموضة الزائدة والرائحة الكريهة: وها هو الشاعر اللاتيني **جوفينال** *Juvénal* [4] يقول:

((**ذلك أن الزيت الذي يوضع في صحونكم من صنف الزيوت التي جلبها أحفاد "مسبسا" في مراكب من قصب من ذوات الجؤجؤ الحاد. وبما أن بوكار** *Boccar* **يستعمل هذا الزيت فلا أحد في رومة يرضى**

---

[1] تكلم الإدريسي والحسن الوزان عن قبائل في المغرب الأقصى كانت تصنع الخمور وتشربها. أنظر مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 131. وكتاب وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 78. 307. 320. 325 ـ 326. 329 ـ 331 . 339. 346.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 207.

[3] نفسه، ص: 206.

[4] عاش بين سنتي: 60 ـ 130 أو 140 م.

بالاستحمام معه. وهذا الزيت يدفع حتى سموم الثعابين السود)). وقد وضح جوليان الأمر فأضاف: ((**ولا يذهب بك الظن إلى أن زيت إفريقية كان مستطاباً عند الأكل؛ لقد كانوا يقصرون استعماله على شئون التجميل والإنارة))**.[1]

أما الطعام المفضل لدى **قبائل صنهاجة وقبائل لمطة** المتواجدة بمنطقة **نول الأقصى** - على سبيل المثال - فيسمى "**آسلو**"؛ ويحضر هذا الطعام ببساطة متناهية؛ تبعاً لمقتضى البداوة التي هم عليها؛ حيث تقلى الحنطة على النار قليلاً، وتدق إلى أن تصبح جريشاً، ثم يمزج ذلك الدقيق بالسمن والعسل، ويعجن المزيج على النار، وبعدها يوضع ذلك الطبيخ في مَزَاوِدٍ؛ كعولة تؤكل عند الحاجة إليها مع اللبن.[2] ويكتفي سكان المناطق الجبلية - في معظم أوقات السنة - بأكل خبز الشعير فقط.

ويقول الوزان أن أهل المغرب في جهات **حاحا** يعدون نوعاً من خبز الشعير أشبه بالرغيف؛ ويحضر بدون خميرة؛ يقومون بإنضاجه على مقلات من الفخار شبيهة بغطاء القدر. ويقول أن هذا النوع من الخبز لا يطبخ في الفرن إلاّ نادراً.[3] وبهذا الوصف يتبين لنا أن هذه العادة في طبخ الخبز لم تنقطع؛ إذ بقيت إلى يومنا هذا. فالخبز الشبيه بالرغيف؛ الذي لا تخلط به الخميرة، ويطبخ في مقلات الفخار هو ما يعرف عندنا "**بالرخساس**" الذي يطبخ على ما يعرف **بالطاجين الفخاري**. وثمة طعام آخر خشن وبسيط؛ تأكله القبائل المتواجدة في أقاليم كثيرة من بلاد المغرب كلها. وقد وصفه الوزان عند مروره بإقليم **حاحا** بالمغرب

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 209.

[2] قال الأدريسي في هذا الطعام: ((يأتي طعاماً شهياً؛ وذلك أن الإنسان منهم إذا أخذ من هذا الطعام ملء كفه وأكله وشرب عليه اللبن ثم مشى بقية يومه ذلك؛ لم يشته طعاماً ما إلى الليل)). مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 126.

[3] أنظر وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 72. 96. 102. 106. 139. 140. 141. 328. 331. 333. وج: 2، ص ص: 43.

الأقصى. وهـذا الطعـام يسـمى "**عصيـدة**" ؛ ويتـم تحضيـر هـذه الأكلـة بـأن يغلي الماء ثـم يضاف إليه دقيق الشعيـر ؛ عـلى أن تتواصـل عمليـة تحريـك المزيـج ـ بقضيـب طـوال طبخـه عـلى النـار ـ حـتى ينضـج. وبعدهـا يوضـع الطعـام المطبـوخ في إنـاء خشـبي أو مـن الفخـار ؛ ثـم تحفـر العصيـدة في وسطها ، وتملأ بالزيت. والعصيـدة مـا زالـت معروفـة إلى الآن. وقـد يطبـخ دقيـق الشعيـر ـ في وقـت الربيـع والصيـف بصفـة خاصـة ـ داخـل اللبـن ، ويدهـن بالزُّبْدِ.

وقـد أشـار الحسـن الـوزان إلى الكيفيـة الـتي تعيش بهـا القبائـل البدويـة الـتي تنتجـع في الصحـراء النوميديـة بقولـه : ((**أمـا غذاؤهـم فـإنَّ مـن لـم يرهـم لا يصـدق مـدى صبرهـم عـلى الجـوع ؛ ليس مـن عادتهـم أن يأكلـوا الخبـز ، ولا أي طعـام مطبـوخ. يقتاتـون بلبـن نوقهـم. تعـودوا أن يشربـوا في الصبـاح مـلء إنـاء كبيـر مـن اللبـن الساخـن فـور مـا يحلـب ، وأن يتعشـوا في المسـاء بالقديـد المطبـوخ في اللبـن المدهـون بالسمـن ؛ فـإذا نضـج اللحـم ؛ تنـاول كـل واحـد نصيبـه بيـده وأكلـه ثـم شـرب المـرق مستعمـلاً يـده كالملعقـة ، وحسـا أخيـراً فنجانـاً مـن اللبـن وقـد تـم العشـاء. ومـا دام عندهـم اللبـن فـلا حاجـة لهـم بالمـاء ؛ لا سيمـا في الربيـع ؛ حيـث لا يغسـل بعضهـم أيديهـم ولا وجوههـم إطلاقـاً. وسبـب ذلـك أنهـم لا يقصـدون أثنـاء تلـك المـدة مواقـع المـاء ؛ لأن لديهـم اللبـن أولاً ، ولأن الإبـل عندمـا تـرعى العشـب لا تحتـاج إلى المـاء ثانيـاً**)). [1]

أمـا الطعـام الشائـع في بـلاد المغـرب كلهـا ـ بيـن البـدو والحضـر عـلى السـواء ـ فهـو **الكسكسـي** أو **الكسكسـو**. وقـد وصـف الحسـن الـوزان طريقـة إعـداد المغاربـة ـ في زمنـه ـ للكسكسـي ، والكيفيـة الـتي يأكلـون بهـا ذلـك

---

[1] وصـف إفريقيـا ج: 1، ص: 58.

الطبق ؛ فظهر أن تلك الطريقة لم تتغير إلى الآن [1] ونظراً للشهرة التي تمتع بها الكسكسي ؛ فقد سمي في بعض المناطق المغربة باسم "**الطعام**" ؛ من باب تسمية الكل بالجزء ؛ لكونه طعاماً أساسياً ، ومنتشراً بين طبقات المجتمع كله.

وإذا ما اتجهنا نحو قبائل المغرب الأدنى ـ أي إفريقية ـ سنجد أنهم يتناولون نوعين من الطعام ؛ يبدو أنهما يميلان إلى الرداءة. [2] يسمى الأول "**البسيس**" ؛ وهو عبارة عن دقيق من الشعير ؛ يمزج بالماء ؛ فيصبح خاثراً مثل الصمغ ؛ وبعدها يضاف إليه شيء من الزيت ، أو قليل من عصير الليمون أو البرتقال ، ثم يشرب المزيج نيئاً بدون مضغ. ويبدو أن **البسيس** هذا كان معروفاً قديماً عند سكان المغرب ؛ إذ ورد في أخبار الكاهنة ؛ أنها أطعمت **خالد ابن يزيد** وابنيها **بسيساً** من على ثدييها لكي تؤاخي بينهم : ((**فقالت له** [أي خالد] **يوماً : "ما رأيت في الرجال أجمل منك ، ولا أشجع ؛ وأنا أريد أن أرْضِعَك ؛ فتكون أخاً لِوَلَدَيَّ... نحن جماعة البربر لنا رَضَاعٌ ؛ إذا فعلناه نتوارثُ به". فعمدت إلى دقيق الشعير ؛ فلتَّته بزيت ، وجعلته على ثدييها ، ودعت ولديها ، وقالت : "كلا معه على ثدْيَيَّ" ؛ ففعلا ، فقالت : "قد صرتم إخوة"**)). [3] والبسيس هذا مازال موجوداً في بقاع كثيرة من بلاد المغرب كلها.

---

[1] ((لكنهم في الشتاء يأكلون اللحم المطبوخ مع طعام يسمى الكسكسو؛ يصنعونه من دقيق مبلل؛ يحول إلى حبيبات في حجم حبات الكزبرة؛ تنضج في قدر ذات ثقوب (كسكاس) تسمح بطلوع بخار من قدر أخرى، ثم يخلط هذا المتبخر ـ بعد نضجه ـ بالسمن، ويسقى بالمرق)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 253.

[2] لم يعجبا الحسن الوزان؛ إذ قال فيهما: ((يتناولون في النهار طعاماً خشناً من دقق الشعير... ويسمونه "البسيس، وهو كريه. وهناك سوق لا يباع فيه غير دقيق الشعير لصنع البسيس. ولهم طعام آخر ـ من هذا النوع ـ إلاّ أنه أجود منه... ويسمونه "البازين")). وصف إفريقا، ج: 2، ص: 76.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 37.

أما النوع الثاني من طعام أهل إفريقية فيسمى "**البازين**" ؛ وهو أفضل من "**البسيس**" بعض الشيء. ويتم تحضيره بأن يطبخ العجين في الماء حتى ينضج ؛ فيعجن داخل إناء خاص، ثم يجمع في وسطه، ويسقى بالزيت، أو بمرق اللحم. وحتى هذا يؤكل بالبلع دون مضغ. ويقول الوزان عن سكان **تونس** أنهم يصنعون خبزاً بدقيق السميد في غاية الجودة ؛ إذ يعالجونه بعناية تامة. أما في **سفاقص وتاجورة** ؛ فيأكلون خبز الشعير والبازين. وفي **درعة وسجلماسة وورقلة وفزان** ؛ لا يأكل الناس الحبوب إلاّ نادراً ؛ وفي الأعياد والولائم بالخصوص ؛ لأنها غير متوفرة بسهولة. إذ يتغذى الناس في بعضها بالتمر ولحم التيوس والأغنام المسنة، أو بلحم الجمال أحياناً، أو بالنعام الذي يصطادونه في أماكن معينة أو يقومون بتربيته. [1] ويقول الإدريسي أن جبل نفوسة ينتج شعيراً في غاية الجودة والطيب: ((**مما إذا خبز كان أطيب من سائر الطعام في سائر الأقاليم ؛ ولأهله في صنعة الخبز حذق وتمهر فاقوا به كل الناس**)). [2]

وجرت العادة ـ في بعض الجهات من بلاد المغرب ـ أن يأكل أبناء القبائل المختلفة بعض الحيوانات والحشرات التي يأباها ـ في الغالب ـ كثير من الناس الآن. من ذلك أن أهل **قسطيلية وقفصة وسجلماسة** كانوا يأكلون **الكلاب** [3] كما أن أكل **الجرذان** [4] **والضباب والسحالي** كان شائعاً في بقاع عديدة من الصحراء. ويبدو أن عادة أكل الكلاب استمدت من أوساط **فينيقية** ؛ لأنهم اشتهروا بين الأمم القديمة بأكل **لحم الكلاب**. [5] وفي جهات **مراكش والسوس** ومناطق صحراوية أخرى كانوا يأكلون

[1] وصف إفريقيا، ج: 2، ص ص: 75 ـ 76. 87. 111. 119. 120. 126. 136. 147.
[2] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 180.
[3] المغرب، ص ص: 49. 148.
[4] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 129.
[5] كان الفينيقيون ـ كغيرهم من الشعوب السامية ـ لا يأكلون لحم الخنزير؛ ولكنهم اشتهروا بحبهم لأكل الكلاب. أنظر مدنية المغرب العربي، ص: 165.

الجـراد.[1] وهـذه العـادة مازالـت متبعـة ـ حـتى يومنـا هـذا ـ في المناطـق الصحراوية. وفي هذه المناطق أيضاً كانوا وما زالوا يأكلون لحم **النعام**.[2]

وفي عمق الصحراء ـ حيث الملثمون ـ يكتفي السكان هناك بلحوم الحيوانات التي يصطادونها، أو **لحم الجزور ولبن النياق**. ويؤكل اللحم عندهم مشوياً، أو مطبوخاً ومتبلاً بتوابل السودان. أما الخبز فيعجن من **دقيق الذرة أو الدخن**؛ ويدفن في الرماد قبل أن تنطفئ جِذاه؛ أين ينضج الخبز. ومازالت هذه الطريقة في طبخ الخبز متبعة إلى اليوم في أعماق الصحراء؛ ويسمى هذا الخبز "**الملة**". كما أنهم يعدون الخبز للضيوف فقط؛ ولا يأكلون منه أمامهم أبداً؛ ويسوغون ذلك التصرف بكونهم لا يأكلون إلاّ من نتاج وطنهم. ولكن يبدو أن الحقيقة تكمن في غلاء ثمن الدقيق ـ في تلك الديار ـ لذا فهم لا يأكلونه إلاّ نادراً؛ ويطبخونه في المناسبات، ويقدمونه للضيوف من باب التكريم وحسن الضيافة. وفي صحراء تارقة: ((**يوجد كثير من "المن"؛**[3] **وهو شيء عجيب؛ يذهب الناس في الصباح الباكر ليجمعوا هذا المن؛ فيملأون به دناناً، ثم يبيعونه طرياً في أزقة أكدز... ويشرب هذا المن ممزوجاً بالماء؛ ويكون شراباً ممتازاً. ويجعل أيضاً في الحساء، ويبرد كثيراً. لذلك لا يمرض الغرباء بأكدز كما يقع لهم بتمبكتو ذات الهواء الوخيم**)).[4] كما أن سكان الصحراء المؤدية إلى السودان يلتقطون بالقرب من "**أودغست**" ثمار **الكمأة**[5] في حجم كبير

---

[1] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص ص: 131. 138.

[2] وصف إفريقيا، ج: 2، ص ص: 120. 129. 136.

[3] قال النويري في المن: ((فهو يسقط على ورق البلوط والسدر والخوخ والمشمش مثل العسل؛ فما تخلص منه كان أبيضَ، وما لم يَتخلص وجُمعَ بورقه كان أخضَرَ، وسقوطه يكون بجبال ربيعة ومُضَرَ وجبال الشام إلى نحو دمشقَ والساحل)). نهاية الأرب، ج: 11، ص: 329. وفي التنزيل الحكيم: *(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا رَزَقْناكُمْ)*. من الآية: 47؛ من سورة البقرة.

[4] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 152.

[5] وهي من الفطريات، وتسمى الآن في الجزائر "الترفاس".

كبير جداً: ((**يكون في وزن الكمأة منها أرطال وأزيد. وهو يجلب إلى أودغست كثيراً ويطبخونه مع لحوم الجمال ويأكلونه. ويزعمون أن ما على الأرض مثله؛ وقد صدقوا**)). [1] وقد يأكل الناس في المناطق الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان **الحيات والأحناش**؛ التي يسلخونها ويقطعون رؤوسها ثم يطبخونها ويأكلونها. [2] وفي منطقة **ودان** وجنوب **فزان** كان القوم يأكلون بعض الجذور التي تنبت في الرمال؛ فيدقونها حتى تصبح دقيقاً ثم يعجنونها ويأكلونها: ((**وأكثر أهلها يحفرون أصول نبات يسمى "أغرسطس"؛ وهو عندهم من نبات الرمال؛ فيجففونه ويدقونه بالحجر، ويخبزونه خبزاً يتقوتون به، ويأكلون منه ويأكل جلتهم وخيارهم اللحوم الجمالية مقددة، ويشربون ألبان الإبل؛ وأكثر نيرانهم يقدونها في بعر الجمال وبعض الشوك؛ والحطب عندهم قليل**)). [3]

وكمثال على طعام أهل المدن؛ نعرض ما ذكره الحسن الوزان عن مأكل أهل مدينة **فاس**؛ إذ يقول أن عامة سكانها يأكلون اللحم مرتين في الأسبوع؛ بينما يأكله الموسرون منهم مرتين في اليوم. ويقول أنهم يجلسون للطعام ثلاث مرات في اليوم؛ إذ يتناولون وجبة خفيفة في الصباح؛ وهي عبارة عن **خبز، وحساء من دقيق القمح، وفواكه**. وفي الشتاء يستعيضون بالحساء بتناولهم قطعة من **الخبز محشوة باللحم المملح** والمطبوخ معه. أما وجبة الظهيرة فتتكون عبارة عن طعام خفيف أيضاً؛ مثل **الخبز والسلطة والجبن والزيتون**؛ على أن طعامهم في الصيف يكون جيد التغذية. وفي العشاء يتكون الطعام من وجبة خفيفة أيضاً مثل: **الخبز والبطيخ، أو العنب، أو اللبن**. غير أنهم يتناولون في الشتاء كميات من

---

[1] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 89.

[2] نفسه، ص ص: 87. 92 ـ 93.

[3] نفسه، ص: 97.

اللحم المطبوخ مع الكسكسي. ويقول أيضاً أن من عاداتهم ألاّ يأكلوا اللحم المشوي. وكلما زادت ثروة الشخص وارتفعت مكانته الاجتماعية ؛ تحسن محتوى طعامه، وازداد لطفاً وعذوبة. [1] وفي الأعراس يأكل الأعيان لحوم: **البقر والغنم والدجاج** ؛ الممزوجة أثناء الطبخ بأصناف من الخضر المتنوعة. أما عامة الناس فيأكلون الثريد المصنوع بالخبز الخفيف ؛ الذي يشبه الشرائط ؛ على أن يغمس في مرق مخلوط بقطع من اللحم الكبيرة. ويؤكل الثريد في أواني كبيرة مزينة بقطع اللحم. [2]

ثم يعقد الوزان مقارنة بين معيشة المغاربة وبين ما هو متوفر عند الأوربيين في ذلك الوقت ؛ فيقول: ((**ولكن بالمقارنة مع طريقة العيش التي يسلكها نبلاء أوربا ؛ تبدو عيشة الأفارقة بئيسة حقيرة ؛ لا من قلة كمية الأغذية فحسب ؛ ولكن أيضاً من العادات الخشنة المضطربة... ولو أن هناك بعض العلماء الذين يتمتعون بمستوى معيشة أفضل. وبالجملة فإنَّ أحط نبيل في إيطاليا يعيش في بذخ يفوق ما عليه أكبر أمير إفريقي**)). [3]

وأشار الإدريسي إلى نوع من الزيوت الرديئة التي كانت تؤكل في أرياف المغرب ؛ بعد أن تعصر من ثمار أشجار تسمى "**أرقان**" ؛ تشبه شجر الإجاص في كل شيء. أما ثمارها فقريبة من ثمار "**البرقوق**" المعروف في الجزائر بـ"**عين بقرة**" ؛ وله قشرة خضراء ؛ لا يستساغ طعمها بسبب العفوصة والحموضة. أما نواتها التي تشبه الزيتون ؛ فهي المطلوبة لدى السكان ؛ إذ يتخلصون من القشر ؛ بتقديم الثمار إلى المعز التي تبتلعه وترمي النوى ؛ الذي يغسل ويدق ثم يعصر فيخرج منه زيت ؛ جميل

[1] أنظر وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 252 ـ 253.
[2] نفسه، 257.
[3] نفسه، ص: 253.

المنظر كريه الرائحة والطعم. وهو متوافر بشكل واسع في المغرب الأقصى؛ إذ يستعمل في الإضاءة، وقلي الإسفنج؛ ثم يقول: ((**وله ـ إذا مسته النار ـ رائحة كريهة حَرِّيقة؛ ولكنه يَعْذُب طعمه في الإسفنج. ونساء المصامدة يدهن رؤوسهن به على المشط؛ فتحسن شعورهن بذلك**)). [1]

وقد يكون شجر "**أرقان**" هو نفسه الذي ذكره الوزان، وسماه "**هرجان**"؛ إذ يمكن أن يكون حرف الألف في بداية اسم "**أرقان**" حولت إلى هاء، أما الجيم فهي الجيم المصرية. وفي ذلك قال الوزان: ((**ويوجد هناك** [أي في بلاد حاحا] **عدد وافر من أشجار شائكة تثمر حباً كبيراً يشبه الزيتون الذي يأتينا من إسبانيا. ويسمى هذا الثمر عندهم "الهرجان"، وتستخرج منه زيت كريهة الرائحة؛ تستعمل مع ذلك الطبخ والإنارة**)). [2] علماً بأن زيت الأرقان مازال معروفاً ـ إلى الآن ـ في المغرب الأقصى.

وبالجملة؛ يبدو أن معظم المغاربة كانوا يعيشون عيشة ضنك. فمنذ العصور القديمة؛ لم يعرف سكان هذه الديار حياة الرفاهية؛ بسبب سرقة ثرواتهم، واغتصاب ممتلكاتهم، وتسليط مخالب الإبتزاز والنهب؛ بحجة فرض الضرائب والإتاوات الجائرة. سواء كان ذلك من قبل المحتلين الأجانب لهذه البلاد، أو من طرف الطغاة المستبدين من أبناء البلاد. كما أن حياة البداوة والنظام القبلي لم يساعدا السكان على الرقي بحياتهم نحو الأفضل؛ بل عملا على ترسيخ الجمود والثبات في مستوى واحد لا يتغير، ولا يتزحزح عن الإرث القبلي؛ الذي يفرز عادات لا تشجع على النمو والتقدم في مستوى العيش؛ الأمر الذي قد يؤدي إلى تكريس حياة الضيق والمسغبة بين سكان هذه الديار؛ وهذا ما تم بالفعل في مناطق عديدة من بلاد المغرب.

---

[1] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 134.

[2] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 96.

2 ـ كيفية تناول الطعام:

بقي الآن معرفة العادات المتبعة من قبل القبائل المغربية في تناول الطعام. فهذا الحسن الوزان يصف طريقة أهل إقليم **حاحا** بالمغرب الأقصى في تناول الطعام فيقول: ((**وتجتمع الأسرة كلها حول هذا الطبق؛ فيأخذ كل واحد منه بيده ـ دون ملعقة ـ ما يستطيع؛ حتى لا يبقى شيء في الطبق... وهم لا يستعملون الموائد ولا السمط؛ وإنما يفرشون على الأرض حصراً مستديرة يأكلون عليها**)).[1] ثم يصف أيضاً الطريقة التي يأكل بها أهل **فاس** وجبة الكسكسي فيقول: ((**إنهم يأكلون على الأرض فوق موائد منخفضة؛ بدون فوط، ولا أغطية من أي نوع، ولا يستعملون أية أدوات غير أيديهم. وإذا أكلوا الكسكسو؛ تناوله جميع المدعوين في صحن واحد؛ بدون ملاعق؛ ويكون المرق واللحم معاً في قدر من الفخار؛ يتناول كل واحد منها قطعة اللحم التي تروقه، ويضعها أمامه دون تقطيع. ولا يستعمل السكين؛ وإنما تمسك قطعة اللحم باليد، وينهش منها بالأسنان بقدر المستطاع. إنهم يسرعون في الأكل، ولا يشرب أحد منهم قبل أن يشبع**)).[2] أما الثريد فيؤكل عندهم بالأيدي دون ملاعق؛ ويتم ذلك باجتماع كل عشرة من الناس على إناء واحد.

وهذه العادة مازالت متبعة في معظم أرياف المغرب وصحاريه. والطريف في الأمر؛ أن ثمة بعض سكان المدن ـ في أيامنا هذه ـ من يتشوق إلى تطبيق هذه العادة؛ حيث يعلنون رغبتهم وشوقهم لتناول الطعام بواسطة الأيدي دون ملاعق؛ خاصة عندما يكون الطعام ثريداً. كما أنهم يحبذون تناول الطعام في مواعين من الفخار أو الحطب. وحتى شرب

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 96 ـ 97.

[2] نفسه، ص: 253.

اللبن أو الماء فيفضلون تناولهما في أقداح فخارية أو خشبية أو فيما يسمى بـ"**القنونة**" وهي طاس مضفورة "**بالحلفاء**" ومدهونة "**بالقطران**" ذي الرائحة الشديدة. ويوجد بيننا الآن من يفضل ماء "**القِرَب**" على ماء المبردات الكهربائية. كل هذا ـ طبعاً ـ عبارة عن حنين إلى الماضي ؛ مهما كان قاسياً وبسيطاً. وهذه القوة الجاذبة لا يمكن تبرئة العصبية القبلية منها ؛ تلك العصبية التي تتمثل في القوة المعنوية الكامنة في نفوس العباد الذين لم يتخلصوا من رواسب الماضي كيفما كانت سلبية أم إيجابية.

ويقول الوزان أيضاً ـ أثناء حديثه عن سكان الصحراء ـ أن قبائل الملثمين لا يأكلون مع ضيوفهم ؛ بل يأكلون منعزلين بقربهم.[1] ويبدو أنهم يريدون من ذلك ؛ إعطاء حرية أكبر للضيف ؛ كي يأكل ما يشاء، ويتناول ما يستطيب ؛ دون مزاحمة أو حرج. وعندما وصف طريقة أكلهم ذكر أنهم لا ينزعون اللثام عن أفواههم عند تناول الطعام. بل يرفعونه قليلاً ويمررون اللقمة دون الكشف عن أفواههم. ويعللون ذلك بقولهم : ((**أن المرء يخجل لإدخال الطعام خجله من إخراجه**)).[2] وهكذا نكتشف أن لا شيء كبير قد تغير منذ عهود قديمة ؛ إذ كل الذي وصفه الحسن الوزان وغيره من الجغرافيين والرحالة ؛ لا يختلف عما نراه الآن.

3 ـ *اللباس :*[3]

تختلف ملابس أهل المغرب ؛ حسب اختلاف الحقب التاريخية والمناطق الجغرافية، وطبقاً لتباين الأوضاع الاجتماعية (الأغنياء والفقراء). وعليه ؛ فالمغاربة القدماء ـ كما وصفهم المؤرخون ؛ عندما شرع

---

[1] وصف إفريقية، ج: 1، ص ص: 60 ـ 61.

[2] نفسه، ج: 1، ص: 59.

[3] يقول سبحانه وتعالى: **(*وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ*)**. سورة النحل من الآية: 81.

الفينيقيــون في بنــاء **قرطــاج** عــام 814 ق. م ـ كانــوا يلبســون **جلــود الحيوانـات**؛ [1] اتقـاء البـرد وقرصاتـه؛ بينمـا يكتـفي بعضهـم ـ في الأماكـن الحارة ـ بتغطية عوراتهم **بخرقة بسيطة**، أو **بفـوط** [2] **وأزر** [3] **متواضعـة**. ثـم تطـور لباسهــم ـ بعــد ذلــك ـ حيــث غــدوا يلبســون **عبــاءات منسوجـة بالصــوف**؛ منهــا مــا يشبــه القميــص التونــسي المســمى "**الكــدرون**"؛ ثــم أضحـوا ـ فيمـا بعـد ـ يضعـون فـوق تلـك العبـاءة معطفـاً قريبـاً مـن "**البرنـس**" [4] الحـالي. وقـد تـم ذلـك ـ حسبمـا يبـدو ـ في **العصـر الرومـاني**؛ لأن البرنـس يشبـه الـرداء الرومـاني المسـمى بـ"**الكيكـل**" *Cuculle*.

وقـد تطـور لبـاس المغاربـة ـ مـع مـرور الزمـن ـ نتيجـة لاحتكاكهـم بأمـم أخـرى، **كالبونيقييـن، والرومـان، والبيزنطييـن، والعـرب**؛ وتبعـاً لتبايـن الأوضـاع الجغرافيـة، واختـلاف الأحـوال المناخيـة. **فسكـان التلـول والجبـال** يحتاجـون لألبســة دافئـة؛ تقيهـم مـن القُـرِّ الـذي يسـود في تلـك الربـوع؛ خــلال فصــول ثلاثــة: **الخريــف والشتــاء والربيــع**. أمـا سكـان **الصحــراء** فحاجتهـم للدفء أقـل مـن غيرهـم. لـذا فقـد فضـل سكـان الأريـاف **الألبسـة الصوفيـة**؛ الـتي تشكـل المـادة الأساسيـة في لباسهـم تقريبـاً.

ووصـف ابـن خلـدون لبـاس الأمازيـغ ـ عمومـاً في وقتـه ـ بقولـه: **((لباسهـم وأكثـر أثاثهـم مـن صـوف؛ ويشتمـل الصمـاء مـن الأكسيـة المعلمـة؛ يفرغـون عليهـا البرانـس الكحـل. رؤوسهـم في الغالـب حاسـرة،**

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 76. ووصفهم صاحب كتاب هنيبعل بقوله: ((رجال يرتدون جلود الأنمر والأسود، ويحملون السيوف والرماح، والتروس الجلدية؛ ينتظرون من مليكهم إشارة ليثيروا غبار القتال. وخيول مضمرة؛ تنقض في المعركة كأنها الجلاميد)). ج: 1، ص: 43.

[2] الفوطة: المنشفة، أو قطعة من القماش يحيط بها الإنسان نصفه السفلي.

[3] الإزار: جمعها أزر؛ كل ما يستر، وهو عبارة عن ملحفة.

[4] يبدو أن البرنس كان معروفاً أيضاً عند عرب المشرق. فقد جاء في صحيح البخاري حديث لرسول الله e قال فيه: ((لا يلبس المحرم القميص ولا السراويل ولا البرنس ولا الخفين؛ إلا أن لا يجد النعلين فليلبس ما هو أسفل من الكعبين)). صحيح البخاري، ج: 7، كتاب اللباس. ص: 36. والراجح أن ذلك حدث بتأثير من الرومان.

وربما يتعاهدونها بالحلق)). [1] وجاء في كتاب العبر ـ أيضاً ـ نص في غاية الأهمية ؛ يوضح فيه ابن خلدون الطريقة التي يلبس بها أعضاء القبائل ؛ من : **بني هلال وزناتة** عمائمهم. ويفهم من هذا النص أن الهلاليين قد تأثروا في لبس العمائم بالزناتيين. وفيه يقول : ((**شِعارُهم لِبْسُ المُخيط في الغالب، ولبس العمائم تيجاناً على رؤوسهم ؛ يُرْسِلُون من أطرافها عَذَبَاتٍ ؛ يتلثم قوم منهم بفضلها ؛ وهم عرب المشرق. وقوم يَلفُّون منها اللِّيت** [أي صفحة العنق]، **والأخدع** [أي موضع الحجامة في العنق] **قبل لبسها، ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم ؛ من فضلها ؛ وهم عرب المغرب. حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر ؛ وكذلك لُقِّنوا منهم في حمل السلاح ؛ اعتقال الرماح الخَطِّيَّة** [بأن يجعلوا الرمح بين الركاب والساق، أو تحت الفخذ، ويسحب آخره على الأرض] ؛ **وهجروا تَنَكُّبَ القِسِيِّ** [أي تعليقها على المنكب]. **وكان المعروف لأوَّلهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين)).** [2]

ويمكن استشفاف شكل اللباس الذي يرتديه أعيان القوم في العهد الإسلامي ؛ من خلال ما كان يقدم لهم من خلع وهدايا ملكية في مناسبات عديدة. ففي العهد الأموي ببلاد الأندلس والمغرب ؛ كان **المستنصر بالله** يخلع على أمراء القبائل المغربية وسادتها جملة من الألبسة ؛ منها ما تضمنته الصلة التي قدمت إلى شيخ الأدارسة أحمد بن عيسى ؛ وهي عبارة عن : ((**سبعة آلاف دينار من الصحاح، وسيف عربي بحلية ذهب كاملة غمده سفن** [جلد خشن] ؛ **ومن الكسوة ثمان شقاق عبيدية ملونة ومبطنان عبيديان أحدهما سمائي والآخر ببغائي اللون بأعلام وكتب، وثلاث عمائم خز إحداها سمائية والثانية حمراء**

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 176.
[2] نفسه، مج: 2، ص ص: 26 ـ 27. أنظر أيضاً مج: 7، ص: 3.

والثالثة خضراء، وفرس أشهب إلى الحمرة نتاجيّ بسرج ولجام محليين من مراكب الخلافة)). [1] وهذه العينة من الألبسة تكررت مراراً ؛ كلما قدمت خلع **المستنصر بالله** إلى أعيان المغرب. ويمكن تحديدها بـ:

ـ **الشقة**: وجمعها شقاق وشقق ؛ وهي عبارة عن ثوب رقيق مستطيل.

ـ **المبطن أو بَطَان**: جمعها البَطانات ؛ يقول **رينهارت دوزي** أنها عبارة عن نعال ريفي من جلد البقر غير مدبوغ ؛ كانت تستعمل في إسبانيا ؛ وتشبه القارب. [2]

ـ **العمامة**: وجمعها عمائم ؛ وهي عبارة عن قطعة مستطيلة من القماش الخفيف في الغالب ؛ تلف حول الرأس.

وأبرز مثال عن لباس أهل المغرب ؛ يكون قد تجلى في عهد الموحدين وما بعدهم ؛ إذ أخذت المصادر التاريخية والجغرافية ـ في وقتهم ـ تتحدث في موضوع اللباس ببلاد المغرب. وهذا **ابن صاحب الصلاة** يذكر بعض أسماء الألبسة ؛ التي كان الموحدون يهدونها لأعضاء القبائل من: السادة، والفرسان. وإهداء تلك الألبسة يعني أنها كانت متداولة بينهم آنئذ. فمن هديا وخلع **أبي يعقوب يوسف** على الموحدين والعرب ؛ ما ذكره ابن صاحب الصلاة: **((ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة من العمائم والغفاير والبرانس والأكسية ؛ بأن حصل لكل فارس غفارة، وعمامة وكساء، وقبطية، وشقة))**. [3] وقال في نص آخر: **((وكسا جميعهم بالقباطي والقمص والغفاير والعمائم))**. [4] ثم قال أيضاً: **((ثم أعطى كل**

---

[1] المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 132.
[2] معجم مفصل في أسماء الألبسة عند العرب، ص: 81.
[3] المن بالإمامة، ج: 2، ص: 291.
[4] نفسه، ج: 2، ص: 437.

واحد ستة أثواب: عمامة وغفارة، وقبطية مبطنة، ومقطعين مهدويين وكساء)). [1]

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره ؛ يمكن استخلاص نوعية الألبسة المتداولة آنئذ ـ من خلال ما ذكر من ألبسة أهداها أمير الأندلس إلى سادة القبائل المغربية ؛ ثم تستكمل القائمة بتحديد نوع الألبسة التي يخلعها أمير الموحدين على رؤساء الموحدين وشيوخ العرب ؛ وهي كالتالي:

ـ **القبطية:** وجمعها قباطي ؛ وهي عبارة عن ثوب أبيض اللون مصنوع من الكتان الناعم.

ـ **الغفارة:** وجمعها غفائر ؛ وهي غطاء للرأس ؛ يلبس تحت العمامة.

ـ **البرنس:** وجمعه برانس ؛ وهو عبارة عن كساء مشقوق من الأمام، وله قلنسوة مخروطية الشكل ؛ ملتصقة به، وتغطي الرأس.

ـ **الكساء:** يقول عنه رينهارت دوزي: أنه عبارة عن معطف صوفي خشن. [2]

ـ **القميص:** وهو ثوب يلبس فوق الجسد مباشرة.

ـ **المقطع:** ربما كان نوعاً من أنواع القمصان.

&&&

وبعد سقوط الدولة الموحدية ظهرت بعض المؤلفات لجغرافيين ورحالة كبار ؛ اهتموا بحياة السكان في بلاد المغرب ؛ فوصفوا أشكال معيشتهم ونشاطاتهم الاقتصادية والثقافية بدقة متناهية ؛ وأهم هؤلاء الرحالة والجغرافيين: **محمد الشريف الإدريسي** (توفي في سنة 560 هـ/ 1164م)، **والحسن الوزان ؛ المعروف بليون الأفريقي** (المتوفي بعد عام 957 هـ/ 1550م). ومن خلال ما كتب هؤلاء الجغرافيون نستشف اختلافاً

---

[1] المن بالإمامة، ج: 2، ص: 450.

[2] معجم مفصل في أسماء الألبسة عند العرب، ص: 384.

ملحوظاً في اللباس ؛ بين ما هو بدوي وما هو حضري. وثمة اختلاف أيضاً في اللبس بين بدو الصحراء وبدو الريف ؛ تبعاً للظروف المناخية.

وكما يختلف اللباس بين **أهل الريف وسكان الصحراء** ؛ يختلف ـ أيضاً ـ حسب **اختلاف المستوى الحضاري والمادي**. **فأهل المدن المتحضرون** والمرفهون يلبسون ألبسة **أنيقة ورفيعة وجميلة** ؛ بينما يلبس **فقراء المدن وأهل البادية الألبسة الخشنة والبسيطة**. وذلك تبعاً لمقتضيات الحضارة التي تجري وراء الكماليات، وتبعاً لمستوى الذوق الجمالي بين **أهل المدن وأهل البادية**. ومع هذا فإن **لباس العامة والفقراء بالمدن** يتقارب مع **لباس أهل البادية** ؛ في المواد التي تصنع منها الألبسة ؛ حيث اتضح بأن جل الألبسة ببلاد المغرب لا تعدو أن تكون إما **من الصوف أو من الكتان**. بينما لا يلبس ملابس **القطن والحرير** إلا الأعيان والأغنياء في المدن.

وعندما يصف الوزان ملابس **أهل فاس وتلمسان وتونس** يقدم للقارئ صورة جلية عن مستوى الأناقة في تلك المدن. بينما يصف أحياناً ملابس أهل الريف وأهل الصحراء ؛ فتنجلي الصورة البسيطة والرديئة التي هي عليها. [1]

وبخصوص سكان **فاس** يقول الوزان أن الموسرين منهم يلبسون في الشتاء ملابس صوفية مستوردة. وتتكون ملابسهم في الغالب من : **قميص** يلبس تحت **سترة ضيقة** بنصف كُم، وتلبس فوق السترة **عباءة واسعة** مخيطة من الأمام ؛ ثم يضعون **برنساً** من فوق. أما غطاء الرأس فهو عبارة عن **قلسوة** ؛ تلف **بعمامة** من الكتان حول الرأس ؛ تدور مرتين

[1] يقارن الوزان ـ بإيحاء ـ بين لباس أهل البادية؛ ومن إيحاءاته قوله في سكان جبل تسول بالمغرب الأقصى: ((يرتدون لباساً لائقاً كلباس الحضريين)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 358. ويقول ـ أيضاً ـ في سكان وجدة: ((يرتدون لباساً قصيراً، خشناً؛ شبيهاً بلباس الفلاحين)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 13.

حوله، وتسحب تحت الذقن. ويلبس الناس **سراويل** من الكتان، **وأحذية بدون جوارب**. وعند ركوبهم الخيل في الشتاء يلبسون **أحذية كبيرة**.

أما العلماء والأعيان المسنون فيلبسون سترات عريضة الأكمام. هذا هو معظم لباس الموسرين؛ أما عامة الناس فلباسهم أكثر بساطة؛ إذ يلبسون **سترة** فوقها **برنس** بدون عباءة؛ كما أنهم لا يضعون على رؤوسهم سوى **طاقية** متواضعة. أما فقراء القوم فيلبسون **ثوباً وبرنساً** من الصوف الخشن بلون أبيض.

ومن جهة أخرى؛ فإن **النساء الفاسيات** يلبسن لباساً جميلاً في الشتاء؛ وهو عبارة عن ثوب مخيط من الأمام كثياب الرجال؛ وله أكمام عريضة. وفي حال خروجهن يلبسن **سراويل** طويلة؛ تستر سيقانهن، ويرتدين **خماراً** يشبه خمار نساء الشام، ويخفين وجوههن بقطعة من القماش؛ بحيث لا تظهر إلاَّ عيونهن. وإذا كان وقت الحر يكتفين بلبس **قميص**، ويتحزمن **بنطاق** قبيح المنظر. [1]

ويرتدي التجار الحضريون في تلمسان لباساً جميلاً يفوق جمالاً لباس أهل فاس؛ ((**لأنهم حقاً أكثر أناقة وسخاء؛ وكذلك الصناع؛ إلاَّ أنهم يرتدون لباساً قصيراً؛ والقليل منهم يتعمم، ويكتفون بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم، وينتعلون نعلاً تعلو حتى نصف الساق... ويلبس الطلبة ثياباً مناسبة لوضعيتهم: فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل والأعرابي لباس الأعراب. أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن**)). [2] ويرى الوزان أن أبشع لباس في تلمسان هو **لباس الجنود**؛ وهو عبارة عن **قميص** واسع بكمين عريضين؛ يضعون فوقه **كساء كبيراً جداً** من القطن؛ يلتفون فيه؛ سواء

---

[1] أنظر وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 251 ـ 252.

[2] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 21.

في الشتاء أو في الصيف. على أنهم يرتدون في الشتاء ـ أيضاً ـ **سترة** من الجلد. كما أن أصحاب الرتب من العسكريين يرتدون فوق **القميص كساء من الجوخ**، ثم يضعون فوقه **معطفاً** يمكن أن يغطي رؤوسهم عند نزول المطر. ويرتدي **الصناع والتجار والفقهاء والموظفون في تونس** لباساً ممتازاً؛ ثم يضعون على رؤوسهم **قلنسوات** تحيط بها قطعة طويلة من القماش. غير أن العسكريين وأصحاب الحاشية يكتفون بالقلنسوة دون إحاطتها بالقماش. أما نساء تونس فيرتدين لباساً حسناً: ((**ويتأنقن في زينتهن، ويسترن وجوههن عندما يخرجن؛ مثلما تعمل الفاسيات؛ يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى السفساري على عصابة عريضة جداً يغطين جباههن؛ بحيث تبدو رؤوسهن وكأن رؤوس عماليق**)). [1]

وعند حديث الوزان عن بعض المدن : **دلس والجزائر وبجاية ونقاوس وقفصة**؛ وصف لباس سكانها بالأنيق واللائق؛ ثم قال أن سكان **قفصة** ينتعلون شبه **نعالاً** عريضة جداً من جلد الوعل؛ لكي يتسنى لهم إصلاحها كلما تقطعت.

أما سكان **قسنطينة** فيقول أنهم مقتصدون في لباسهم. أما **المنستير** فيقول أن أهلها فقراء للغاية؛ ولباسهم حقير وخشن، ويلبسون في أرجلهم **أنْعُلاً من الأسل البحري**. وكذلك الحال بالنسبة لسكان **سفاقص**؛ الذين يلبسون ملابس رديئة. وقد أشار الإدريسي إلى سوسة بقوله: ((**وهي مدينة عامرة بالناس، كثيرة المتاجر. والمسافرون إليها قاصدون، وعنها صادرون بالمتاع الذي يعدم قرينه من أنواع الثياب والعمائم المنسوبة إليها؛ وهي من جيد المتاع ونفيسه**)). [2] أما سكان

[1] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 78.
[2] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 203.

"**المدينة**" حاضرة **دكالة** فيقول الوزان أنهم يرتدون ملابس صوفية مصنوعة محلياً.[1]

ومن جهة أخرى ؛ فقد وصف الرحالة الألماني **هاينريش فون مالتسان**[2] لباس سكان مدينة الجزائر فذكر أنه يتألف من قميص من الكتان يسمى غليلة[3]، وبدعيتين[4]، وسروال واسع قصير ؛ ينسبه **مالتسان** إلى سروال "**الرابيلا**" الروماني. ومازال هذا السروال معروفاً إلى الآن في الجزائر ؛ ويسمى بـ"**سروال اللوبيا**". ويتحزم الرجال بحزام يضفي على اللباس فخامة. ويغطي ذلك السروال ما فوق الركبة فقط ؛ إذ تبقى سيقان سكان الجزائر الحضريين عارية ؛ وأعناقهم تكون مكشوفة أيضاً. أما أحذيتهم فهي واسعة ومستديرة الرأس كالنعال، ويقص شعر الرأس بالكامل ولا يترك منه سوى خصلة واحدة وسط الرأس، وهي المعروفة الآن بـ"**الشوشة**" ؛ ويترك الرأس عارياً ؛ وقد يضع الشبان على رؤوسهم طاقية حمراء صغيرة الحجم.

وينسب **مالتسان** هذه الطاقية الصغيرة الحمراء إلى ما كان يعرف أيام القياصرة الرومان بـ"**بيليولوس**". ويلبس بعض الحضر ـ أيضاً ـ عمامة فوق الجزء الحليق من رؤوسهم ؛ على أن تكون في الغالب تلك العمامة من النسيج الثمين، وتلف حول الطاقية في حدود ثلاث مرات أو أربع.

أما نساء مدينة الجزائر فيتحجبن بعباءات قطنية ؛ تغطيهن من الرأس إلى القدم: ((**وتنشر الجميلة فوق محياها ـ لكي تطمس وجهها أمام نظرات الفضوليين ـ رقعتين قطنيتين: فما يسمى بـ"العجار" يغطي الوجه من الذقن إلى ما تحت العينين ؛ وبذلك يغطي الأنف. أما ما يسمى**

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 153.

[2] قام برحلته للجزائر في منتصف القرن التاسع عشر.

[3] الغليلة أو الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع،

[4] البدعية: قميص بلا كمين؛ يغطي الصدر؛ يسمي بالعامية "جيليكة".

بـ"الفوطة انتاع السنانغ" فيبسط فوق الجبين ويصل حتى الحاجب. إن "العجار" و"الفوطة انتاع السنانغ" يقسمان الوجه إلى نصفين غير متساويين، ولا يتركان سوى خط ضيق مكشوف؛ تشع من خلاله العيون العربية السوداء)). [1]

ويذكر مالتسان أن الحضريات يلبسن تحت حجابهن في الغالب بذلة تشبه البذلة التي يرتديها الرجال؛ غير أنها تتميز بتنوع الألوان، وبالتطريز، وبالتطعيم بالأشكال المطرزة بالحرير وخيوط الذهب والفضة. كما تلبس النساء أيضاً على رؤوسهن شاشيات حمراء صغيرة تسمى "**قنبية**"؛ توضع فوق الشعر المسدل بشكل مائل؛ على عكس الرجال الذين يلبسون الشاشية في وضع مستقيم. ويلبس الرجال والنساء أيضاً قطعة من القماش تسمي "**الفريملة**" وهي: ((**نوع من الصدرية؛ ولكنها صدرية تغطي نصف الظهر، ولا تصل إلى الصدر بالمرة. وليس لها من الأمام سوى رباطين معقودين؛ وهي من الوراء عبارة عن رقعة مربعة؛ يحول الرباطان المذكوران بينهما وبين السقوط**)). [2] وتتميز "**الفرميلة**" النسوية بقيمتها الثمينة وبالقماش المذهب. وهي عبارة عن مشد أكثر من كونه ثوباً.

ومع هذا فإن لباس أهل البادية يختلف بدوره حسب اختلاف الأوضاع الاقتصادية والثقافية للسكان. فأهل البادية يتباين لباسهم تبعاً للظروف الطبيعية، وتبعاً للعادات؛ التي لها علاقة وطيدة بثقافتهم الخاصة. [3] وقد أورد الوزان نصاً يصف فيه لباس القبائل المتواجدة في الصحراء التي سماها ليبيا؛ فيقول: ((**يتركب لباسهم من عباءة ضيقة**

[1] ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج: 1، ص: 57.
[2] نفسه، ص: 59.
[3] أشار الوزان إلى هذا الاختلاف ـ دون شرح ـ حين قال: ((فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي لباس الأعراب)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 1.

من الصوف الخشن، ويضع كل واحد منهم على رأسه، أو يلف حول وجهه قطعة من النسيج الأسود على شكل عمامة. ويتميز الأعيان والأشراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق يبيعهم إياه تجار يأتون من أرض السودان)). [1]

وهذه الأوصاف تنطبق تماماً على **التوارق** في أقصى الصحراء. أما سكان الجبال بإقليم **حاحا** بالمغرب الأقصى؛ وبالتحديد في جبل قبيلة **(أدَاوْ عاقل)** فيقول عنهم: **((لا يلبسون قميصاً، ولا ثوباً مخيطاً بالإبرة؛ إذ ليس عندهم من يحسن الخياطة؛ وإنما يلتفون بقدر الإمكان في قماش)).** [2]

ويقترب من هذه الصفة سكان **ودان** الذين قال عنهم أنهم يعيشون شبه عراة. [3] وقد أشار **الإدريسي** إلى تلك المناطق الصحراوية؛ حيث ذكر أن سكان جنوب فزان يعيشون عراة؛ ويكتفون بستر عوراتهم بجلود الإبل والبقر المدبوغة. وفي المنطقة نفسها إلى الشمال الشرقي تتواجد مدينة صحراوية صغيرة تسمى **القصبة**؛ سكانها متحضرون ويلبسون **الفوط والأزر والقنادر** المصنوعة من الصوف. [4] وفي المدينة الصحراوية "**أنكلاس**" التي يتعامل أهلها في التجارة مع **مصر** في المشرق **وورقلان** في المغرب يلبس سكانها: **((المقندرات من الصوف، ويربطون على رؤوسهم كرازي** [5] **الصوف، ويتلثمون بفواضلها، ويسترون أفواههم؛ وهي عادة من عوائدهم توارثها الأبناء عن الآباء)).** [6]

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 58.

[2] نفسه، ص: 110.

[3] نفسه، ج: 2، ص: 116.

[4] أنظر مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 92. 98.

[5] كرازي: مفردها كرزية أو كرسية. وهي عبارة عن عمامة من الصوف.

[6] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 99.

أما **بلاد نول** حيث قبائل لمتونة ؛ فلباس الرجال والنساء هي **أكسية الصوف** ؛ ويضع الرجال على رؤوسهم **عمائم الصوف المعروفة بالكرازي**. وفي مدينة **نول لمطة** تعرض للبيع **البرانس** والملابس المعروفة **بالسفسارية**. كما يلبس المتحضرون من أهل تلك المناطق **المقندرات** الصوفية المسماة عندهم "**القداور**". ويلبس أهل السوس الأقصى **الأكسية الصوفية** ؛ بحيث يلتففون بها التفافاً، ويتحزمون **بمآزر صوفية** مسماة بـ"**سفاقس**"، ويهتمون بشعورهم اهتماما كبيراً ؛ إذ يصبغونها بالحناء ويغسلونها برقيق البيض والطين الأندلسي مرتين في الجمعة على الأقل. وفي **بلاد مكناسة** يرتدي أهلها **الأكسية**، ويضون على رؤوسهم **الكرازي** [1]

ويقول الوزان ـ أيضاً ـ عن القبائل المتواجدة في جبل **(نفيفة)** بإقليم حاحا: ((**وسكان هذا الجبل متوحشون ؛ لا تربية لهم ؛ إذا رأوا حضرياً عجبوا منه ومن لباسه**)). [2] ولا داعي لسرد الأمثلة الكثيرة التي أوردها الوزان بخصوص مستوى لباس أهل البادية ؛ غير أنه يستحسن التنبيه بأن كثيراً من القبائل التي عقدت مع البرتغاليين علاقات تجارية ؛ أضحت تتمتع بلباس أفضل. وهذا ما أشار إليه الوزان بكل صراحة. فسكان **إفران** ـ على سبيل المثال ـ يرتدون ملابس حسنة ؛ بسبب تجارتهم مع البرتغاليين ؛ إذ كانوا يبتاعون الملابس الخشنة من البرتغاليين وينقلوها إلى بلاد السودان. [3] ويقول الرحالة الألماني **مالتسان** أن اللباس الرئيسي لدى بدو الجزائر هو **البرنس** ؛ وقد يلبس الرجل منهم عدة برانس في وقت واحد ؛ وربما وصل عددها من برنسين إلى أربعة ؛ وقد يحدث هذا في أيام الحر أيضاً. [4]

---

[1] أنظر المصدر نفسه، ص: 126. 127. 128. 131. 147.

[2] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 138.

[3] نفسه، ج: 1، ص ص: 152. 157. 197. ج: 2، ص: 117.

[4] ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج: 1، ص: 73.

وبالجملة فإن لباس الرجال ببلاد المغرب عموماً ـ في الغالب ـ يتكون من **قميص** داخلي، **وسروال** يكون أحياناً قصيراً، وأحياناً أخرى طويلاً قد يصل إلى الكعبين، ثم **جلباب**؛ وهو عبارة عن **قميص أو ثوب** واسع، ثم **برنس** أو **قشابة** أو **حائك** (إزار)؛ كما هو الحال في بعض المناطق من **ليبيا وتونس** وبعض الجهات المتاخمة لوادي ملوية. [1] ويرى الإدريسي أن سكان الصحراء يتكون لباسهم من: **الفوط، والأزر، والقنادر الصوفية**. أما لباس الرأس فهو **عمائم** تسمى **(كرازي)**؛ [2] لونها أبيض أو أسود؛ حسب الجهات. ويختلف نوع قماشها، ويتباين طولها حسب الوضع الاجتماعي ومستوى المعيشة؛ حيث تكون من القماش الجيد، وتكون أكثر طولاً لدى الأغنياء والأعيان. [3] ومن أصناف الأحذية التي ينتعلونها: "**البلغة**"؛ وهي من الجلد الخالص، **الخف** من الجلد أو من الحلفاء. أما **الجوارب** الصوفية فتلبس أيام الشتاء القارس. [4]

وتكلم الوزان عن الأعراب المنتشرين جنوب مملكتي: **تلمسان وتونس** فذكر أنهم يتحلون بلباس جميل ويكتسبون الخيل الفارهة المسرجة. أما سكان إقليم **جزولة** فيلبسون **قمصاناً** قصيرة وضيقة من الصوف دون أكمام. ويحملون خناجر مقوصة عريضة ذات حدين. وفي جبل "**سكسيوة**" يلبس السكان **قلنسوات** بيضاء، ويلبسون في أرجلهم شبه **نعال** اتقاء الحجارة. ثم يلفون سيقانهم ببعض الخرق التي تشد بخيوط؛ بغرض الوقاية من الثلج. [5] أما سكان جبل "**دادس**" فلباسهم

---

[1] قبائل المغرب، ج: 1، ص ص: 283 ـ 284.

[2] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص ص: 98. 126. 147. وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 58 ـ 59.

[3] مازالت هذه العادة متبعة لدى قبائل التوارق إلى الآن.

[4] للتوسع في موضوع لباس أهل المغرب على اختلاف أنواعه، وحسب المناطق الجغرافية والطبقات الاجتماعية، أنظر: وصف إفريقيا، ومقتبس من كتاب نزهة المشتاق، وكتاب المرآة، وقبائل المغرب.

[5] أنظر وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 63. 140 ـ 141. 145.

رديء لدرجة أن معظم أجسامهم عارية : ((**والنساء كريهات المنظر كالشياطين ؛ لباسهن أسوء من لباس الرجال، وحالتهن أقبح من حالة الحمير**)). [1] وكذا هو الحال في جبل "**بني بوشيبت**" الذي يلبس سكانه **عباءة** صوفية قصيرة ؛ تشبه بعض الأغطية الرديئة : ((**ولهذا اللباس المخطط بالأسود والأبيض قلنسوة يضعها هؤلاء القوم على رؤوسهم ؛ فيكونون في أعين من يراهم أشبه بالبهائم منهم بالناس**)). [2] أما أهل جبل "**بني يستيتن**" فسماهم الوزان بالرعاع، وذكر أنهم يمشون حفاة ويلبسون أسمالاً حقيرة للغاية ؛ وإذا عزم أحدهم على التوجه نحو مكان ما ؛ يقوم بفتل **نعل من أسل الحلفاء** ؛ سرعان ما يبلى ويتآكل. وكذلك سكان "**نون**" على شواطئ المحيط الأطلسي ؛ فلباسهم سيئاً بسبب فقرهم وخضوعهم للأعراب. [3]

ولباس النساء عموماً ؛ [4] فهو عبارة عن **قميص من القطن وسروال** ؛ على أن تضاف بعض **الأثواب الصوفية** في المناطق الباردة، ثم **إزار** ؛ **من الحرير** بالنسبة للأغنياء أو من الكتان، وربما من الصوف الخالص. ويشبك على طرفي الصدر من الأعلى والأمام بمشابك ذهبية للأثرياء، وفضية لغيرهم ؛ حسب طبقة المرأة اجتماعياً. وما زال هذا النوع من اللباس معروفاً إلى اليوم ؛ ويستعمل في أرياف الجزائر وصحرائها ؛ حيث يسمى ذلك الإزار "**اللحاف**"، ويسمى المشبك "**الخلالة**". [5]
"**الخلالة**". [5]

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 189.
[2] نفسه، ج: 1، ص: 333.
[3] نفسه، ص: 359. ج: 2، ص: 108.
[4] أنظر قبائل المغرب، ج: 1، ص ص: 224 ـ 285.
[5] أنظر المرآة، ص ص: 61 ـ 70.

4ـ المظهر والزينة [1]:

الزينة والمظهر العام للمغاربة القدماء؛ كانا بسيطين للغاية. فالذوق عندهم اختلف كثيراً؛ نتيجة لتغير الحقب التاريخية، واختلاف المكتسبات المعرفية والثقافية من زمن إلى آخر. فبينما كان المغاربة القدماء يتزينون بوضع **أكاليل الريش** على رؤوسهم؛ [2] بغرض الزينة والتباهي؛ أضحت **أكاليل الغار** هي المفضلة عند الأغاليد؛ تشبهاً **بالإغريق والرومان**. ثم أضحت **العمائم** هي السائدة في العصر الإسلامي. المهم هو أن معظم المغاربة القدماء كانوا حاسري الرأس، وكان بعضهم يحلقون رؤوسهم؛ ولا يتركون من الشعر سوى الخصلة الوسطى؛ في قمة الرأس؛ تظفر بعناية. وهي المعروفة الآن "**بالشوشة**" وبالفصحى **الكشة**. بينما يفضل آخرون إرسال شعورهم على آذانهم من الجهتين؛ بشكل لولبي. وكانت لهم لِحًّى ملسنة ومدببة في نهايتها.

وقد اشتهر عنهم؛ أن الرجال منهم يفضلون التزين بالحلي: ((**وكان البربر يتزينون بالحلي؛ نساء ورجالاً. فالرجال يضعون أقراطاً في آذانهم، والنساء خلاخل في أرجلهن؛ وكان جميعهم يحملون أسورة وقلائد**)). [3] وهذه العادة ـ بالطبع ـ زالت تقريباً في العصر الإسلامي. وما بقي منها؛ يدخل في باب الشذوذ. وعلى العموم؛ فقد أضحت معلوماتنا عن الزينة في بلاد المغرب أكثر وضوحاً؛ بدءاً بالعهد الإسلامي. لأن المادة المكتوبة أصبحت متوفرة شيئاً ما؛ حتى وإن كان ذلك في حدود ضيقة، وبأسلوب شحيح.

---

[1] جاء في الذكر الحكيم: *(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)*. الآية 7 من سورة الكهف.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 76.

[3] نفسه، ص:77.

وطوال العصر الإسلامي ظهر - من خلال المصادر المختلفة - أن الزينة وفنونها تزدهر في المدن أكثر من البادية. ومع هذا فللبادية زينتها الساذجة. ذلك لأن البداوة - بحكم عزلتها - وتقشف أهلها لا تستدعي ملابس جميلة، ولا زينة أخاذة؛ كما هو مطلوب في المدن؛ حيث تزهو الحضارة ببريقها ورونقها. والعلة - في هذه الحال - تكمن في العامل الاقتصادي. لأن الزينة مكلفة في أغلب موادها؛ خاصة في المدن؛ حيث يكثر الطلب عليها؛ بسبب سعة الحال المنْجَرّة عن توافر الأعمال الجالبة للمال. أما الريف والصحراء فمواد الزينة فيهما لا تتطلب أثماناً مرتفعة القيمة؛ بل هي زهيدة وبسيطة؛ وقد تكون متوفرة في الطبيعة دون مقابل. وجملة القول؛ فالزينة تهتم بها المرأة أكثر من الرجل. ووسائل الزينة يمكن حصرها في بعض المساحيق، والحلي وشكل الملابس، وأنواع الطيب التي تستعمل من قبل النساء لإظهار مفاتنهن.

ففي المدن المغربية تتفنن النساء في زينتهن وفي تأنقهن؛ خاصة خلال الولائم والأعراس؛ من ذلك ما قاله الحسن الوزان حين وصف ما يجري في أعراس مدينة فاس: ((**وفي اليوم التالي تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس؛ فيمشطن شعرهن، ويزين خدودهن بالحمرة، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد؛ مع رسوم جميلة؛ ولكن هذه الأصباغ لا تدوم طويلاً**)).[1] كما أشار الوزان - أيضاً - إلى زينة النساء في مدينة **فاس** بصفة عامة؛ فذكر أن نساء الأعيان - في تلك المدينة - يتحلين بأقراط بديعة وكبيرة توضع في آذانهن؛ وهي مصنوعة من الذهب، ومرصعة بالحجارة الكريمة. ويزين معاصمهن - أيضاً - بأساور ذهبية؛ يصل وزن الإسورة مائة مثقال؛ أي نحو 350 غ. أما نساء العامة من غير

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 256.

الأعيان ؛ فيكتفين في زينتهن بالفضة ؛ إذ تصاغ أساورهن وخلاخلهن من الفضة. [1] أما مدينة **تلمسان** فيرى الوزان أن أهلها أكثر أناقة ، من أهل **فاس** ؛ إذ يرتدون لباساً جميلاً. أما مدينة **تونس** فيقول عن أهلها : ((**فإن السيدات التونسيات يرتدين لباساً حسناً ، ويتأنقن في زينتهن... ولا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن**)). [2] وعندما تكلم الوزان عن المدن الصغيرة والمناطق الجبلية ؛ أشار إلى حاضرة دكالة "**المدينة**" فقال أن نساء تلك المدينة يتحلين بكثير من الحلي الفضية والعقيق الأحمر. [3] وفي مدينة "**بْرِيشْك**" [4] القريبة من **مستغانم** يقول الوزان أنهم يرسمون **بالوشم** على الخدين واليدين صليباً أسوداً. وهذه العادة متبعة أيضاً في **جبال بجاية**. ويرجع الوزان هذه العادة إلى أيام **الونداليين** ؛ الذين أعفوا كل من رسم ذلك الوشم على خديه ويديه من الضرائب ؛ تسليماً بأنه من المسيحيين. [5] وفي **زرهون** تتحلى النسوة : ((**في أبهى زينة بخواتم وأساور من فضة**)). [6] وأشار الرحالة الألماني **مالتسان** - أيضاً - إلى الزينة المعمول بها لدى نساء مدينة الجزائر فقال : ((**وتخضع وجوه الحضريات لعدد من عمليات التجميل ؛ قد تثير الاشمئزاز في أوروبا ؛ ولكنها تعتبر هنا عملاً لائقاً ؛ بل متميزاً. فالحواجب تكحل بعصير "العفصة" قدر الإمكان ؛ فتصير أقواساً سوداء ؛ تلتمع تحتها نار العيون ؛ التي تشبه لهيب الحب! أما الأهداب فتصبغ بالكحل من الجهة الداخلية ؛ فيبدو فوق العين وتحتها خطان أسودان رقيقان ؛ يزيدان من شعاع بياضها**)). [7]

---

[1] أنظر وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 252.
[2] نفسه، ج: 2، ص: 78.
[3] نفسه، ج: 1، ص: 153.
[4] اندثرت هذه المدينة بعد زلزال خربها سنة 1531م.
[5] أنظر وصف إفريقيا، ج: 2، ص ص: 33. 102.
[6] نفسه، ج: 1، ص: 294.
[7] ثلاث سنوات في شمال غربي إفرقيا، ج: 1، ص: 58.

وقد شرح الوزان ـ في نص هام ـ أساليب الزينة المتبعة لدى قبائل الأعراب بالمغرب؛ فذكر أنهم يحبون اللباس الجميل، ويتشوقون لاكتساب الخيل الفارهة المسرجة، ويتنافسون على امتلاك الخيام الكبيرة الرائعة. كما يرتدي نساؤهم لباساً حسناً؛ طبقاً للعادة المتبعة في موطنهم. ويتكون لباسهن في الغالب من قميص أسود اللون؛ بأكمام واسعة. ثم يلتحفن بخمار أسود اللون أو أزرق؛ يضعنه فوق القميص؛ على أن تترك أهدابه مرسلة فوق أكتافهن؛ من الأمام ومن الخلف. ويمسك الخمار بمشبك فضي جيد الصنعة، فني المظهر. ويتحلين بأقراط فضية عديدة تعلق في آذانهن، كما تزين أصابعهن بعض الخواتم، وتتحلى أيديهن بأساور، وتزدان أرجلهن بخلاخل؛ طبقاً لعادة الأفارقة. ولكي يتحجبن تخفي النساء وجوههن بثوب مثقوب أمام عيونهن. [1] وعند الارتحال تحمل النسوة في **هوادج**؛ وهي عبارة عن سلة تتسع لامرأة واحدة. ويقول الوزان بأن النساء الأعرابيات؛ قلدن عادات أهل إفريقيا؛ في تخضيب أنفسهن بالحناء؛ إذ تقوم تلك البدويات ـ عند زفافهن ـ بتخضيب وجوههن وصدورهن وأيديهن بالحناء، ويرى ـ أيضاً ـ أن هذه العادات لم تكن معروفة عند العرب المستعجمة؛ [2] قبل مجيئهم إلى بلاد إفريقية. أما سكان الحواضر فنساؤهم سلكت طريقة مخالفة لأهل البادية؛ لأن النساء في المدن يحرصن على بياض وجوههن ونقائها الطبيعي. وعندما يرغبن في التزين؛ يستعملن خضاباً مستخرجاً من **لوز العصفة والزعفران**؛ يرسمن به بعض الأشكال على: خدودهن؛ شبيهة بالدينار في استدارته. وعلى الذقن يرسمن صورة مثل ورقة الزيتون. وبين

[1] أنظر وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 63 ـ 64.

[2] سماهم المستعجمة؛ مسايرة للتصنيف؛ الذي يجعل العرب أربعة طبقات : العرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب التابعة، والعرب المستعجمة. أنظر التفاصيل حول طبقات العرب الأربعة في كتاب العبر، مج: 2، ص ص: 28 ـ 29.

الحاجبين يرسمن شكلاً مثلثاً ؛ وقد تخضب بعضهن حواجبهن بالكامل. ثم يقول : ((**ويمدح الشعراء العرب والأشراف هذه العادة، وتراها النساء أنيقة وجميلة ؛ غير أنهن لا يحتفظن بهذه الزينة أكثر من يومين أو ثلاثة ؛ لأنهن لا يستطعن البروز إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو أبنائهن. ويعملن ذلك ليكن أكثر جاذبية ؛ متوهمات أن تلك الزينة تزيد كثيراً من جمالهن**)). [1] ويذكر الوزان ـ في نص آخر ؛ يصف فيه النساء الأمازيغيات ؛ بجبال الأطلس في المغرب الأقصى ـ فيقول أنهن يحملن في آذانهن عدداً من الأقراط الفضية الضخمة ؛ قد يصل ـ أحياناً ـ عددها إلى الأربعة أقراط ؛ في الأذن الواحدة. أما مشابك الثياب ؛ فقد يصل وزن المشبك الواحد أوقية. هذا بالإضافة إلى الخواتم العديدة، والخلاخل. ولا يمكن أن يقتني هذا ـ بالطبع ـ إلاّ الأغنياء ؛ أما الفقراء فحليهم ـ في الغالب ـ من الحديد والنحاس. [2]

وفي أعماق الصحراء ؛ أين يتواجد **التوارق** ؛ تفضل نساء تلك المناطق التزين بحلي الفضة كأساور في الأيدي وأقراط في الآذنين وخواتم في الأصابع وسلاسل تزين الرقاب. كما يستعملن النيلة لطلي الوجوه والأيدي ؛ فتضفي عليهن لوناً أزرق يميل إلى السواد بعض الشيء. وعادة الخضاب بالنيلة لا تقتصر عندهم على النساء فقط ؛ بل يقوم بها الرجال أيضاً. ويبدو أن إتباع هذه العادة ليس بغرض زينة فحسب ؛ بل هو حماية للبشرة ضد لفح أشعة الشمس ولسع موجات الرياح العاتية.

---

[1] وصف إفريقيا، ج:1، ص ص: 64 ـ 65.

[2] أنظر المصدر نفسه، ج: 1، ص: 110.

5 ـ الأثاث والمسكن: [1]

لـم يعـرف المغاربـة القدمـاء أثاثـاً كثيـراً في مساكنهـم البدائيـة ؛ إذ كانـوا يكتفـون بمـا هـو ضـروري ؛ في ظـروف قاسيـة جـداً. فلـم يعرفـوا أثاثـاً جميـلاً، ولا فراشـاً وثيـراً ؛ وكانـوا يسكنـون في بيـوت بسيطـة للغايـة، ويفترشـون الأرض خالصـة، ويتمـددون علـى مصطبـة حجريـة، أو ترابيـة ؛ تعـرف الآن بـ"**الدكانة**". أمـا أوانيهـم فكانـت في البدايـة عبـارة عـن أوانـي مـن قـرع اليقطيـن الجـاف ـ كمـا هـي الآن مستعملـة في بعـض الجهـات ؛ مـن إفريقيـا السـوداء ـ بالإضافـة إلى أواني مـن بيـض النعـام المفـرغ. ثـم اكتسبـوا ـ فيمـا بعـد ـ أوانـي فخاريـة، فخشبيـة، فخزفيـة، فمعدنيـة، فزجاجيـة. حـدث ذلـك بعـد ازدهـار هـذه الصناعـات في **قرطـاج**.

ومجمـل القـول ؛ فـإن النـواة الحضاريـة الأولى الـتي أفـادت المغاربـة في القطاعـات كافـة ؛ مبعثهـا **قرطـاج** بالأسـاس ؛ حيـث تـدرج المغاربـة في اكتسـاب معـارف وأدوات سهلـت عليهـم سبـل العيـش، وطبعـت حياتهـم ببعـض أصنـاف العيـش المرفـه. فامتلكـوا الحصـر الأنيقـة، والـزرابي الوثيـرة ؛ كمـا اكتسبـوا ألحفـة صوفيـة للغطـاء والإستدثـار. وامتلكـوا الصناديـق الخشبيـة لحفـظ متاعهـم. تلـك الصناديـق الـتي كـان **البونيقيـون** يجيـدون صناعتهـا، وتجميلهـا بالنقـوش الهندسيـة الرائعـة. ومـا زالـت هـذه الأشكـال الهندسيـة تنقـش علـى الخشـب والأثـاث إلى الآن.

ثـم أضـاف **الرومـان** بعـض العينـات الأخـرى الـتي أفـادت ـ بـدون شـك ـ مجموعـة مـن المغاربـة المترومنيـن ؛ حيـث استفـادوا ـ طبعـاً ـ مـن وجـود

[1] يقول سبحانه وتعالى: (*وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أصْوَافِهَا وَأوْبَارِهَا وَأشْعَارِهَا أثَاثاً وَمَتَاعاً إلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أكْنَاناً*). سورة النحل، الآيتان: 80 ـ 81.

الرومانيين في بلادهم ؛ فاقتبسوا عنهم بعض الأشكال في تصنيع أثاثهم ، وتطوير أدواتهم التي ينتجون بها أثاثهم ، ويشيدون بها مساكنهم. غير أن ذلك كان في حدود ضيقة جداً ؛ لا تتعدى تخوم المدن والمعسكرات ؛ التي تسمح باختلاط السكان الأصليين بالرومانيين. وعلى العموم ؛ فقد اشتهر أن معظم أثاث سكان المغرب يتمثل في الأثاث المصنوع بالصوف ؛ وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون حين قال أن : ((**لباسهم وأكثر أثاثهم من صوف**)). [1]

بقي الآن ؛ الحديث عن أثاث المغاربة ؛ اعتباراً من العهد الإسلامي. ففي هذه الفترة امتزج المغاربة مع الفاتحين ، واختلطوا بهم اجتماعياً واندمجوا معهم ثقافياً ؛ بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. وعليه ؛ فكل ما عرفه الفاتحون ـ من وسائل حضارية ـ انتقل بسهولة ويسر إلى سكان المغرب. وعلى هذا ؛ فقد ظهرت أنواع عديدة من الأثاث المنزلي في بيوت المغاربة. ولكن ؛ ثمة اختلافات لا بد من ذكرها. وتلك الاختلافات تظهر ـ عادة ـ في مساكن القبائل المغربية وأثاثهم ؛ حسب اختلاف الفئات الاجتماعية. فأهل المدر غير أهل الوبر.

فالفئة الأولى أوطانها الأرياف والجبال ؛ حيث المناخ البارد ، وتقلبات الطقس الدائمة. أما الفئة الثانية فمراتعها القفار والسهوب ؛ حيث الدفء والحرارة. كما أن الفئة الأولى تتميز باستقرار أعضائها وثباتهم ؛ ضمن مقاطعات وأوطان لا يحيدون عنها. أما الفئة الأخرى فأعضاؤها راحلون عبر القفار والفيافي ؛ طلباً للنجعة. ومن هنا تظهر الأسباب التي استدعت اختيار المساكن البسيطة ؛ التي يسهل فكها وتركيبها. إلى جانب الأثاث الخفيف الذي يسهل نقله دون خوف من فساده أو إتلافه. وعليه فقد اتخذوا الخيام المصنوعة من الوبر والشعر

[1] العبر ، مج: 6، ص: 176.

والجلد والأكواخ الخفيفة المصنوعة بالخوص ؛ كما اقتصروا من الأثاث على الأثاث المصنوع من الصوف والخشب في الغالب.

وعلى العموم ؛ فإن أثاث ومساكن أهل البادية ـ سواء كانوا **مدريين** أم **وبريين** ـ تكون في معظمها ؛ بسيطة جداً ؛ إذا ما قورنت بأثاث ودور سكان الحواضر ؛ لأن هذه الفئة الأخيرة ؛ تفننت في صنع الأثاث وتشييد العمارة على السواء ؛ تبعاً لمستوى المعيشة الرفيع ؛ الذي ينعمون بها ؛ بينما اضطر أهل البادية ـ بحكم الحاجة والميل إلى التقشف ـ إلى الاكتفاء بما هو ضروري ؛ من الأثاث والسكن.

إذن ؛ فأثاث أهل المدن يختلف عن الأثاث المستعمل لدى سكان البوادي ؛ لأن أهل البوادي يحتاجون لما هو خفيف ومطاوع من الأثاث، وما قل ثمنه وصغر حجمه ؛ بحكم اضطرارهم لمستوى معيشي لا يتجاوز الضروري، ونضراً لطبيعة حياتهم ؛ التي يغلب عليها التنقل من مكان إلى آخر. وبالمقابل فإن سكان المدن يرغبون في الأثاث الثمين ؛ الكبير في حجمه، الرفيع في صنعه ؛ بحكم العيش المتسع الذي يتمتعون به، وبفضل الاستقرار الذي يتصفون به. فهم يملكون ـ بالإضافة إلى المفارش الصوفية والمنسوجات القطنية والحريرية ـ أعداداً كبيرة من الخزائن والأسرة والمواعين المعدنية والزجاجية. ولكي نقرب الصورة أكثر للقارئ نقدم عينة للأثاث في الحواضر ؛ من خلال ما ذكره الوزان عند تعداده لبعض الأثاث الذي نقلته عروس إلى بيت الزوجية في مدينة فاس ؛ وهو عبارة عن : ((**أغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير، ومخدات مطرزة ووسائد. وتهدى أيضاً ثمانية فرش ؛ أربعة منها للزينة ؛ توضع فوق الخزائن في كل طرف من الغرفة ؛ وأربعة مغطاة بنسيج صوفي خشن تستعمل للنوم ؛ بالإضافة إلى فراشين مبطنين بجلد يستعملان كذلك**

لتزيين الغرفة، وزربية صوف طويل من نحو عشرين ذراعاً، وثلاثة أغطية وجهها من جوخ وظهرها من كتان وما بينهما محشو بالصوف. وعن النوم يطوى هذا الغطاء شطرين؛ بحيث يكون أحدهما فوق الآخر؛ لأن طوله يقل قليلاً عن ثمانية أذرع. وعلاوة على ذلك تقدم ثلاثة أغطية للسرر؛ غلافها من حرير جميل التطريز من الجهتين، وبداخلها كتان محشو قطناً، وغطاء آخر أبيض الغلاف محشو بالقطن؛ لكنه خفيف للصيف. وأخيراً يقدم سجف (حائطي) من صوف رفيع مقسم إلى مستطيلات صغيرة مطرزة على نموذج علم سفينة أو غير ذلك من النماذج. ولهذا (الحائطي) شرائط ملسنة من جلد مذهب علقت عليها خصل من حرير مختلفة الألوان. وقد ثبت على كل خصلة منها زر حريري ليمكن تعليق هذا السجف على الحائط)). [1]

&&&

هذا عن أهل الحواضر؛ أما الأعراب من أهل البادية الذين ينتجعون في البلاد الممتدة جنوب تلمسان وتونس؛ فهم يسكنون ـ كما يصفهم الوزان ـ في خيام كبيرة رائعة، ويكتسبون الخيل الفارهة المسرجة، ويملكون ثياباً وأثاثاً من النحاس يفوق ما يملكه أهل الحضر. [2] وهذا طبعاً خرق للعادة، وكسر للقياس.

وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد وصف الوزان ـ بإيجاز ـ أثاث بعض القبائل الأمازيغية المتواجدة ببادية إقليم **حاحا** بالمغرب الأقصى فقال:

((يجلسون على حصر مفتولة من الوبر، ونبات الأسل، وينامون على أغطية مصنوعة من الصوف الطويل أيضاً؛ ويتراوح طولها بين عشرة أذرع وعشرين ذراعاً، ويستعملون طرفاً منها كفراش، وطرفاً آخر كإزار

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 254 ـ 255.
[2] نفسه، ص: 63.

وغطاء من فوقهم. وفي الشتاء يوضع جانب الغطاء الوبري في الداخل مما يلي الجسد، ويعكس الوضع في الصيف. والمخدات والوسائد؛ أصناف من أكياس الصوف الخشنة الصلبة)). [1]

وما يقال عن الأثاث يصح قوله عن المساكن؛ فإذا كان أعضاء القبائل الرحل يميلون إلى اقتناء الأثاث الخفيف والمطاوع؛ الذي يسهل طيه ونقله؛ دون أن يتعرض للتلف أو الكسر. وذلك خلافاً للقبائل المستقرة في الأرياف؛ التي يمتلك أعضاؤها أثاثاً أكثر جودة، وأثقل حملاً، وأيسر للكسر والعطب؛ إذ يشتمل على أدوات زجاجية وفخارية؛ فإن الرحل يحبذون أيضاً مساكن قابلة للفك والتركيب بسهولة ويسر؛ دون أن تكلفهم مجهوداً كبيراً.

ذكرنا فيما سبق أثاث المغاربة القدماء وفيما يلي عينات من مساكنهم. ففي البداية كانت بيوت المغاربة عبارة عن كهوف وكنن؛ ثم أضحت أكواخاً من الخوص والقصب وخياماً من الجلد والشعر. ولما احتكوا بالفينيقيين شيدوا بيوتاً من الطين والحجارة. وبقيت عادتهم هذه في البناء حتى في أيام الرومانيين.

وقد تكلم ش. أ. جوليان عن مساكن المغاربة أيام الرومان بقوله: **((إذا كان - في الظاهر - من المتيسر للحضارة الرومانية الهيمنة على المدن الواقعة في أرض منبسطة؛ فإنها لم تقدر حتى على الاقتراب من المواقع الجبلية ببلاد المغرب. ذلك أن المراكز التي كانت تطوق الجبال والطرق التي تخترقها؛ لم تكن وسائل لنشر الثقافة؛ بل أداة للقمع. ولقد حافظ البربر على عاداتهم في جبال الأوراس، وبلاد القبائل، والبيبان، والظهرة، والونشريس، وتسالة، والريف. إنهم لم يتخلوا لا عن:**

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 97.

لهجاتهم، ولا آلاتهم، ولا طقوسهم الجنائزية. ولا شك أن بعض سكان الجبال تعاطوا الفلاحة، وبنو منازل من حجر؛ ولكن الأغلبية الساحقة منهم كانت تلتجئ إلى بيوت من مدر، أو إلى الأكواخ؛ وكانت تعتمد في عيشها بالخصوص على الحيوان)). [1]

ووصف ابن خلدون مساكن المغاربة بقوله: ((**هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم؛ ملأوا البسائط والجبال؛ من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره؛ يتخذون البيوت من الحجارة والطين، ومن الخوص والشجر، ومن الشعر والوبر)).** [2]

فبخصوص سكان الحواضر في العهد الإسلامي؛ فهم يملكون دوراً محترمة في الغالب؛ لأن أغلب المدن في بلاد المغرب ترجع نشأتها إلى عصور قديمة جداً؛ فتعرضت مساكنها - مع مرور الوقت - لعمليات ترميم وتجميل؛ حسب مقتضى الحال. وهو ما يمكن ملاحظته في المدن المغربية **كطنجة وسبتة وتلمسان وشرشال والجزائر وقسنطينة وتونس وطرابلس.** ففي مدينة الجزائر على سبيل المثال يقول الوزان: ((**فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب**)). [3] وعن سكان المدية يقول: ((**ويرتدون لباساً أنيقاً ويسكنون دوراً جميلة**)). [4] أما قسنطينة: ((**فهي متحضرة جداً ومليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة**)). [5]

ثم يصف مساكن "**نقاوس**" فيقول: ((**ولا تشمل الدور في مجملها إلاّ على طابق أرضي؛ ولكن ذلك لا يمنع من كونها أنيقة بهيجة؛ لأن لكل واحدة منها حديقة مليئة بمختلف الأزهار؛ وخاصة الورد الدمشقي**

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 269.
[2] العبر، مج: 6، ص: 175.
[3] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 37.
[4] نفسه، ص: 41.
[5] نفسه، ص: 56.

والآس والبنفسج والبابونج والقرنفل وغيرها من الأزهار المماثلة لها في البهاء. ولجميع الدور تقريباً سقاياتها الخاصة. والجانب الآخر من الحديقة كروم معروشات جميلة ؛ تعطي أيام الصيف ظلاً ظليلاً ممتعاً جداً ؛ كثير البرود والنعيم حول الجزء المغطى من المسكن)). [1]

أما في تونس: فـ ((**معظم الديار حسنة المنظر ؛ مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه ؛ سقوفها مزدانة بالفسيفساء والجص المجزع بطريقة فنية عجيبة ، ومصبوغة باللازورد وغيره من الألوان الرفيعة. ذلك لأن الألواح وأخشاب البناء نادرة جداً... وتبلط الحجرات بمربعات لماعة ذات لون فاتح ، وتبلط أيضاً الساحات كذلك بقطع لماعة. وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي ، ومدخلها جميل ذو بابين أولهما يُفضي إلى الخارج ، والآخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل. ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها ؛ لأن هناك يجتمع الناس للتحدث مع أصدقائهم أو لقضاء بعض الشئون مع خدامهم)).** [2]

ومن المدن ذات المساكن الجميلة: **طرابلس وسجلماسة**. وبالمقابل فثمة بعض المدن التي لم يمتدح الوزان مساكنها مثل: **عنابة** التي يرى أن الدور الجميلة بها قليلة ، **وتبسة** التي يقول أن مساكنها قبيحة بخلاف أسوار المدينة. وكذا الحال عن **سوسة والحامة وقفصة ونفزاوة**. [3]

أما مساكن الريف فتتفاوت حالاتها حسب الأوضاع الاقتصادية والمعاشية. إذ ثمة من يسكن في الكهوف أو في أكواخ من الخشب والخوص ؛ بينما يسكن الميسورون منهم في بيوت مبنية من الطين

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 53.

[2] نفسه، ص: 77.

[3] نفسه، ص ص: 61. 63. 83. 92. 144. 145.

والحجر. وقد أشار الـوزان عنـد مـروره بجبـل "**داداس**" بالمغـرب الأقـصى ؛ إلى مساكـن أهـل ذلك الجبل ؛ فقال أن بعضهـم يسكنـون في كهـوف رطبـة ؛ بينما يسكـن آخرون داخل قرى في دور مبنية بحجر دون استعمال الطيـن. [1] ثـم يضيف: ((**ومنازلهـم كريهـة، منتنة برائحة الماعز القـذرة**)). [2]

ووصـف الـوزان مساكـن أهـل جبـل "**سْليليـو**" بالمغـرب الأقـصى ؛ بقولـه: ((**ليس لسكانه أي بيت من حجر ؛ وإنما كل أكواخه من قصب ؛ يستطيعون نقلها من مكـان إلى آخـر ؛ إذ يضطـرون إلى مغادرة الجبـل في الشتاء ليعيشوا في السهـل**)) [3] وعلى غرار سكان جبـل "**سليليـو**" يعيـش ـ أيضاً ـ أهـل جبل "**أزكـان**" في أكـواخ. وكذلـك الحـال بالنسبـة لأهـل جبـال "**زيز**" الذيـن يقـول عنهـم: ((**وسكـان هـذه البـلاد رعـاع أنـذال، يعيشـون في دور مبنية بأعمـدة طويلـة ؛ مطلية بالصلصال ومغطاة بسقـف من قـش ؛ والذيـن يملكـون منهـم دواب أكثر مـن غيرهـم ؛ يسكنـون أكواخـاً صغيـرة مغطـاة بالقصـب**)). [4] وهـذا هـو الوضـع بالنسبـة لسكـان جبـل "**مغـران**" الذيـن اضطرتهـم ماشيتهـم الكثيـرة عـلى التنقـل بهـا مـن مكـان إلى آخـر طلبـاً للعشب والطقس الملائم. وعلى هـذا فقد فضلـوا السكـن في أكـواخ يسهـل تفكيكهـا وتركيبهـا. فصنعـوا أكواخـاً مـن لـحى الأشجـار ؛ يثبتونهـا عـلى عـصي طويلـة ورقيقـة ؛ كمـا أن أسقفهـا متخـذة مـن قضبـان مقوسـة عـلى شكـل نصـف دائـرة. [5]

أمـا إقليـم **بـني راشـد** في المغـرب الأوسـط ؛ فيـرى **الـوزان** أن أهـل المرتفعـات بهـذه المناطق يسكنـون في دور لائقـة جـداً، ولهـا جـدران. ؛ بينمـا

[1] وصـف إفريقيـا، ج: 1، ص ص: 188 ـ 189.
[2] نفسـه، 189.
[3] نفسـه، ص: 360.
[4] نفسـه، ص: 369.
[5] نفسـه، ص ص: 187 ـ 188.

يسكن أهل السهول تحت الخيام التي تسهل عليهم متابعة ماشيتهم. وفي جبال "**غريان**" بليبيا الحالية يسكن الناس في دور وصفها الوزان بالقبح والفقر. وكذلك الحال بالنسبة لأهل **تاجورة** الذين يقول عنهم أنهم يسكنون في أكواخ من جريد النخل. [1]

ووصف التجاني مساكن أهل غمراسن في ليبيا الحالية فيقول: **((ومسافة غمراسن تحتوي على قلاع كثيرة أشهرها قلعة نِفِّيق ـ بكسر النون وتشديد الفاء ـ وقلعة حمدون؛ وكان منزلنا في فضاء متسع بين هاتين القلعتين؛ وقاعة نِفِّيق أحصنهما، وإليها يلجأ جميع أهل البلد إذا حل بهم عدو أو وصل إليهم جيش؛ وهو جبل مرتفع في السماء... يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الآدمي سلوكها إلا بالحيلة؛ وتؤدي تلك الطرقات إلى بيوت منحوتة في الجبل بعضها فوق بعض؛ من وسط الجبل إلى أعلاه؛ يسمونها "الغيران"))**. [2]

أما أهل البادية فمساكنهم لا تعدو أن تكون خياماً صنعت من وبر الجمال وشعر الماعز؛ لكي يسهل تفكيكها عندما يرغبون في التنقل وراء الكلأ؛ في رحلاتهم الدائمة. بينما يفضل **التوارق** المتواجدون في أقصى الصحراء اتخاذ خيامهم من جلود الحيوانات؛ إلى جانب الأكواخ التي تبنى بواسطة الخوص وبقايا الأشجار. هذا وقد يلجأ بعضهم إلى بناء أكواخ بالحجارة إذا ما قرروا إطالة إقامتهم في موضع معين.

6 ـ الأفراح والأعياد الدينية:

الفرح غريزة إنسانية عرفها الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض. وغريزة الفرح هذه؛ تقابلها وتعاكسها غريزة الحزن. وبما أن الإنسان مخلوق اجتماعي بطبعه ـ إذ يعيش بين مجموعة من جنسه؛ سواء كانت

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 2، ص ص: 26. 106. 111.

[2] رحلة التجاني، ص ص: 185 ـ 186.

أسرة أم عشيرة أم وحدة أوسع من ذلك ـ فهو يتأثر بمن يحيط به، ويؤثر فيهم أيضاً. لذا فإنه كلما انتابه فرح؛ انتقل فرحه بشكل طبيعي إلى من يعيش معه؛ وكذلك الحال عندما يصاب بحزن؛ فإن حزنه يؤثر في الناس القريبين منه. ولكي يتسنى للجميع التعبير عما ينتابهم من فرح وحزن؛ ابتكروا طقوساً خاصة بالفرح، وطقوساً تتعلق بحالات الحزن.

وفي هذا المجال سنتكلم بإيجاز عن طقوس الأفراح المدنية والأعياد الدينية التي عمل بها بعض المغاربة عبر تاريخهم. إذ أنهم ـ لا بد ـ قد عرفوا منذ عصور قديمة كيف يفرحون؛ وعليه فقد اتفقوا على إتباع طقوس معينة في أفراحهم؛ التي تحدث جراء عدة أحداث أو أسباب؛ منها: **الزواج، وإنجاب الأطفال، والختان، والتمكن من اصطياد الطريدة، والانتصار في معركة ما أو في الحرب، والفرح بعد الحصاد وجمع المحاصيل الزراعية والأعياد الدينية**..إلخ. ولكي يعبر عن الفرح؛ بدأ الإنسان الأول باستعمال صوته بالصراخ أو بالغناء، ثم شرع بعدها في تحريك أعضاء جسمه ـ طرباً ـ في رقصات تعبر عن قمة فرحه. وبهذا ابتكر الإنسان الغناء والرقص وخص بهما أفراحه؛ وبالتديج حرص على أن يكون الغناء والرقص جماعياً تشترك فيه الجماعة إلى جانب المعني بالفرح.

هذا؛ ولم تبق طقوس الأفراح على حالتها البدائية؛ حيث عرفت تطوراً متتابعاً مع مرور الزمن؛ وذلك بتطعيمها بأشكال مقتبسة من جهات أخرى؛ كما أضافت عليها آلات متنوعة ـ من وسائل الطرب ـ بهجة وجمالاً؛ إذ لم يعد الطبل وحده كافياً؛ فأدخلت المزامير وآلات النفخ الأخرى وآلات النقر، ثم الآلات التي تخرج الأصوات بواسطة الاحتكاك كالرباب وغيره. وإلى جانب التعبير عن الفرح بواسطة الغناء

والرقص ؛ ابتكرت المجتمعات المغربية القديمة مجموعة من الأفعال التي غدت بمثابة طقوس تتبع. غير أن لكل فئة أو قبيلة طقوساً تخصها.

ففي الأفراح التي تعقد لغرض الزواج ؛ ابتكرت مراسيم تختلف ـ في البلاد المغربية ـ من جهة إلى أخرى، ومن فئة إلى غيرها. وأقدم مثال أوردته المصادر التاريخية هو ذلك الخبر الذي ذكره **هيرودوت** ؛ في القرن الخامس ق.م ؛ عن ذلك الإغليد الليبي ؛ في مقاطعة مجاورة لمصر ؛ حيث قال أن رعايا ذلك الإغليد ـ عندما يزوجون بناتهم ـ يعرضونهن على الإغليد ؛ فيختار أجملهن ليفتضها بنفسه ؛ قبل أن يدخل زوجها بها. [1] ويبدو أن طقوساً كهذه لها علاقة بمعتقدات دينية غيبية.

وقد يكون السكان الأصليين قد تأثروا بما عاينوه في المدن البونيقية من احتفالات ؛ بحكم أن عدداً كبيراً منهم كانوا يعيشون في تلك المدن، ويشتغلون في بيوت البونيقيين ومزارعهم ومصانعهم. وعليه يمكن الاستشهاد بما كان يجري عند البونيقيين. وكمثال على ذلك ؛ الاحتفال الذي أقامه **حنون الكبير** في القرن الرابع ق. م ؛ حيث أقام حفلاً كبيراً أعدت فيه الولائم الكبيرة للشعب بسخاء عظيم. كما كانت تقام الحفلات الدينية في ساحات المعابد تشارك فيها مختلف الطبقات ؛ فتعقد خلالها المباريات الرياضية، والحفلات التمثيلية، وتمنح فيها بعض الهدايا ومبالغ مالية للجماهير. [2]

وقد ثبت أن الإغليد **مسنيسا** شجع النوميديين المتحضرين على عبادة الأوثان اليونانية : **سيريرس وقورية وديميتير** ؛ وبذلك أضحت تقام لها المراسيم والحفلات الخاصة بها. وقد دام هذا الأمر حتى عهد

---

[1] *L'AFRIQUE DU NORD DANS L'ANTIQUITE, p*: 70.

[2] أنظر هنيبعل، ج: 2، ص: 236.

يوغرطة. [1] ويبدو أن الرومان في عصرهم جذبوا السكان الأصليين نحو المشاركة في حفلاتهم الدينية: ((**وكانت الجماهير الغفيرة تحضر الحفلات المقامة عبادة للأمبراطور؛ من: طواف وأضاح ومآدب مقدسة. وَصَوَّرَ لَنَا ترتوليانوس [2] مشهداً رائعاً ـ وإن لم يكن أميناً ـ للأفراح الشعبية التي كانت تواكب الحفلات الدينة في آخر القرن الثاني: "إنه حقاً لتكريم عظيم هذا الذي توضع بمناسبته المواقد وأسرة الأكل في الساحة العمومية وتقام أثناءه المآدب في كل حي من المدينة، وتنقلب فيه المدينة إلى ماخورة ويختلط الوحل بالخمر ويتسابق القوم جماعات إلى الاعتداءات وضروب الخلاعة والمجون**)). [3]

ولما تغلغلت الديانة المسيحية في بلاد المغرب؛ تبنى المؤمنون بها الأعياد الدينية المسيحية. ولم تنمح إلا بانتشار الدين الإسلامي في هذه الديار. ومع هذا فقد بقيت بعض المظاهر الموروثة من الماضي البعيد تتبع من قبل بعض المغاربة. من ذلك ما ذكره الوزان بخصوص الأعياد التي تقام في فاس؛ وقد نسبها إلى مخلفات من العادات المسيحية؛ حيث قال: ((**ينطق فيها الناس بكلام لا يعرفون له معنى. ففي ليلة ميلاد المسيح يأكلون نوعاً من ثريد مصنوع من خضر متنوعة كالكرنب واللفت والجزر وغيرها، ويطبخون عدة أنواع من الخضر مجتمعة على حالها دون تقطيع؛ كالفول والحمص وحبوب القمح؛ ويأكلون هذا الطعام في تلك الليلة كما لو كان حلوى لذيذة. ويضع الأطفال في اليوم الأول من السنة أقنعة على وجوههم، ويتوجهون إلى الأعيان يطلبون منهم الفواكه وهم**

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 136.
[2] ترتوليانوس *Tertullianus* (160 ـ 220) من كبار العلماء المسيحيين.
[3] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 253.

ينشدون أغانيهم الصبيانية. وفي يوم القديس يوحنا توقد نيران كثيرة من التبن في جميع الأحياء)). [1]

أما عينات الأفراح والاحتفالات في العصر الإسلامي فيذكر بعضها الحسن الوزان (ولد في عام 888 هـ/1483م)؛ حينما وصف عرس تم في مدينة فاس. فقال أن مراسيم عقد الزواج تتم في المسجد بحضور عدلين لتحرير العقد؛ أمام: الزوج والزوجة، وبحضور عائلتيهما. وبعد إجراءات العقد تدعو العائلتان الحاضرين أو بعض الأصدقاء لتناول الطعام عند كل منها بالتداول.

ومن المراسيم المتبعة عند أخذ العروس إلى بيت زوجها؛ أن توضع العروس في صندوق مثمن الأضلاع وملفوف بثياب حريرية جميلة، ثم يحمل ذلك الصندوق بالعروس على رؤوس الحمالين؛ الذين يمشون في موكب محاط بكوكبة من أصدقاء أبوي العروسين؛ على أن تتخلل الموكب أصوات الطبول والأبواق طول المسافة الفاصلة بين بيتي العروسين؛ مروراً بالسوق. ويحاط ذلك الموكب بحملة المشاعل من الأصدقاء.

وعندما يصلون إلى الجامع يتوقف الموكب بغرض الصلاة في المسجد؛ ثم يودع الزوج والد الزوجة وأهلها؛ ويذهب إلى بيته حيث يدخل غرفته منتظراً عروسه؛ التي ستصل رفقة والدها وأخيها وخالها؛ إن تيسر ذلك؛ ولا يتركها مرافقوها إلا أمام غرفة الدخلة؛ أين تتسلم أم العريس العروس التي تدخلها الغرفة؛ وعند دخولها يضع العريس قدمه على قدم عروسه؛ وهي عادة متبعة عندهم.

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 258.

وخلال الخلوة ينشغل أهل الدار بتحضير الطعام؛ بينما تبقى واحدة من النساء أمام باب الغرفة لكي تستلم قميص العروس المخضب بدماء البكارة؛ لتعلن ـ بعد ذلك ـ إن كانت بكراً أم لا. فإن كانت بكراً تعلن ذلك بصوت مرتفع وتلوِّح بقميص العروس. فيقدم بعدها الطعام لتلك المرأة في دار العريس، ثم تنتقل إلى دار العروس مع بعض النسوة؛ حيث يقدم إليهن الطعام أيضاً. أما إذا اتضح أنها ليست بكراً؛ فإن الزوج يعيدها على أبويها، وينفض الناس دون تناول الطعام؛ ويلحق بذلك عار كبير بوالدي العروس.

وتتبع وليمة العرس الأساسية وليمتان أخريان: الأولى في الليلة التالية للدخلة؛ يحييها النساء فقط، والثانية تتم بعد أسبوع من ليلة الدخلة؛ تدعى إليها عائلة الزوجة. وفي اليوم السابع يخرج العريس من بيته ويذهب إلى السوق؛ حيث يشتري بعض الأسماك التي يقدمها إلى أمه لكي ترميها على قدمي العروس تيمناً بالخير الوفير. ويقول الوزان أن هذه العادة موروثة من زمن قديم.

وتقام ـ من جهة أخرى ـ وليمتان أخريان في بيت والد الزوجة: الأولى في الليلة السابعة ليوم خروج الزوجة من بيت أبيها لبيت زوجها؛ يحييها أصدقاء الأسرة؛ حيث يسهرون طوال الليل على أنغام الغناء ورقص الراقصين والراقصات. أما الوليمة الثانية فتتم في اليوم الموالي؛ عندما تحضر النسوة المختصات بتجميل العروس؛ فيقمن بتزيينها، ومشط شعرها، وتلوين خديها بالحمرة، وتخضيب يديها ورجليها باللون الأسود؛ مع القيام برسم بعض الرسوم الجميلة عليها. وبعد تمام ذلك توضع العروس على منصة؛ حتى يتمكن الجميع من مشاهدتها، ثم يقدم الطعام للسيدات المتخصصات في التجميل.

وعندمـا تعـود الزوجـة إلى بيـت الزوجيـة تقـام حفلـة أخـرى تحـيى بالموسيـقى والإنشـاد والرقـص حـتى الصبـاح. ثـم يضيـف الـوزان قائـلاً: ((**ويستمر الرقص طوال الليل على أنغام الموسيقيين والمنشدين، ويتناوب الغناء والعزف في نحو مائة من الألحان العذبة اللطيفة. وفي كل مرة يرقص راقص واحد؛ فإذا انتهى من رقصه أخرج من فمه قطعة نقود ورمى بها على بساط المغنين. وإذا أراد أحد الأصدقاء أن يكرم الراقص دعاه لأن يجثو على ركبتيه أمامه وألصق على وجهه قطعاً من نقود ينزعها المغنون بعد ذلك فوراً. وترقص النساء بمعزل عن الرجال، ولهن حفلاتهن الراقصة ومغنياتهن وعازفاتهن**)).[1] وهـذا العـرس ليـس إلا عينـة بسيطـة عما كـان يجري في بلاد المغرب كلهـا؛ لأن ثمـة بعـض الاختـلاف والتبايـن حسب ما تقتضيه عـادات كل جهة وكل فئة من المجتمعات المغربية.

وكلفـة الأعـراس في بـلاد المغـرب تتفـاوت مـن عائلـة إلى أخـرى؛ فالمتيسـرون منهـم يبالغـون في البـذخ والإسـراف، أمـا العائـلات محـدودة الدخـل فيكتفـون بالضـروري؛ سـواء في الصـداق والألبسـة والأثـاث أو في موائـد الطعـام والمراسيـم الاحتفاليـة. وكمثـال عمـا تقدمـه عائلـة عريـس ـ متوسطة الحـال ـ من صداق لأسرة الزوجة تقدم: ((**ثلاثين مثقالاً نقداً، وجارية سوداء قيمتها خمسة عشر مثقالاً، وقطعة قماش من نسيج الحرير والكتان ذات ألوان مختلفة متقاطعة، ومناديل صغيرة من حرير يغطى بها الرأس. وتقضي العادة أيضاً بأن يقدم زوج أحذية مطرزاً بطريقة جميلة جداً، وزوجين من القباقب المطرزة كذلك بصنع عجيب، وعدداً من حلي الفضة، وأشياء أخرى كالأمشاط والعطور والمراوح الأنيقة**)).[2]

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 257.

[2] نفسه، ص: 254.

ولا يقتصر الإسراف والبذل على عائلة العريس فحسب ؛ بل ينجر والد العروس أيضاً مع تيار المصاريف الجارف ؛ على الرغم من كونه ليس ملزماً بتقديم شيء لبيت الزوجية. ومع هذا فقد يدخل والد العروس المنافسة فيقدم أكثر مما تقدمه عائلة العريس ؛ كل ذلك من أجل المفاخرة والتباهي. ويقول الوزان أن بعض العائلات قد افتقرت نتيجة لهذا الإسراف الزائد عن الحد في الأعراس.

أما أهل البادية فإن الاحتفال بالزواج عندهم بسيط للغاية ولا يتطلب تكاليف كثيرة كما جرت العادة لدى أهل الحواضر. وكل ما يلزم العريس هو الصداق الذي يكون في الغالب عبارة عن رؤوس من الجمال أو الأغنام ؛ يتقرر عددها حسب مستوى العريس المادي ومنزلة أبويه المعنوية. وكل ما تقوم به العروس هو التزين لزوج المستقبل ؛ ويصف الوزان ذلك بقوله : ((**يخضبن بالحناء وجوههن وصدورهن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع ؛ لأن ذلك مستحسن عندهن. وقد اتخذ العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا إلى سكنى البلاد الإفريقية ؛ ولم تكن معروفة عندهم من قبل**)). [1]

وتجري حفلات الزواج لدى قبائل **التوارق** في **الهقار** بمراسيم بسيطة للغاية. وتتم في الغالب بتكليف بعض الأقارب والأصدقاء بمهمة الخطبة التي تسمى عندهم (**إبادراهن**). وقد يقوم والد العريس بنفسه بخطبة العروس فيقول لأهلها : ((**إني أريد خيمة وحصيراً لولدي**)). [2] وتعتبر هذه الجملة بمثابة طلب الزواج ؛ عندها يتفاوضون بخصوص المهر والشروط الضرورية. ويكون الصداق في الغالب عبارة عن بعض النياق ؛ تبعاً للعادة المتبعة في كل قبيلة من قبائلهم ؛ وطبقاً للمنزلة الاجتماعية

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 64.

[2] أنظر: *HOGGAR, P P*: 160 – 162. وبدو الطوارق بين الثبات والتغيير، ص ص: 99 ـ 100.

لكل قبيلة وثروة العريس. على أن يتكفل الزوج بإعداد خيمة الزواج. وعندما يتفق الطرفاق يقام عرس الزواج بين أهل الزوجة؛ فيرقص الراقصون على أنغام التيندي والإمزاد، ويسهر المحتفلون طوال الليل في سماع المغنيات التارقيات وهن ينشدن الأشعار الجميلة العذبة.

ومن عوائدهم القديمة أن يفصل بين الزوجين في خيمة الدخلة بكدس من الرمل يوضع داخل الخيمة؛ بحيث يمنع الزوجين من الاختلاط لمدة ثلاثة أيام؛ بدءاً بليلة الدخلة. ومن عادتهم أنهم يقولون للعريس في الليلة الأولى أن العروس تكون أخته، وفي الليلة الثانية تصبح أماً له، وفي الليلة الثالثة تغدو بمثابة حماته، أما الليلة الرابعة فإنهم يزيلون كدس الرمل؛ ويعتبرون العروس زوجة محللة. وهذه العادة لم يعد لها اعتبار في هذا الزمن.

والجدير بالذكر هو أن العروس تبقى عند أهلها مدة قد تمتد من سنة إلى خمس سنوات؛ وربما ذهبت أخيراً إلى خيمة زوجها وهي تجر معها عدداً من الأطفال الذين أنجبتهم بين أهلها؛ إذ يبقى الزوج طوال تلك المدة يتردد على زوجته وهي بين أهلها. ويعللون ذلك الأمر بقولهم أن الزوجين يحتاجان لهذه الفترة لتقوية أواصر الزواج، والتمكن من التعارف بشكل عميق بينهما، والتكيف مع طباع بعضهما، والتدرب على تحمل المسئولية من قبل كل منهما.

وثمة احتفلات أخرى يحرص على إقامتها أهل المغرب كله؛ منها: حفلات إنجاب الأطفال وختانهم. ويصف الوزان العادات المتبعة في ختان الأطفال بمدينة فاس؛ فذكر أنهم يقيمون وليمة الختان في اليوم السابع من ولادة الطفل. ويقوم أحد الحلاقين بختان الطفل؛ بعد تناول الطعام وتلقي التبرعات والهدايا من أيدي أصدقاء والد الطفل. وبعد عملية

الختان يقام حفل بالموسيقى والرقص. وإلى جانب حفل الختان تحتفل الأسرة أيضاً ببدء ظهور أسنان الأطفال ؛ فيعدون الولائم لتلك المناسبة، يحضرها مجموعة من الأطفال.

وثمة احتفالات أخرى تقام للأطفال ببلدان المغرب الإسلامي ؛ يعدها الآباء لأبنائهم الذين نجحوا في دراستهم ؛ خاصة عند ختم القرآن الكريم ؛ ويصف الوزان أيضاً هذا الحفل بقوله : ((**حتى إذا ختم الطفل القرآن وحفظه كله ؛ أقام الأب وليمة كبيرة دعا إليها جميع التلاميذ، وألبس الطفل لباساً فخماً وكأنه أمير، وأركبه متن جواد أصيل ثمين يعيره إياه أمير المدينة الملكية (فاس الجديد)، كما يعيره اللباس أيضاً. ويركب الأطفال الآخرون متون الخيل ويصحبونه إلى قاعة الاحتفال ؛ وهم ينشدون أناشيد في تمجيد الله (تعالى) ورسوله محمد (عليه السلام) ؛ ثم تكون الوليمة التي يحضرها أصدقاء الوالد ؛ ويقدم كل واحد منهم هدية للمعلم ؛ كما يقدم له الطفل المحتفل به كسوة جديدة ؛ تلك هي العادة المتبعة**)). [1]

وبالإضافة إلى هذا تقام أيضاً احتفالات أخرى يشارك فيها الأطفال بشكل أساسي ؛ مثل مولد الرسول محمد r . حيث يرسل الآباء مع أبنائهم إلى المدارس الشموع الجميلة المزخرفة ؛ التي قد يصل وزن الواحدة منها أحياناً إلى ثلاثين رطلاً وأكثر. يقوم المعلمون بإشعالها اعتباراً من بزوغ الفجر ؛ ولا تطفأ إلا عند طلوع الشمس. وخلال الليل يدعو المعلمون المنشدين لإحياء ليلة المولد بالمدائح النبوية، ولا ينتهي ذلك الحفل إلا مع الصباح.

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 261.

ومن بين الاحتفالات التي تقام في بلاد المغرب احتفالات معروفة عندهم بـ"**ينِّيِّر**" وهو كما يبدو "**الناير**" المعروف لدينا في هذا الزمن ؛ وهي احتفالات يقول عنها بعض القدماء أنها "**النيروز**" المعروف لدى أهل فارس. وقد ورد نص في كتاب **الْمُغْرِب في حُلَى الْمَغْرِب** وردت فيه ترجمة للشيخ النحوي الأديب أبي عمران موسى الطرياني ؛ جاء فيها : ((**سكن قصر عبد الكريم من بر العدوة ، وهنالك قرأت عليه ، ووجدت فيه من اللطافة والظرف ما لم أزل أتحدث به. وأنشدني من شعره قوله في المدينة [1] التي يعملها أهل المغرب من العجين بأصناف وألوان في النّوروز [2] المعروف عندهم بينِّير.:**

مَدينَــــة مُصَــــوَّرَهْ تحارُ فيها السَّحَرَهْ

لـم تبْنِها إلاَّ يَـدَا عَذْراءَ أو مخدَّرَهْ

بدت عروساً تُجْتَلَى من دَرْمَكٍ مُزَعْفَرَهْ [3]

ومالهـــا مَفاتِــحٌ إلاَّ البَنَانُ العَشَرَهْ)). [4]

وقد وردت هذه الرواية ـ أيضاً ـ مع الأبيات نفسها في **كتاب نفح** الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري. [5] وبذلك يتبين أن المغاربة القدماء كانوا يحتفلون **بعيد النيروز أو النوروز** ؛ كما كان يحدث في البلاد المشرقية والأندلس ؛ تقليداً لاحتفالات **رأس السنة الشمسية** المسماة **بالنيروز** ؛ التي اعتمدتها الدولة العباسية بتأثير من الفرس المتحكمين في

---

[1] وهي نموذج لمدينة تصنع من العجين وتخبز حتى تنضج؛ وتقدم كطعام شهي للمحتفلين.

[2] النوروز أو النيروز: وهو عند الفرس أول يوم من أيام السنة الشمسية، وهو عيد يفرحون به.

[3] الدرمك:الزعفران الناعم الدقيق جداً

[4] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 294.

[5] النفح، ج: 4، ص: 63.

مقاليد الدولة. غير أنه بقي علينا التأكد من صحة مقولة **موسى الطريان** من كون عيد **النّير** هو بالتحديد عيد **النيروز**.

وهذه كلها عبارة عن عينات بسيطة لما كان يجري من أعياد واحتفالات ببلاد المغرب كلها. لأن ما كان يحدث من أعراس في هذه الديار لا يمكن حصره في هذه العجالة ؛ خاصة إذا علمنا أن كل بيت من البيوت في هذه البلاد عرفت عرساً أو أكثر ؛ كما أن الأعياد الدينية يهتم بها كل الناس بدون استثناء. هذا إلى جانب ما تختص به كل قبيلة مغربية من مراسيم احتفالية تميزها عن غيرها من القبائل. ثم إن بلاطات دول المغرب تزدحم بالحفلات المتنوعة في مناسبات عديدة ؛ منها ـ على سبيل المثال ـ الاحتفالات التي كانت تقام في بلاط **الدولة الزيانية بتلمسان** ؛ خاصة بلاط **أبي حمو موس الثاني**. ويمكن إجمال أنواع تلك الحفلات في : [1]

ـ العروض العسكرية.

ـ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

ـ الاحتفال باليوم السابع للمولد النبوي.

ـ الاحتفال بختم القرآن.

ـ الاحتفال بالعيدين : الأضحى والفطر.

ـ الاحتفال بيوم الجمعة.

ـ الاحتفال بتدشين المنشآت.

ـ الاحتفال بالنصر في المعارك والفتوحات.

[1] أنظر كتاب نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ص ص: 276 ـ 290.

7 ـ المدافن:

سبق أن قلنا بأن للفرح طقوسه التي يشترك فيها الأقرباء والأصدقاء؛ كما أن للحزن طقوسه أيضاً؛ ينشغل بها الأقارب والأصدقاء كذلك؛ فيعبرون عن حزنهم بوسائل وطرق أخرى تختلف عما يجري في حال الفرح. والحزن يقابله الفرح ويعاكسه؛ ففرحك يجلب الحزن لخصمك؛ بينما يسوق حزنك الفرح لعدوك. وأهم العوامل والأسباب التي تجلب الحزن هي: **موت الأقارب والأحباب، والفراق، والخسارة في المعركة، والتعرض للكوارث الطبيعية.**

وأهم دواعي الحزن على الإطلاق هي **الموت** التي تأخذ الأقارب والأصدقاء؛ لذا فقد اعتنى الإنسان الأول بشعائر دفن الموتى. وترجع هذه العادة إلى حقبة قديمة جداً؛ وقد أشار إليها القرآن الكريم؛ حينما قص خبر أبني آدم عليه السلام (هابيل وقابيل أو قايين): **(***فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينْ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ***)**. [1]

إذن فقد تعلم الإنسان كيف يواري سوءة أقاربه وأحبابه، بأمر من الله سبحانه وتعالى. وهذا ما يفسر التلاحم والتكامل بين شعائر الدفن والطقوس الدينية في شتى الظروف والأماكن والأزمنة. وعليه؛ فاعتباراً من اليوم الذي لَقَّنَ فيه ذلك الغرابُ ابن آدم أسلوب الدفن؛ تمسك

---

[1] سورة المائدة، الآيتان: 30 . 31.

أبناؤه وأبناء أبنائه بهذه العادة إلى ما لا نهاية. وبذلك دخلت شعائر الدفن ضمن الطقوس الدينية في معظم المجتمعات الإنسانية.

وهكذا نجد أن أهم المعالم الحضارية لدى أمم كثيرة تقوم على أضرحة متنوعة الأشكال. ففي مصر - المتاخمة للبلاد المغربية - تُعْطَى أهمية كبيرة للأضرحة وللمدافن. والمثل الذي تقدمه الأهرامات يعتبر من أبرز الأدلة على ذلك. وهذا ما عرفه أيضاً الإغريقيون والقرطاجيون الذين كانوا يعتنون بنقش توابيت الموتى قبل دفنهم. والرومان كذلك يتفننون في نقش التوابيت ويعتنون بطقوس الدفن.

أما المغاربة القدماء فقد مروا بمراحل متعددة؛ تطورت فيها أساليب الدفن عندهم. فالأولون منهم كانوا يدفنون موتاهم في المواضع التي يعيشون فيها؛ مثل الكهوف والكنن. ثم تطورت أساليب الدفن لديهم. فأضحوا يدفنون موتاهم في مقابر خاصة مجاورة لأماكن عيشهم؛ داخل خيام وفي الهواء الطلق. وقد تدرجوا في أشكال القبور والمدافن؛ ففي البداية - وبالتحديد في العصر الحجري الحديث (**النيوليتي**) - شرع الإنسان المغربي في إعداد مقابر يدفن فيها الموتى من عائلته؛ ثم توسعت المقبرة حتى أضحت تختص بأبناء العشيرة كافة. وكان اتجاه قبورهم نحو الشرق في مواجهة شروق الشمس؛ وربما كان هذا بتأثير من المصريين القدماء.

وتعود الأسباب في دفن الموتى عند المغاربة إلى دواعي دينية موروثة؛ بالإضافة إلى رغبتهم في حماية جثث موتاهم من اعتداء الحيوانات الضارية؛ فكانوا يحفرون قبور موتاهم في الصخور، أو يقيمون على القبور مجموعة من الحجارة المتراكمة فوق بعضها؛ ثم أصبحوا يضعون فوق القبر صفائح كبيرة من الحجر؛ تمنع كل اعتداء على القبر.

ويقـول المختصـون أن المغاربـة الأول اهتـدوا إلى أسلـوب "**الحوانيـت**" بغـرض دفـن المـوتى في نهايـة العصـر الحجـري الحديـث (**نيوليـتي**). وربما اهتدوا لذلك بتأثير إغريقي. [1] والحوانيت هذه عبارة عن فجوات تحفر في المنحدرات الصخرية ؛ بحيث تبدو ـ من بعيـد ـ كفتحـات مظلمـة في المرتفـع المحفورة فيه. ويقدر طول الواحد من تلك الحوانيت في حدود المتر ؛ بينمـا يصـل علوهـا حـوالي 80 سـم فقـط. وتنتشـر الحوانيـت غالبـاً في المناطـق الشرقيـة ؛ بينمـا تقـل وتنعـدم في المناطـق الغربيـة وفي الصحـراء مـن بـلاد المغرب.

وعرف المغاربة ـ نتيجة للتأثير الخارجي ـ أساليـب جديـدة في الدفـن ؛ حيـث أضحـوا يدفنـون موتاهـم في قبـور ؛ تكـدس فوقهـا الحجـارة حـتى تصبح ركاماً على شكل مخروط غير تام. ويسمى هذا النوع مـن القبـور: "**الجثوة أو البازينـة**" *BAZINAS* وهـي متنوعـة الأشكـال ؛ منهـا مـا تشبـه قاعدته حب الصنوبر الكبير، أو حب الإهليلج، ومنها ما هي مستديـرة، أو مـا هـي مربعـة. كمـا أن تلـك **الجثـوات أو البازينـات** تتفـاوت في مـدى علوها وفي طول قطرهـا ؛ إذ يتـراوح قطرهـا مـا بيـن: 6 أمتـار ونصـف، و 20 متراً. هذا وقد عرفت **البازينات** انتشاراً واسعاً عبر بـلاد المغـرب كلهـا مـن: شرقهـا إلى غربهـا ومـن شمالهـا إلى جنوبهـا. كمـا عرفـت **البازينـات** أيضـاً تطـوراً ملحوظـاً بحكـم المؤثـرات الخارجيـة ؛ حيـث أصبـح شكلهـا الخارجي يدل على عناية خاصة. [2]

ومـن الأشكـال الـتي اتخذهـا المغاربـة القدمـاء كقبـور ؛ "**المصاطـب الحجرية** *DOLMENS*" وهي عبـارة عـن حجـارة مسطحـة تشبـه الطـاولات

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 79.

[2] للمزيد من الفائدة يستحسن الرجوع إلى كتاب قزال *Les monuments antiques de l'Algérie* وكتاب أضرحة الملوك النوميد والمور لرابح لحسن.

توضع على أحجار في الأجناب ؛ بحيث تقوم مقام الحائط ؛ الأمر الذي يجعل الفراغ الداخلي بمثابة الغرفة. وتحت الحجر المسطح يدفن الميت. وتنتشر عادة الدفن تحت المصاطب هذه في الشرق الجزائري بالخصوص.

وإلى جانب المصاطب توجد أنواع أخرى اتخذت كقبور ؛ منها "**الدوائر الحجرية**" *CROMLECHES* ؛ التي هي عبارة عن مدافن محاطة بسياج حجري ؛ على شكل دائرة أو مستطيل ؛ يدفن في داخل تلك المساحة الأموات. وهذا الشكل من المقابر يتميز بالبساطة، ويتواجد في معظم مناطق الجزائر.

وأهم الأشكال الهندسية المخصصة للدفن في بلاد المغرب هي القبور المسماة **بالقلاعية أو الشوشات** ؛ وهي شبيهة بالقلاع أو الأبراج المستديرة الشكل ؛ ويتراوح علو الواحدة منها بين 2 م و 3 م ؛ أما قطرها فهو ما بين 3م و 5م. وهي متواجدة بكثرة في الشرق الجزائري ؛ وبالتحديد في **الأوراس وشمال الحضنة والصحراء الوسطى**. وقد عرفت هذه القبور **القلاعية** تطوراً ملحوظاً بفضل المؤثرات الخارجية ؛ فأصبحت تماثل الأهرام في هندستها ؛ حتى وإن كانت أصغر حجماً منها ؛ وتنتصب على قاعدة مستديرة أحياناً ؛ على خلاف الأهرامات. ومن بين النماذج المهمة لهذه القبور: "**المدراسن**" القريب من **باتنة**، والقبر المسمى "**بقبر الرومية**" القريب من **تيبازا**.

تلك هي الأشكال والأصناف المعروفة لقبور المغاربة قبل دخول المسيحية إلى هذه الديار ؛ أما في العهد المسيحي فأصبح معتنقو هذه الديانة يضعون موتاهم داخل توابيت تدفن في حفرة ثم يبنى بيت صغير فوق الحفرة. وهذا ما جرت عليه العادة عند المسيحيين في هذه الأيام. أما بقية سكان المغرب ـ من الوثنيين ـ فقد ظلوا متمسكين بعادتهم القديمة في

الدفـن إلى أن سـادت الديانـة الإسلاميـة في هـذه الربـوع كافـة ؛ خاصـة في عهد الموحدين. وفي العهد الإسلامي أضحت القبور بسيطة في كـل شيء ؛ إذ هي عبارة عن حفرة ضيقة ؛ يعلوها كدس من التراب مـن غيـر بنـاء أو عنايـة تذكـر. ومـع مـرور الوقـت و بفعـل الانغمـاس في مباهـج الحضـارة أضـحى بعـض المسلميـن المرفهيـن يقيمـون فـوق قبـور موتاهـم بنـاء مـن الحجارة والرخام.

8 ـ الشعائر الجنائزية :

ذكرنا فيما سبق الأشكال التي كانت عليها قبور المغاربة منذ عهـود قديمة جداً. وبـقي الآن الحديـث عـن الطقـوس المتبعـة في الجنائـز. فطبقـاً لمـا جـاء في المصـادر ؛ يكـون المغاربـة القدمـاء قـد نوعـوا في أساليـب الدفـن ؛ وذلك حسب المناطق، والمعتقدات الدينية الخاصة بكل مجموعة قبلية. هذا إلى جانب المؤثرات الخارجية. فمنهـم مـن قلـد الإغرقيـن والقرطاجيـن في حرق جثة الميت، [1] ثم دفن رمادها. ومنهم من فضل نزع لحم الجثة عـن العظـام وخلطهـا قبـل دفنهـا. ويعلـل بعضهـم هـذا التصـرف بأنهـم كانـوا يخافون مـن عـودة الميـت. ومنهـم مـن كـان يدفـن الميـت بعـد طي الجثـة في وضعية محنية ومنكمشة (وضعية القرفصـاء) ؛ وتوضـع في القبـر عـلى أحـد الأجناب. ومنهم من يدفن الجثة في وضع ممدد ؛ ولكـن هـذه الحـال نـادرة عندهـم.

وكانوا في أحيان كثيرة يدفنون مجموعة من الأموات في قبر جمـاعي. وقـد جـرت العـادة عنـد المغاربـة تلويـن موتاهـم بالمغـرة (صبغـة حمـراء) ؛ ابتداء من عصر ما قبل التاريخ وحتى القرن الثاني الميـلادي ؛ كمـا كانـوا

---

[1] ثمة رأي يقول أن عادة الحرق عرفت عند المغاربة انطلاقاً من الجهات الغربية؛ وبذلك تكون هذه العادة انتقلت إلى شرق البلاد بواسطة المغاربة أنفسهم وليس عن طريق القرطاجيين.

يدفنون مع موتاهم بعض الأواني البلورية والخزفية، وبعض الأثاث والحلي. وهذا طبعاً يبعث على التفكير في أنهم كانوا يعتقدون في حياة أخرى بعد الممات. [1] ويبدو أن هذا كان بتأثير من المصريين القدماء. [2]

والذي يستحق الذكر ـ هنا ـ هو بقاء عادة الدفن في الكهوف وبوضعية الانطواء والقرفصاء إلى عصر متأخر جداً؛ أي في بداية القرن الثامن الهجري الموافق لبداية ق 14م؛ على الرغم من انتشار الدين الإسلامي. فهذا **عبد الله التجاني** يصف طريقة الدفن في قرية قريبة من **غمراسن** بليبيا الحالية؛ يعرف أهلها باسم "المقدمين" فيقول: ((**ومن سيرة هؤلاء المقدمين أن لا يدفنوا موتاهم إلا على هيأة الجالس في كهوف متسعة؛ يحفرونها لهم؛ ويتأكد عندهم الدفن على هذه الصفة؛ في من توفي وترك ولداً؛ فإنهم يقولون: "عز الولد لا ينقطع ما دام أبوه جالساً". هذه عبارة من سألته منهم عن ذلك. وليس لأهل غمراسن ولا لأكثر ساكني هذا الجبل في الحقيقة من الإسلام إلا الاسم فقط؛ ولا تجد منهم من يعرف للصلاة اسماً؛ فضلاً عن أن يقيموا لها رسماً، وكذلك جميع الشرائع... ولا يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم**)). [3]

إذن فعادة الدفن بالأساليب القديمة بقيت في البلاد المغربية إلى عصر قريب جداً. وهذا ما تجليه طريقة الدفن في الكهوف، والطقوس المتبعة في دفن الميت جالساً عوض أن يكون ممدداً. وإلى جانب هذا؛ فإن الأساليب المتبعة في كثير من الجنائز ببلاد المغرب خلال سنوات ليست بعيدة؛ تؤكد هي الأخرى بقاء العادات القديمة التي تتنافى مع الشريعة الإسلامية؛ من ذلك ما ذكره الحسن الوزان عندما وصف جنازة بمدينة فاس في بداية

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 80.
[2] أضرحة الملوك النوميد والمور، ص: 256.
[3] رحلة التجاني، ص: 187.

القرن العاشر للهجرة الموافق لبداية ق 15م؛ حيث قال: ((**تجتمع النساء إذا مات لهن زوج أو أب أو أم أو أخ؛ مرتديات لباساً خشناً، ويلطخن وجوههن بسواد دخان القدور، ثم يستدعين أولئك الأنذال الذين يتجولون وهم لابسون ثياب النساء؛ ليضربوا على دفوف مربعة، ويرتجلون أنظاماً حزينة مبكية في رثاء الميت. وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخدشن صدورهن ووجوههن حتى يسيل منها الدم بغزارة، وتنتفن شعورهن نائحات مولولات. يدوم ذلك سبعة أيام؛ وبعد أربعين يوماً؛ يستأنفن نحيبهن لمدة ثلاثة أيام. تلك هي عادة العامة؛ أما الأعيان فحزنهم أخف؛ يبكون موتاهم دون ندب ولا خدش؛ ويحضر أصدقاؤهم لتقديم التعازي، ويأتيهم الطعام من جميع الأقارب كهدية؛ لأنهم لا يطبخون أي طعام ما دام الميت في الدار. ولا تسير النساء في موكب الجنازة ولو كان الميت أباً لهن أو أخاً**)). [1]

ويبدو أن هذه العادة الهمجية بقيت إلى العصر الحديث؛ إذ أذكر الآن شيئاً منها عندما كنت صغيراً؛ حيث يستأجر أهل الميت امرأة تسمى **النادبة**؛ تنحصر مهمتها في تهييج الحاضرات من النساء بالحداء ببعض المنظومات الحزينة؛ فتثير نفوسهن وتشحن عواطفن؛ فيتعالى صراخهن؛ وتثور غرائز الحزن لديهن، فيبكين بأصوات عالية مفجعة، ويندبن وجوههن ويمزقن ملابسهن. وهذه العادة كانت معروفة أيضاً عند عرب الجاهلية.

9 ـ *الطقوس الدينية*:

كل ما ثبت حتى الآن عن ديانة المغاربة القدماء؛ هو اعتقادهم في ألوهية بعض الكواكب ـ كالشمس والقمر ـ والأوثان الحجرية وبعض

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 258 ـ 259.

الأشجـار ومنابـع الميـاه، وبعـض الحيوانـات كـ: الكبـش (كبـش أمـون)، والثـور، والأسـد، والفيـل (أفريكـا). وذلـك بسبب اعتقادهـم في الجـن الـتي تتقمـص تلـك الأشيـاء. [1] والراجـح أنهـم كانـوا يعبـدون بعـض عظمائهـم ومشاهير ملوكهـم؛ إذ ثبت أنهـم أقامـوا معبـداً في "**دقـة**" للإغليـد **مسنيسـا**. وقـد صنعـوا بعـض التماثيـل والأشكـال الـتي ترمـز لمعبوداتهـم؛ فمثـلاً صـوروا كبشـاً؛ تخيلوا علـى رأسه قرصـاً مثـل قـرص الشمـس؛ وهـذا طبعـاً يتفق مـع "**كبـش أمـون**" المقـدس عنـد المصريـين القدمـاء. ثـم اتخـذوا جلـد الفيـل لتغطية رأس تمثال سمـوه "**أفريكـا**"؛ وقـد بـقي هـذا إلى القـرن الأول قبـل الميلاد. كمـا قدسـوا أوثـان الفينيقيين مثـل: **بعـل ـ حمـون وتانيـت**.

ويبـدو أنهـم تأثـروا بديانـات الأمـم الـتي اختلطـوا بهـا كـ: **المصريـين والإغريقيين والفينيقيين والرومانيين**؛ هـذا بالإضافـة إلى مؤثـرات أخـرى زحفـت مـن الجنـوب (إفريقيـا السـوداء). كمـا نقـل إليهـم الفينيقيـون معبـودات أخـرى مصدرهـا مصـر وبـلاد الرافديـن وبحـر إيجـة؛ مـن ذلـك: **إيزيـس وأوزيريـس وهوريـس**. وقـد تكـون عبـادة النـار أيضـاً معتمـدة في بـلاد المغـرب. [2]

---

[1] تاريـخ إفريقيـا الشماليـة، ج: 1، ص: 78.

[2] قـال الـوزان عـن ديانـة المغاربـة القدمـاء: ((كـان الأفارقـة فـي الزمـن القديـم وثنييـن؛ عـلى غـرار الفـرس الذيـن يعبـدون النـار والشمـس، ويتخـذون لعبادتهمـا معابـد جميلـة مزخرفـة توقـد داخلهـا نـار تحـرس ليـل نهـار حـتى لا تنطفئ؛ كمـا كـان يفعـل ذلـك فـي معبـد الآلهـة "فيستـا" عنـد الرومـان. ذلـك مـا لا تفتـأ تواريـخ الأفارقـة والفـرس تتحـدث عنـه. ومـن المعلـوم أن أفارقـة نوميديـا وليبيـا كانـوا يعبـدون الكواكـب ويقربـون إليهـا القرابيـن، وأن بعـض الأفارقـة السـود كانـوا يعبـدون "كيغمـوا" ومعنـاه في لغتهـم رب السمـاء. وقـد أحسـوا بهـذا الشعـور الحسـن دون أن يهديهـم إليـه أي نـبي أو عالـم... وقـد ظـل سكـان بـلاد البربـر وثنييـن مـدة طويلـة مـن الزمـن؛ واعتنقـوا المسيحيـة قبـل محمـد (u) بمائتيـن وخمسيـن سنـة... وبعـد مـرور نحـو مائـتي سنـة علـى وفـاة محمـد (u) أصبـح سكـان بـلاد البربـر مسلميـن إلا القليـل منهـم... واستمـر ذلـك إلـى أن جاء الشيعيون [المقصود هنا الأدارسة وليس الشيعة] الفـارون مـن الخلفـاء ودخلـوا إلـى بـلاد البربر؛ فتمكن الإسلام حينئذ في هـذه البلاد بصفة نهائية)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 67 ـ 68.

ولا تفوتني - هنا - الإشارة إلى أن عبادة **الكبش** بقي لها أثر بالمغرب الأقصى ؛ حتى القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي. وقد تكلم عن هذا الأمر **عبد الله البكري** في كتابه **المسالك والممالك** ضمن الفصل المخصص للطريق بين مدينة **أغمات والسوس** ؛ حيث قال: ((**ويلي بني لماس قبيل من البربر في جبل وعر مجوس ؛ يعبدون كبشاً ؛ لا يدخل أحد منهم السوق إلاّ مستتراً**)). [1]

بقي الآن الحديث عن شعيرة دينية قديمة كانت تتبع في بلدان كثيرة ؛ منها مصر الفرعونية. وهذه الشعيرة هي ما يعرف "**بالزنا المقدس**" أو "**الدعارة المقدسة**". وقد ثبت أن هذه الشعيرة كانت معروفة أيضاً لدى المغاربة القدماء. وربما انتقلت إليهم عن طريق مصر المجاورة. منها الرواية التي ذكرها هيرودوت بخصوص ذلك الإغليد الليبي المجاور لمصر ؛ الذي يفتض بكارة العرائس قبل أن يدخل بهن أزواجهن ؛ وقد سبقت الإشارة إلى هذا. وطبعاً يتم ذلك برضا أسرة العروس، ومباركة أزواج المستقبل. وهذا لا تفسير له سوى أنه يدخل ضمن الشعائر الدينية آنذاك.

وثمة خبر آخر يصب في السياق نفسه ؛ أورد هذا الخبر الحسن الوزان ؛ حين أشار لمدينة في المغرب الأقصى اسمها عين الأصنام فقال: ((**ويعني اسمها نبع الأوثان. يحكى أن الأفارقة عندما كانوا وثنيين ؛ كان لهم قرب هذه المدينة معبد يجتمع فيه الرجال والنساء عند غروب الشمس في فصل معين من السنة ؛ وبعد أن ينتهوا من تقديم القرابين كانوا يطفئون الأنوار، ويستمتع كل واحد بالمرأة التي توجد صدفة على مقربة منه. وإذا أتى الصباح منعت كل امرأة قضت تلك الليلة في المعبد من أن تقترب من زوجها لمدة سنة ؛ والأطفال الذين تلدهم أولئك**

---

[1] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 161.

النساء في تلك الفترة يربيهم كهان المعبد. وكان في هذا المعبد عين مازالت موجودة لحد الآن. لكن المسلمين دمروا المعبد والمدينة ولم يبق لهما أثر)). [1]

10 ـ الخرافة والشعوذة:

عرف الإنسان الأوهام منذ أن تعلم كيف يفكر؛ غير أنها لا تعبر عن التفكير السديد؛ إذ تمثل الخطوط المنحرفة في الحركة الفكرية المستقيمة. ومع هذا فقد تحقق الأوهام المتعة النفسية والراحة الفكرية للإنسان. لذا فإنه ابتكر ـ منذ ظهوره في هذه الأرض ـ بعض الخرافات والتخيلات التي ترضي أوهامه. وأهم باعث عنده لتلك الأوهام هي المظاهر الطبيعية بتقلباتها وعنفها وشدة هولها.

لذا فإن الإنسان الأول قد توهم بأن السبب في تقلبات الطقس ـ من رياح وأعاصير وحرائق وفيضانات وزلازل ـ يرجع إلى قوى غيبية، وأرواح سماوية وعفاريت أرضية. ثم أضحى يفسر كل ما يتعرض له من أمراض وخسارة إلى تلك الأرواح والعفاريت؛ وبعدها أخذ يفرق بين الأرواح الشريرة والأرواح الخيرة؛ فسعى ـ عندئذ ـ للاستنجاد بالخَيِّرة منها كلما ضاق به الحال. كما عمل على التعوذ والتحصن ضد العفاريت والأرواح الشريرة.

وعلى هذا يكون أبناء المغرب القدماء ـ كغيرهم من الأمم القديمة ـ يعتقدون في وجود الأرواح والعفاريت بينهم، ويؤمنون في ظهورها كلما استدعت الضرورة ذلك. لذا فقد لجئوا لرجال من بينهم؛ تميزوا بالذكاء والفطنة؛ الذين أوهموهم بأنهم يستطيعون التحكم في تلك الأرواح والعفاريت؛ وبذلك ظهر ما يعرف بساحر القبيلة، وكاهنها.

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 364.

ولما كان الإنسان يشعر بالضعف أمام قوى الطبيعة، وأمام كل القوى الغيبية الأخرى؛ فقد سلم مقاليد حياته للكهان؛ الذين زادوا في شدة أوهامه؛ بتشجيع الغيبيات، وتكريس الأديان المفبركة؛ كعبادة النجوم والأوثان والحيوان والأشجار وغيره.. كل ذلك بسبب انحراف الفكر القديم، وعجزه عن الاستقامة والتخلص من الأوهام. وقد دام ذلك الأمر مدة طويلة؛ حيث كان الصراع يشتعل في كل فترة بين الأديان السماوية وبائعي الأوهام من الدجالين والكهان والسحرة والمشعوذين.

وعلى هذا؛ فقد ظهرت في بلاد المغرب ـ منذ عهود قديمة جداً ـ ديانات وثنية؛ سبق الحديث عنها. كما عرف المغاربة القدماء أيضاً أعداداً كبيرة من المشعوذين والسحرة والكهان الدجالين. ولم تتمكن اليهودية ولا المسيحية من القضاء على المعتقدات الوثنية تماماً؛ غير أن الوجود الإسلامي قضى نهائياً على الديانات الوثنية في هذه الديار؛ ولكنه أبقى على كثير من المشعوذين والدجالين؛ الذين استطاعوا كسب أنصار لهم نتيجة للرواسب القديمة المتحكمة في النفوس الضعيفة والعقول الساذجة.

وقد ذكرت مصادر عديدة هذه الظواهر في بقاع متنوعة من المعمورة؛ منها بلاد المغرب. كما تكلم **الوزان** ـ أيضاً ـ في مواضع كثيرة من كتابه "**وصف إفريقيا**" عن المشعوذين والدجالين والسحرة في كامل البلاد المغربية التي مر بها؛ ونظراً لكثافة المادة التي ذكرها فإننا سنكتفي بعينة بسيطة؛ من أجل تكوين صورة لما كان يجري في وقت الوزان؛ ومقارنتها بما نشاهده الآن.

ففي حديثه عن مدينة **فاس** أشار إلى: العرافين والسحرة وأهل الخرافة وأصحاب أسرار الحروف والباحثين عن الكنوز والكيميائيين وآسري الحيات وغيره.. أما العرافون فيصنفهم إلى ثلاثة أصناف؛ نلخصها كما يلي:

ـ الصنف الأول: هم العاملون بخط الرمل؛ الذين يرسمون على الرمل بعض الأشكال؛ يدعون أنهم يستخرجون بواسطتها خفايا الأمور.

ـ الصنف الثاني: هم العرافون بواسطة النظر إلى الماء الذي يضيفون إليه قطرات من الزيت لكي يصبح شفافاً؛ ثم يزعمون أنهم يرون في الماء الشياطين والعفاريت؛ فيأمرونهم بما أرادوا.

ـ الصنف الثالث: هن نساء يوهمن العامة بأنهن يتحكمن في الجن؛ مصنفين إياهم إلى جن حمر وجن بيض وجن خضر وجن سود وهكذا.. [1]

وثمة كذلك أنواع أخرى من الشعوذة يعرف أصحابها بـ"**المعزمين**"؛ الذين يستعملون طرقاً سحرية بغرض إيهام العامة بأنهم صادقون في سحرهم. فإذا أصيب أحدهم بمرض ما؛ خاصة إذا كان مرض الأعصاب؛ فيزعمون أن جناً دخل في جسم المريض؛ وعليه فلا بد من إخراجه؛ فيقومون بكتابة بعض الحروف ويرسمون دوائر ثم يرسمون على جبين المصاب بالجنون ويده بعض العلامات والإشارات، ثم يعطرونه بعطور متنوعة، وبعدها يتظاهرون بأنهم يسألون الجن المتعدي؛ فيقولن له: كيف دخلت جسم المريض؟ ومن أين أتيت؟ وما اسمك؟ ثم يأمرونه بالخروج.. فإن تعافى المريض صدفة اعتقد الناس أن ذلك

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 262 ـ 266.

المشعوذ هو السبب الشافي. أما إذا فشل فغالباً ما يجد المشعوذ حجة يقنع بها العامة ؛ كأن يزعم أن الجن الساكن في جسم المريض كافر.

ومن بين المشعوذين أيضاً فئة أخرى تعمل وفق قاعدة **الزايرجية** ؛ التي يزعم أصحابها أنهم يتعاملون مع الأرواح ؛ إذ يخلطون بين التنجيم والشعوذة ؛ بواسطة الحروف والأشكال الهندسية كالدوائر المتداخلة والمربعات. يحاولون استخراج المعلومات منها. [1]

وقد أشار ابن خلدون أيضاً إلى فئة من هؤلاء السحرة المتواجدين في البلاد المغربية ؛ فقال : ((**وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين ؛ وهم الذين ذكرت أولاً ؛ أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيخترق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج. ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام ؛ يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها**)). [2]

11 ـ القرى وإكرام الضيف :

لقد اقتضت البيئة التي تحيط بالمجتمعات القبلية، والظروف الصعبة التي تعيش فيها القبائل كافة، والمخاطر التي تهددهم جميعاً في الفيافي والقفار والمفاوز التي يَقطعها أفراد القبائل باستمرار ؛ اقتضت ـ كل هذه العوامل ـ تبني بعض الأعراف والسنن ؛ التي تساعد على التكيف مع تلك البيئة الصعبة، والتعامل الفعال مع الظروف الخطيرة التي تفرزها. ومن تلك الأعراف المتبناة ؛ عادة القرى وإكرام الضيوف مهما كانوا.

[1] للتوسع في معرفة طريقة العمل بالزيارجية يستحسن مطالعة ما كتبه ابن خلدون في مقدمته، ج: 4، ص ص: 1271 ـ 1306.
[2] المقدمة، ج: 3، ص: 1254.

فـإذا كـان المسافـر في القفـار معرضـاً ـ بيـن حيـن وآخـر ـ إلى النهـب والسلـب مـن قبـل أفـراد القبائـل البدويـة ؛ فإنـه ـ بالمقابـل ـ يتمتـع ببعـض الضمانات ؛ التي تعطيه الحق ـ إذا مـا جـاع أو عطـش أو رغـب في المـأوى ـ أن يلجأ إلى أقرب بيت ؛ من البيوت التي يجدها أمامه ؛ لكي يحصل على حاجتـه ؛ حيـث يقـدم لـه أصحـاب البيـت أعـز مـا لديهـم ؛ دون شـح أو بخـل ؛ فإكـرام الضيـف مـن المبـادئ المقدسـة في المجتمعـات القبليـة الصحراوية ؛ ببلاد المغرب على الخصوص.[1]

ويمكـن ـ في هـذا السيـاق ـ إعـادة التذكيـر بشيـخ القبيلـة الصنهاجيـة ؛ الـذي اعتـرض طريـق القافلـة التجاريـة ـ الـتي كـان فيهـا الحسـن الـوزان ـ بغـرض أخـذ إتـاوة المـرور في أرض القبيلـة. حيـث ذكـر أن شيـخ القبيلـة ـ الـذي لقبه بأمير ـ يأخذ عن كل حمولة جمل قطعـة مـن القمـاش تسـاوي ديناراً واحداً. ولما استلم ذلك الشيخ الإتاوة ؛ أصر عليهم كي يستضيـف القافلـة بمـن فيهـا كلهـم ؛ مـدة ثلاثـة أيـام في خيامـه ؛ الـتي تبعـد زهـاء الثلاثيـن ميلاً. وبعد تردد قبل معظم التجار الضيافة.

ومـا أن وصلـوا إلى مخيـم ذلـك الرئيـس الكريـم حـتى أمـر أن تذبـح أعـداد مـن الجمـال، والغنـم، وبعـض النعامـات ؛ الـتي تـم اصطيادهـا في الطريـق. وقدمـت للجميـع اللحـوم المشويـة، وخبـز عجـن بدقيـق الـذرة والدخـن. ثـم قدمـوا لهـم التحليـة ؛ وهـي عبـارة عـن تمـر ولبـن. وأثنـاء الأكل ؛ تجنب المضيفون أكل الخبز بالتمام. مدعين أنهم لا يأكلون إلاَّ من نتاج وطنهـم. وهـذه الحبـوب لا تنبـت في قفارهـم ؛ وإنمـا يبتاعونهـا لأجـل الضيـوف ؛ أو لأكلها في الأعياد.

---

[1] لقد ضرب التجاني في رحلته، والوزان في كتابه وصف إفريقيا أمثلة عديدة؛ عن كرم الضيافة؛ لدى القبائل المغربية؛ يمكن الرجوع إليها في المصدرين المذكورين. كما أشار إلى ذلك حمدان خوجة في كتابه المرآة.

ثم أخذ الوزان في الإشادة بكرم ذلك الشيخ وقبيلته فقال: ((**وقد حرص الأمير على أن نقيم عنده يومين؛ وأحاطنا بكل عناية وإكرام؛ وسمح لنا في اليوم الثالث بالانصراف؛ وأراد أن يشيعنا إلى أن نلتحق بالقافلة. ولا أخفي أن الأنعام التي أمر بذبحها لإطعامنا تساوي عشرة أضعاف ما قدمناه له من حق المرور. وقد لاحظنا من خلال أفعال الأمير وأقواله نبله وظرفه؛ رغم أنه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته؛ وإنما كانت محادثاتنا معه بواسطة ترجمان. وهذه العادات، وطريقة المعاش التي ذكرت لكم عن هذا الشعب هي نفس ما يوجد عند الشعوب الأربعة الأخرى المتفرقة في سائر صحاري نوميديا**)). [1] وكان الوزان قد مدح هذه القبيلة بقوله: ((**وهؤلاء القوم في غاية الكرم؛ مع أن الناس لا يمرون بمضارب خيامهم؛ لجفاف أرضهم، ولأنهم هم أنفسهم لا يترددون على الطرق المطروقة. غير أن القوافل التي تقطع صحاريهم؛ تؤدي حتماً إلى أمرائهم إتاوة؛ وهي عبارة عن قطعة قماش؛ تساوي ديناراً عن كل حمل جمل**)). [2]

وبعد هذا العرض؛ ألا ترى معي أن هذه الحكاية شبيهة بما كان يجري في جزيرة العرب؛ من عادات عربية تحرص على إكرام الضيف. وعندما يقول الوزان أن تلك العادة كانت متبعة لدى شعوب نوميديا كلها؛ فذلك يعني تطابق العادات العربية مع العادات الأمازيغية. وما يبقى بعد ذلك سوى التوثيق والتسجيل. فبينما وجدت الجزيرة العربية من يسجل تراثها الشفوي؛ انعدم هذا في بلاد المغرب.

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 60 ـ 61.

[2] نفسه، ص: 60.

والأمثلة على كرم أهل المغرب كثيرة جداً لا يتسع المجال لذكرها كلها ؛ ومع ذلك فلا ضير من إيراد ما تيسر منها. فهذا الحسن الوزان ـ الذي زار بقاع المغرب كافة ـ يسرد بعض الأحداث ويصف بعض الحالات التي عرفها والتي تضفي صفة الكرم على كثير من المغاربة في زمنه. من ذلك ؛ أنه يصف سكان "**تَدْنِسْتْ**" ـ في جهات **حاحا** بالمغرب الأقصى ـ بالكرم الفائض ؛ إذ يقترعون على استضافة التجار المارين بمدينهم ؛ أولئك الذين لا صديق لهم، ولا معرفة بأحد في تلك المدينة. كما أنهم خصصوا لزوار مدينتهم من الفقراء ملجأ يؤيهم.

وفي "**تَكُولِيتْ**" ـ بجهات **حاحا** كذلك ـ اشتهر أحد الأعيان فيها بالكرم العظيم ؛ حيث كان ينفق من ثروته الطائلة على المحتاجين، وفي سبيل كسب رضا الناس ومحبتهم. وفي مدينة "**بُلَعْوَانْ**" ـ المتواجدة على ضفاف وادي أم الربيع ـ يشتهر أهلها بالكرم الفياض ؛ إذ شيدوا بناية بها غرف عديدة مخصصة للضيوف، وإسطبل لمراكبهم. وكانوا يستضيفون كل من يمر بمدينتهم على نفقة سكان المدينة. وفي "**الْمْدِينَة**" ـ حاضرة **هسكورة** ـ توجد دار خصصت أيضا للضيوف ؛ كان يدعى إليها كل الغرباء الواردين إلى المدينة. وعندما دخلها الوزان ومعه ثمانية من الرفقاء فضلا عن الخدم ؛ استضافه أحد الأثرياء بتلك المدينة في داره مدة ثلاثة أيام. وكان أهل المدينة يهدون إليهم في كل يوم عجولاً وخرفاناً ودجاجاً كل حسب مقدرته. ويصف الوزان أهل "**أَفْزَا**" ـ وهي مدينة في جهات **تادلا** ـ فيقول عنهم أنهم في غاية الكرم والظرف ؛ وكانوا يسمحون للمارين من التجار بالدخول إلى حدائقهم وأكل ما يطيب لهم من الثمار.

وقد أورد الوزان أيضاً أمثلة عديدة عن كرم المغاربة مثل: سكان جبل "**بني سعيد**"؛ الذين قال عنهم أن التجار عندما يقصدون جبلهم لا ينفقون شيئاً إذ يتكفل بهم السكان. وأهل جبل "**مغراوة**" بالقرب من **مستغانم** كذلك يمتازون بالكرم والميل إلى المجاملة. وسكان مدينة "**انقاوس**" في المغرب الأوسط الذين يتصفون بالغنى والكرم العظيم؛ حيث أعدوا داراً خصصوها لإيواء الغرباء، وشيدوا مدرسة لاستقبال طلاب العلم؛ الذين يتكفل سكان **انقاوس** بإطعامهم ولبسهم. وكذلك الحال بالنسبة لأهل سوسة، وبني صبيح في درعة، وسكان توقرت، وورقلة؛ فكلهم يصفهم بالكرم الفياض.[1]

وأشار **التجاني** - أيضاً - إلى بعض مظاهر الكرم في البلاد الشرقية من المغرب؛ حيث ذكر ما يتصف به **جبارة بن كامل بن سرحان الفادعي** أمير سوسة من كرم وجود ذاع صيته وشاع ذكره.[2] كما تكلم عن قبيلة **الورغميين** في **غمراسن** بليبيا؛ فقال فيهم: ((**وهم أغير خلق الله على الضيف، وأكرمهم له؛ فإذا حل الغريب لديهم واستند إليهم جعلوه من رؤسائهم، وأنزلوه فوق رؤوسهم، وحكموه في أنفسهم؛ ولديهم الأمن الذي لم يسمع بمثله في بقعة من بقاع الأرض. وحسبك أنا أقمنا معهم؛ فلم يضع لأحد منا شيء؛ مع أني كنت أرى الثياب والأمتعة وأواني الصفر وغير ذلك ملقى بين الأخبية؛ لا يتعرض أحد منهم لشيء من ذلك**)).[3]

---

[1] راجع كتاب وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 99. 100 ـ 101. 155. 165. 183. 344. ج: 2، ص ص: 44 ـ 45. 53. 83. 120. 135 ـ 136.

[2] رحلة التجاني، ص: 30.

[3] نفسه، ص: 188.

وجاء في المصادر المختلفة أمثلة كثيرة تبرز ما كان عليه المغاربة عبر العصور من كرم وجود. ورأيت أنه من الأفضل أن أختار ـ هنا ـ روايتين معبرتين عن الكرم في هذه الديار. الرواية الأولى أوردها **الحسن الوزان**؛ وحدثت أيام الموحدين؛ ومفادها أن الملك الموحدي **يعقوب المنصور** ضل خلال حملة صيد؛ وكان المطر غزيراً؛ ففاجأه ظلام الليل وهو يبحث عن طريق العودة؛ وخلال بحثه عن مخرج من المستنقعات والأوحال التي أحاطت به؛ تقابل مع أحد الصيادين؛ فسأله عن الطريق التي تؤدي إلى مضارب السلطان؛ فقال له أن مخيم السلطان بعيد، ولا يمكن الوصول إليه في هذه الليلة المطرة؛ ولأجل ذلك فقد عرض عليه المبيت عنده في كوخه البسيط؛ فقبل المنصور الذي أخفى شخصه الحقيقي عن ذلك الصياد؛ زاعماً أنه من الأعيان. ولما نزع المنصور ملابسه كي تنشف؛ عرض عليه الصياد بعض السمك؛ ولكنه اعتذر عن أكل السمك؛ لأنه لا يطيقه؛ وفضل لو وجد عنده شيئاً يسيراً من اللحم إن أمكن. ولم يكن لدى الصياد سوى عنزة وجديها؛ فذبح الجدي وقدمه لضيفه. ومع بزوغ شمس النهار خرج الصياد مع المنصور ليوصله إلى مخيم السلطان؛ وفي الطريق قابلوا جماعة من الفرسان الذين يبحثون عن السلطان؛ عندها عرف الصياد من كان معه تلك الليلة. وقد كافأ الملك ذلك الصياد الكريم ببناء ما يعرف بالقصر الكبير وأهداه إياه.[1]

أما الرواية الثانية فقد ذكرها **التجاني**؛ وهي تحكي خبر ذلك القبر المعروف بقبر **طُشَّانة**؛ أو بقبر **شهوان** بن عيسى بن عامر: ((**وكان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد؛ واشتهر بالكرم؛ فلم يذكر معه في وقته غيره؛ وفيه يقول شاعر العرب:**

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 303 ـ 305.

حَمى الأرض بن عيسى بن عامر

وعِرْض الفتى إن ضيّع المجد تالفُ

والأعراب الآن إذا نزلوا هناك ؛ ولم يكن لهم زاد ؛ قاموا على قبره فنادوا : "يا شهوان أقر أضيافك" ؛ فيذكرون أنهم لم يبيتوا قط دون عشاء ؛ أما بصيد يتاح لهم أو بضالة يلقونها أو بغير ذلك. وهذا أمر حدثني به جماعة منهم وهو مشابه لما يذكره المؤرخون عن حاتم الطائي ؛ أنهم كانوا ينزلون بقبره فيقريهم وفي ذلك يقول الشاعر يمدح عدي بن حاتم :

أبوك أبو سَفَّانَةَ الخَيرُ لم يزل

لَدُن شَبَّ حتى شاب في الخير راغبا

قرى قَبرُه الأضيافَ إذ نَزلوا به

ولم يقْرِ قبرٌ قَبْلَهُ الدهْرَ راكِباً)). [1]

والأمثلة على كرم قبائل المغرب البدوية عديدة، ولا يسمح المجال بذكرها كلها. والذي يستحق القول هنا ؛ هو أن الكرم والسخاء ؛ يكثر ويشاع كلما بعد الإنسان عن العمران الحضري. فقبائل الصحراء القاحلة أشد تمسكاً بعادة قرى الضيف وإكرامه. ومع هذا ؛ فليس هناك ما يمنع قبائل تلك الديار عن نهب وسلب الغرباء في الأماكن المنقطعة ؛ فهم واهابون نهابون. أما إذا دخل الغريب في حمى القبيلة، والتجأ إلى بيوتها ؛ فقد ضمن أمنه وسلامته ؛ بالإضافة إلى تمتعه بالطعام والشراب.



[1] رحلة التجاني، ص ص: 310 ـ 311.

العلاقات القبلية

سبق لبعض المؤرخين أن درسوا العلاقات الخارجية لعدد من الدول المغربية. ويرجع ذلك إلى كون الدولة تضطلع ـ عادة ـ بالجوانب السياسية التي تؤهلها لعقد علاقات مع غيرها من الدول. وقد يبدو ـ من هذا المنطلق ـ أن العلاقات الخارجية من صلاحيات الدول فقط. غير أن هذه الحقيقة لا تخلو من بعض الاستثناءات أحياناً.

وعليه فقد بقي جانب هام في تاريخ المغرب يتطلب عناية الباحثين. وهذا الجانب يخص العلاقات ذات الطابع السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والعسكري؛ التي تتمتع بها القبائل المختلفة في هذه الديار؛ ولا سبيل إلى نكرانها. لأن بلاداً كبلاد المغرب؛ التي تزخر بالقبائل ذات العصبية الجياشة؛ عرفت ـ بحكم التركيبة الاجتماعية ـ بعض الأشكال من العلاقات التي تستوجب الوقوف عندها، والتأمل فيها. من ذلك:

1 ـ العلاقات داخل القبيلة ذاتها.

2 ـ العلاقات بين القبيلة وقبائل أخرى.

3 ـ العلاقات بين القبيلة والدولة الحاكمة.

4 ـ العلاقات بين القبيلة ودول أخرى.

ويتضح ـ من خلال العناصر السابقة ـ أن:

ـ **أولها**: تعبر عنه **العلاقات الداخلية**؛ وهي التي تجري داخل القبيلة؛ فيما بين: أفرادها، أو ما بين أحيائها العديدة.

ـ أما العنصران **الثاني والثالث:** فتعبر عنهما **العلاقات الخارجية** بالنسبة للقبيلة ذاتها ؛ ولكنها بالنسبة للدولة التي تحكم تلك القبيلة تعتبر علاقات داخلية.

ـ أما العنصر **الرابع:** فتمثله **العلاقات الخارجية المطلقة**. لأنها خارجية بالنسبة للقبيلة المعنية، وخارجية بالنسبة للدولة الحاكمة. وعلاقات أي قبيلة ـ هنا ـ بأي دولة خارجية قد يهدد كيان الدولة الحاكمة ؛ لذا فإن سلوكاً كهذا تعتبره الدولة الحاكمة خيانة ؛ لا يجب التسامح مع أصحابها.

إن هذا التقسيم مهم للغاية ؛ لأنه سيوضح مدى شرعية وسلامة العلاقات التي تعقدها القبائل في مختلف المستويات.

1 ـ العلاقات داخل القبيلة:

لا تخلوا ـ بالطبع ـ أي قبيلة من بعض المظاهر التي تطبعها بعلاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية. ويحدث هذا إما بين **أعضاء القبيلة كأفراد**، أو فيما **بين عشائرها**، وأفخاذها، وبطونها... إلخ. ومن هنا يتضح بأن الصلات المختلفة ؛ التي تحدث داخل القبيلة ؛ ـ فردية كانت أم جماعية ـ تعبر أصدق تعبير عن العلاقات الداخلية لتلك القبيلة.

وعند التأمل في هذه العلاقات الداخلية للقبيلة ؛ يتجلى الدور الذي تلعبه العصبية القبلية ؛ حيث تظهر العصبية ـ هنا ـ بمظهر المنظم والضابط الدقيق لتلك العلاقات ؛ التي لا تعدو أن تكون: إما **علاقات سلمية**، أو **علاقات عدوانية حربية**. فالعلاقات السلمية تتجلى من خلال المعاملات التجارية، والمبادلات الثقافية، والتعاون الاقتصادي، والتكافل الاجتماعي، والتضامن عند الحاجة... إلخ. بينما تكون الصلات العدوانية والحربية: إما دفاعاً وذوداً عن الحمى، أو هجوماً وغزواً ؛ يستهدف عشيرة أخرى، أو بطناً آخر من القبيلة الأم ذاتها.

فعلاقات الفرد ضمن القبيلة يمكن معرفتها من خلال دراسة سلوك أفراد القبيلة تجاه بعضهم بعضاً، أو نحو الأعراف القبلية، أو مقابل الهيئة الحاكمة؛ التي يمثلها كبير القوم وشيخهم، أو بعض الأعيان. فعلى الرغم من النزعة الفردية التي تتحكم في أبناء القبائل الأمازيغية والعربية ببلاد المغرب؛ إلا أن هذه النزعة ـ في الحقيقة ـ تنسجم تمام الانسجام مع روح الجماعة داخل القبيلة. ويرجع الفضل في ذلك إلى **العصبية**؛ التي تنظم العلاقات بين الفرد وجماعته في الوسط القبلي. فشعار الفرد ـ هنا ـ هو: ((**أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب**)). [1]
فحب الفرد لذاته يتصدر كل شيء، ثم يأتي حبه لأسرته، فعشيرته، فالبطن الذي ينتمي إليه، ثم قبيلته في النهاية. [2] وهكذا يتحدد مجال روابط الفرد وعلاقاته ضمن قبيلته.

إذن؛ فالمجال ـ هنا ـ ضيق، ولا يتعدى حدود الولاء التلقائي؛ للأسرة والعشيرة أو البطن.. وربما القبيلة. وبالتالي فإن هذا الولاء يلزم الفرد بشكل من أشكال الطاعة التي لا تكون مقيدة، ولا مطلقة تجاه رئيس القبلة، والملأ من قومه؛ ذوي السيادة والرئاسة. ولكن الفرد ـ في هذه الحال ـ يملك من الحرية؛ ما يعطيه الحق في مناقشة الرؤساء، والاعتراض عليهم؛ دون خوف أو حرج. وبالمقابل فإن سلطة الرئيس على أفراد القبيلة ليست سلطة قاهرة. [3]

---

[1] قبائل المغرب، ج: 1، ص: 200.

[2] ينسب بعضهم للبدوي صفات متطرفة؛ من حيث الأنانية الفردية. من ذلك استشهادهم برواية أبي هريرة؛ التي أشار فيها إلى ذلك الأعرابي الذي قدم على رسول الله r . ولما قام رسول الله وصحابته للصلاة؛ اتجه الأعرابي إلى الله داعياً فقال: ((اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً)). ورد هذا في سنن أبي داود: ج: 1، ص: 89.أنظر أيضاً المفصل، ج: 1، ص: 283. وتاريخ العرب (مطول)، ج: 1، ص ص: 30 ـ 31. وقد يدخل في هذا الاعتبار قول أبي فراس الحمداني: إذا مت ضمآناً فلا نزل القطر)). لأن هذا المعنى مستوحى من روح العصبية وعقلية البادية.

[3] ((الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه)). المقدمة، ج: 2، ص: 609.

ومع هذا فإن الفرد داخل القبيلة أو الوحدة الاجتماعية الأصغر معرض لبعض العقوبات الزاجرة؛ التي تسلط على المنحرفين والمخالفين للأعراف القبلية. وأهم العقوبات وأقساها هي عقوبة الخلع أو النفي عن حمى القبيلة. [1] وعلى سبيل المثال؛ فإن بعض القبائل الأمازيغية بالمغرب الأقصى تلجأ إلى نفي الذين يرتكبون جريمة القتل داخل قبيلتهم ـ إذا ما أفلتوا من ثأر أهل الضحية ـ وذلك لمدة سبع سنوات. وبعد تمام مدة النفي يستطيع القاتل العودة إلى قبيلته؛ على أن يدفع الدية لأهل القتيل. [2]

وعقوبة النفي ـ بالطبع ـ معروفة ضمن القبائل العربية؛ وتسمى لديهم "**الخلع**". وتعتبر هذه العقوبة ـ عندهم ـ من أقسى وأشد العقوبات؛ التي يمكن أن تسلط على الفرد؛ من طرف عشيرته. [3] وهذه الظاهرة شائعة جداً بين القبائل العربية في العصر الجاهلي. ولا تخلوا القبائل العربية ببلاد المغرب منها. وقد عُرف المخلوعون في جزيرة العرب باسم "**الصعاليك**" أو بعبارة "**ذؤبان**". [4] وانتقلت هذه الصفة ـ أيضاً ـ إلى بلاد المغرب؛ حيث أطلقت التسمية على قطاع الطرق. وقد أشار إليهم ابن خلدون في المقدمة، وكتاب العبر ـ بهذا الاسم ـ مرات عديدة. [5]

وربما لجأ بعض الذين خلعتهم قبائلهم ـ إلى الانضمام إلى قبائل أخرى؛ طالبين حق الجوار [6] والإستلحاق؛ حيث يتمتعون ـ في تلك

---

[1] ففي قصور إفران بالمغرب الأقصى مثلاً ينفى المجرمون: ((وأما المجرمون فلا عقاب لهم غير النفي من الأرض)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 117.

[2] تابع هذا الأمر في وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 109. 112. 117. ج: 2، ص: 117.

[3] تاريخ الشعر السياسي، ص ص: 49 ـ 50.

[4] جاء في لسان العرب: ((يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان؛ لأنهم كالذئاب)). ج: 1، ص: 1051.

[5] أنظر المقدمة والمجلدين: السادس والسابع. والعلامة ابن خلدون: ص ص: 144 ـ 145.

[6] للجوار دلالات لغوية عديدة متباينة؛ الذي يهم ـ هنا ـ هو المعنى الذي يرمي إلى القرابة والنسب، وقرب المساكن والبيوت من بعضها بعضاً. وبالتالي الذود عن المستجير (القريب أو اللاجئ إلى الحي)؛ هارباً من مكروه أو شر قد يلحق به. والجوار ـ كما هو معلوم ـ له علاقة وطيدة بموضوع النسب؛ إذ يلتحق المستجير بنسب المجير في غالب الأحيان. وقد ساعد مبدأ الجوار هذا على دمج أعداد كبيرة من الناس ضمن قبائل أخرى غير قبائلهم الأصلية. ومع مرور الوقت أصبحوا ينتسبون إلى القبائل المجيرة. وقد سادت هذه الظاهرة في معظم المجتمعات القبلية؛ وخاصة القبائل العربية والأمازيغية. على أن ثمة بعض

القبائل المُجيرة ـ بالحقوق نفسها؛ التي يتمتع بها أعضاؤها. كما يلزمون بالواجبات ذاتها؛ التي تفرض على أفراد القبائل المستقبلة لهم. وفي العصر القديم نجد أن المغاربة كانوا يعملون بهذه العادة؛ حيث تذكر المصادر أن **مسنيسا** قد لجأ قبل توليه الحكم ـ عندما ضاق به الحال ـ إلى عشائر **القرامونت**؛ حيث لقي الملجأ الآمن عندهم، والترحيب اللازم بينهم. [1] وفي عصر ما بعد الموحدين؛ ذكر الوزان أن القبائل القاطنة في جبل "**بْنِي وْلِيد**" يرحبون بكل مذنب منفي من فاس؛ إذ يلقى عندهم الأمان؛ كما يعفى من النفقات طوال أيام إقامته بينهم. وعن قبائل جبل "**لُوكَايْ**" قال ـ كذلك ـ أنهم يستقبلون المنفيين كافة؛ غير أنهم لا يقبلون الزناة منهم؛ بسبب غيرتهم الشديدة. [2]

وكمثال على الإستلحاق الجماعي يمكن التمثل ببطن من بني هلال وهم **العمور**؛ الذين ترى المصادر أنهم ملحقون **بالأثبج**؛ كما أصبحت بعض أحيائهم وهم: **أولاد فارس، وأولاد عزيز، وأولاد ماضي** ملحقين بقبيلة **رياح** وفي جوارهم. [3] ومن جهة أخرى؛ فقد أشار الوزان إلى **بني حسان** الذين التحق بهم بعض الأعراب من قبائل أخرى. [4] والأمثلة

الاختلاف بين العضو الأصلي والعضو الملتحق. منها: أن الدية التي يحق للجار المطالبة بها عن جاره المقتول تكون النصف؛ بينما تكون دية العضو الأصلي دية كاملة. وبالمقابل فهو ملزم بدفع الدية نيابة عن جاره؛ إذا ما قتل أحداً. كما أنه مطالب بأخذ ثأر جاره إذا ما قتل بيد آخرين. ويتم الإعلان عن النية في منح حق الجوار أو خلعه في التجمعات العامة؛ بالأسواق أو المعابد أو المواسم. ويمكن تلخيص الكيفية التي يطلب بها الجوار: إما بواسطة المخاطبة المباشرة، أو بالتعلق بأطناب بيت أحدهم، أو الارتماء على قبر والد أو ولد المجير. كما أن تناول طعام أحدهم يلزمه إجارة ضيفه. وما زالت هذه العادة متبعة في البلاد العربية عامة، وفي بلاد المغرب بصفة خاصة؛ إذ للطعام حرمته، وللملح قدسيته. أنظر: وصف إفريقيا، ج:1، ص ص: 344. 336. 337. والنظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب، ص ص: 148 ـ 153. والمفصل، ج: 4، 360 ـ 365. والقبائل العربية في المغرب، ص ص: 248. 251.

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 133. مدنية المغرب العربي في التاريخ، ص: 177.

[2] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 334. 335 ـ 336.

[3] ويقول فيهم ابن خلدون: ((ويلحق بهؤلاء الأثبج العمور... ولا نجد بينهم انتماء بالجملة. ونجد بينهم وبين قرة وغيرهم من بطون هلال الانتماء)). العبر، مج: 6، ص: 55. أنظر أيضاً تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 569. والقبائل العربية في المغرب، ص ص: 211 ـ 212.

[4] وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 55.

كثيرة على هذا ؛ ومن أراد التوسع عليه بمراجعة كتاب العبر في مجلديه : السادس والسابع.

وقد يحدث في قبائل أمازيغية معينة أن تلجأ بعض النساء إلى قبائل أخرى ؛ نتيجة لإهانة أو خلاف بينها وبين زوجها. وهذا ما لاحظه الوزان لدى أحياء من نفزاوة في جبل مرنيسة ، [1] وفي وجبال قسنطينة ؛ حيث تتواجد قبائل كتامة. [2] ومن الطرائف المتناقلة عن حق الجوار ؛ الرواية التي نقلها ابن الخطيب بخصوص القبائل العربية المتواجدة في **تامسنا** ؛ حيث ذكر أن بعض الطيور عششت بجوار شيخ إحدى تلك العشائر ؛ فداست ذلك العش ناقة ترعى ؛ تابعة لبعض الأحياء القريبة ؛ فقتلت الأفراخ ؛ فغضب ذلك الشيخ وطالب بثأر الأفراخ ؛ لأنه اعتبرهم في جواره ؛ وانتهى الأمر بحرب زهقت فيها الأرواح وسلبت خلالها الأرزاق. [3]

وتتحدد علاقات الأفراد والقبائل في هذا السياق ؛ سواء ضمن قبائلهم الأصلية أو غيرها ؛ إذ العرف واحد ـ تقريباً ـ في القبائل كافة. وعلى هذا تصبح الواجبات التي تمليها العصبية على أفراد القبيلة ملزمة وضرورية ؛ بالنسبة لطالبي الجوار. إذ يتحتم على الأعضاء الأصليين ، والأعضاء الملحقين أن يتناصروا ويتآزروا فيما بينهم ؛ لأن أي تخاذل أو

---

[1] إذ قال: ((أن كل امرأة أصابتها إهانة من زوجها مهما كانت ضئيلة؛ فرت إلى الجبال الأخرى؛ تاركة أولادها وتزوجت من آخر. وهذا هو السبب الذي يجعل الرجال في الغالب يحملون السلاح، وتكون بينهم مشاجرات دائمة. وإذا جنحوا للصلح فلا بد أن يدفع من تبقى المرأة عنده للزوج الأول ما أنفقه في زواجه. وهم متشددون في هذا الأمر، ولهم قضاة مختصون منهم)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 334.

[2] ((ومن عادات نساء هذه البلاد الفرار إلى جبل آخر إذا لم يرضين بأزواجهن؛ وتترك المرأة الهاربة أولادها؛ وربما اتخذت زوجاً آخر في الجبل الذي تقصده؛ إذا كان عدواً لجبل زوجها؛ وذلك ما يسبب الخصومات.لكن غالباً ما يقع الاتفاق إما بأداء مبلغ من المال وإما بمبادلة أخرى؛ كأن يزوج الرجل الذي أخذ الهاربة إحدى بناته أو أخواته لزوج المرأة الهاربة)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 103.

[3] نفاضة الجراب، ص: 89. القبائل العربية في المغرب، ص: 250.

تأخر عن نصرة أي عضو من أعضاء القبيلة ؛ قد يتسبب في تفكك الروابط ؛ التي تشد تلك القبيلة. وبالتالي تفسد عصبيتها وتنهار. لذا فقد نص العرف القبلي بحتمية نصرة الإخوة **ظالمين كانوا أم مظلومين**. [1]

وكما ألزم أعضاء القبيلة بواجبات مشتركة ؛ فقد أقرت لهم حقوق مشتركة ؛ يتساوون فيها. فالقبيلة كلها مطالبة بالدفاع عن أي عضو من أعضائها، وحمايته في شتى الظروف، والوقوف إلى جانبه ؛ عندما يرتكب جريمة قتل خارج قبيلته ؛ فيشترك الجميع في واجب الدية. وعندما يُقتل عضو من القبيلة ؛ فعلى أعضائها ـ جميعاً ـ واجب السعي للأخذ بثأره. وهكذا فكلهم يعملون بالمثل السائر: ((**عند الجريرة تشترك العشيرة**)). [2] ويبدو أن هذا العرف يخضع لما تمليه القوة ؛ لأن بعض القبائل التي تلمس في ذاتها القوة ؛ لا تعطي الدية للضعفاء ؛ وبالمقابل تلزمهم بدفع الدية إليها. وقد ذكر **الإدريسي** مثلاً لهذا ؛ حين تكلم عن القبائل العربية المتواجدة بنواحي **المسيلة** ؛ حيث قال: ((**وجميع هذه الحصون أهلها من العرب في مهادنة ؛ وربما أضرَّ بعضهم ببعض ؛ غير أن أيدي الأجناد فيها مقبوضة، وأيدي العرب مطلقة في الأضرار. وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها، وليس عليها دية فيمن تقتل**)). [3]

أما العلاقات التي تتم بين العشائر والأفخاذ والبطون ؛ المنتمين لقبيلة واحدة فقد تكون علاقات متينة، وقد تكون واهية ضعيفة. فنظراً لنزعة الاستقلال والتجزئة التي تسود القبيلة ؛ فإن العشائر والبطون

---

[1] يعبر عن هذه الفكرة قريط بن أنيف؛ حين قال: (بسيط).

قوم إذا الشر أبدا ناذجيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

أنظر قصيدته في ديوان الحماسة لأبي تمام، ج: 1، ص ص: 13 ـ 15.

[2] معجم الأمثال، ج: 2، ص: 9.

[3] مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ص: 164.

تسعى دوماً للإنفراد بنفسها، والنظر في مصالحها الضيقة.[1] وقد يعزز هذا التوجه الانفصالي، ويشجعه بين أفراد الحي المعني رئيسه الطموح. كما أن غريزتي: التنافس والحسد تدفعان ـ دوماً ـ رؤساء العشائر، وبقية الأحياء إلى فتن؛ تتسبب في فصل أحياء القبيلة عن بعضها، واستقلالها الواحد بعد الأخر.[2] وربما منعت بعض الغرائز السلبية ـ الأخرى ـ من توحيد الأحياء، وجمع شملها ـ بطرق سلمية ـ ضمن قبيلة موحدة؛ خاضعة لحكم رئيس واحد. وحتى إذا تم ذلك فإنه يكون في حالات قليلة. ولا يتم هذا ـ عادة ـ إلاّ بالقوة والقهر؛ عندما تسعى العصبية ـ بتدرج ـ نحو الملك.[3] وقد لاحظ الوزان هذا التشتت في جبال **قسنطينة**؛ حين قال: ((**وتعطي هذه الجبال في مجموعها نحو أربعين ألف فارس؛**

[1] وكمثال على هذا؛ ما جرى بين البطون المنسوبة لقبيلة جشم من الفرقة أيام الدولة الموحدين؛ لأن اضطراب الحال في الدولة الموحدية انتقل إلى القبائل الحليفة؛ وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وهذه القبائل معدودة في جشم... وكان شيخهم المشهور لعهد المأمون وبنيه جرمون بن عيسى [السفياني]؛ ونسبه فيما يزعم بعض المؤرخين أيام الموحدين في بني قرة؛ وكانت بينهم وبين الخلط فتن طويلة. وكان الخلط شيعة للمأمون وبنيه؛ فصار سفيان لذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعه في الخلافة بمراكش. ثم قتل الرشيد مسعود بن حميدان شيخ الخلط.. فصاروا إلى يحيى بن الناصر، وصار سفيان إلى الرشيد)). العبر، مج: 6، ص: 60. وفي الدولة الحفصية تصارعت أحياء عوف من سليم على التقرب من سلطان الدولة؛ فاشتعلت الفتن بين الإخوة: علاق ومرداس؛ ويقول ابن خلدون: ((وضرب السلطان بينهم [أي مرداس] وبين علاق؛ فنشأت الفتنة، وسخط عنَّان بن جابر شيخ مرداس من أولاد جامع مكانه من الدولة، فذهب مغاضباً عنها... ولم يزل حال مرداس بين النفرة والاصحاب إلى أن هلك الأمير أبو زكريا، واستفحل ملك ابنه المستنصر من بعده، وعلا الكعوب [من علاق] بذمة قوية من السلطان. وكان شيخهم لعهده عبد الله بن شيحة... واعصوصبت عليه سائر علاق؛ فحاربوا المرداسيين هؤلاء وغلبوهم على الأوطان، والحظ من السلطان، وأخرجوهم من إفريقية)). العبر، مج: 6، ص ص: 147 ـ 148. وقد استمر الصراع في إفريقية بين أحياء القبيلة الواحدة إلى العهد العثماني. وربما امتد بهم الأمر إلى اليوم.

[2] الأمثلة على هذه الظاهرة في بلاد المغرب كثيرة جداً. ويمكن الرجوع إليها في أخبار القبائل الأمازيغية والعربية؛ ضمن كتاب العبر، وغيره من مصادر تاريخ بلاد المغرب.

[3] ((إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة؛ فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها وتستتبعها، وتلتحم جميع العصبيات فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلاّ وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 ـ 610.

ولو كان هؤلاء القوم متحدين كما يجب ؛ لاستطاعوا أن يسيطروا على إفريقية كلها لفرط شجاعتهم)). [1]

إن الرغبة في التجزئة والانفراد ؛ لا تكون إلاّ في الحالات التي تتطلبها فائدة الوحدات الصغرى، وعند إحساسها بالأمن. أما في الحالات التي تشعر فيها تلك الوحدات بالخطر، وتحس بالضعف أمام الأعداء المتربصين ؛ فإن العشائر والبطون وبقية الأحياء ؛ تسعى ـ بكل حرص ـ نحو الالتحام بالأقرباء، وأهل العصبية المشتركة من أحياء القبيلة الأم. وهذا ما حدث عندما توحدت القبائل العربية أمام الخطر الذي ظهر من خلال اكتساح جيش عبد المؤمن بن علي لبلاد إفريقيا. وربما تحققت وحدة القبائل ـ أيضاً ـ رغبة في تحقيق أغراض هجومية ؛ قصد الهجوم على أحياء تابعة لقبائل أخرى ؛ طمعاً فيما لديهم، أو للإطاحة بدولة ما، أو امتلاك مناطق من ربوعها.

وبما أن المجتمعات المغربية تكون إما حضرية أو بدوية ؛ فقد لوحظ في بعض المدن والقرى وجود أشكال من العلاقات لا تختلف كثيراً عما يفرزه المجتمع البدوي من خصومات وفتن وانقسامات. إذ تظهر في بعض المدن علامات بارزة للعصبية. وقد أشار إليها ابن خلدون ضمن فصل "**في وجود العصبية في الأمصار، وتغلب بعضهم على بعض**" ؛ حيث أكد أن ذلك وقع ـ في عهده بإفريقية ـ مثلما حدث لأهل : **طرابلس، وقابس، وتوزر، ونفطة، وقفصة، وبسكرة، والزاب.** [2] أما الوزان فقد أورد بعض الأمثلة من بلاد **هسكورة**، وجبل "**بْني وَزَرْوَالْ**"، وجبل "**بني ورياكل**" ومن **فاس** عاصمة الدولة نفسها. حيث ذكر أن "**المْدِينَة**" حاضرة **هَسْكورة** يختصم سكانها مع بعضهم بعضاً بصفة دائمة، ويفترقون إلى

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 104.
[2] المقدمة، ج: 3، ص ص: 1019 ـ 1022.

جماعات مختلفة. كما أنهم يعادون أهل مدينة مجاورة لهم. أما سكان جبل "**بني وزروال**" فهم في حرب دائمة مع جيرانهم. وكذلك الحال بالنسبة "**لبني ورياكل**" إذ يعيشون في حرب مستمرة ضد جيرانهم. [1]

وثمة أمثلة كثيرة على هذا ؛ لا يتسع المجال لذكرها. أما مدينة **فاس** ؛ حاضرة الدولة ؛ فقد سرد الوزان حكاية توضح ما يحدث فيها ـ في أوقات معينة من السنة وبالخصوص في أيام الأعياد ـ من تكتلات تفرزها عصبية الأحياء ؛ حيث ذكر أن الشبان من مختلف الأحياء يتكتلون ضمن مجموعات تحمل العصي وبعض الأسلحة ؛ بغرض مقاتلة شبان من الأحياء الأخرى ؛ وقد ينتهي بهم الصراع إلى خارج المدينة ؛ حيث يتراشقون بالحجارة. ((**وفي الليل يخرج كثير من المتنطعين مجتمعين مسلحين إلى ظاهر المدينة ، فيتجولون في البساتين والحقول ؛ حتى إذا لقوا متنطعين من زقاق معاد لهم ؛ وقع شجار عنيف بينهم ؛ لأنهم يكنُّون بعضهم لبعض عداوة قاتلة بصفة دائمة. وكثيراً ما يتعرضون للعقاب الصارم**)). [2]

2 ـ العلاقات مع القبائل أخرى :

يمكن إجمال هذه العلاقات فيما يعرف بالصلات القبلية ؛ **ذات الطابع الحربي** أحياناً ، **وذات الطابع السلمي** أحياناً أخرى. ويتم هذا بين القبائل بعضها ببعض. وفي هذه الحال تتغلب الصلات الحربية ـ في المجتمعات القبلية ـ على الصلات السلمية ؛ حيث تلجأ القبائل ـ في غالب

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 164. 165. 336. 337.

[2] نفسه، ص: 260. وقد ظلت هذه الظاهرة السلبية قائمة في مناطق أخرى من بلاد المغرب. وأذكر بالخصوص ما كان يجري في مدينة طولقة التي ولدت فيها؛ حيث كان الصبيان ـ أيام الأعياد ـ يخرجون مجتمعين وبأيديهم العصي والحجارة، ممتطين عربات تجرها بعض الدواب، قاصدين القرية المجاورة؛ لا لشيء؛ سوى رغبتهم في مصارعة خصومهم؛ أبناء تلك القرية المجاورة. وتنتهي المصادمات ـ في معظم الأحيان ـ برجوعهم بأوجه ملطخة بالدماء، وثياب ممزقة ومتسخة بالأوحال.

الأحيان ـ إلى التطاحن والتقاتل. ومع هذا فقد تضطر بعض القبائل إلى عقد صلات سلمية مع غيرها من القبائل ؛ وذلك في شكل حلف ؛ بغرض تحقيق أهداف عسكرية وسياسية. ويتضح بهذا الشكل ؛ أن هذه الصلات السلمية تعقد ـ بالأساس ـ لخدمة صلات حربية.

إذ يقوم ذلك الحلف بالهجوم على أحلاف وقبائل أخرى ؛ وربما على الدولة الحاكمة والإطاحة بها. وقد يتم عقد الحلف بغرض تحقيق هدف دفاعي ؛ كصد العدوان، والذود عن الحمى، والانتصار لذوي القربى، وأهل الجوار. والأمثلة على هذا الأمر عديدة ومتنوعة في بلاد المغرب ؛ حيث اشتملت كتب التاريخ على عينات كثيرة يمكن الرجوع إليها. وبالتأمل في هذه الظاهرة في بلاد المغرب ؛ سنكتشف أنها لا تختلف ـ في شيء ـ عما عرفته القبائل العربية بالمشرق. وقد حدثت هذه الأحلاف القبلية في بلاد المغرب منذ زمن بعيد جداً ؛ حيث أوردت المصادر التاريخية أمثلة على تلك الأحلاف في أيام الزحف إلى **مصر** ؛ خاصة عندما تحالفت **قبائل مغربية** مع بعضها، بغرض الهجوم على مصر بمشاركة **شعوب البحر** ؛ وذلك من أجل تحقيق أهداف عسكرية واقتصادية.

ومن الأمثلة الحية على قيام الأحلاف القبلية ـ أيضاً ـ وقوف قبائل المغرب خلف **مسنيسا** ؛ الأمر الذي ساعده على تشييد دولته. كما جاء في المصادر خبر **الحلف الخماسي** ؛ الذي وحد القبائل المغربية الخمس ؛ خلف زعيم واحد هو **فيرموس** ضد **روما**. وبعد الفتح الإسلامي تحالفت **بعض القبائل الأمازيغية تحت راية الخوارج والصفرية** ؛ **ضد جيوش بني أمية والدولة العباسية**. وعند قيام **الدولة الموحدية** تحالفت بعض **القبائل العربية والأمازيغية** ضدها. وجملة القول ؛ أنه بتتبع ما تم من صلات

بين القبائل المغربية ؛ سيظهر بأنها لا تعدو أن تكون إما صلات حربية ، أو صلات سلمية.

أ ـ الصلات الحربية: الحرب في الأوساط القبلية بالمغرب تكون محدودة في : **العنفوان ، والزمن ، والمساحة الجغرافية**. وأسباب الحروب تكون ـ في غالب الأحيان ـ تافهة وسخيفة ؛ لأن المعروف عن الحروب بين الدول ؛ أنها لا تقوم إلاّ بعد فشل المساعي السياسية. أما الحروب القبلية فقد تشتعل دون سابق إنذار ، ودون الإلتفات إلى أي مساعٍ سلمية ؛ التي ـ من الواجب ـ أن تكون كصمام أمان ؛ يضبط الوقت الضروري للحرب.

فالحروب القبلية تنشأ إما بفعل أسباب تستدعي وقفة دفاعية ، أو من أجل أغراض تتطلب حركة هجومية. وتحدث إما بين القبائل ذاتها ، وإما بين القبائل وتنظيمات أخرى ؛ كالدولة مثلاً. ونظراً لمحدودية الحروب القبلية بالمغرب وتفاهة أسبابها ، وسخافة أهدافها ؛ فقد ظلت محصورة ضمن مصطلح الغزو والإغارة ؛ هذا إذا راعينا بعض الاستثناءات ؛ التي تتحالف فيها قبائل عديدة لمواجهة قوة خارجية ، أو دولة ما. ففي هذه الحال يطول أمد الحرب ـ أحياناً ـ وتأخذ شكلاً هاماً.

أما الحروب التي تنشب فيما بين القبائل المغربية ؛ فلا تعدو أن تكون "**أياماً**" ؛ كما جرى عليه الحال في جزيرة العرب ؛ حينما اصطلح على تسمية الحروب القبلية فيها بعبارة "**الأيام**". وهذه التسمية تعبر ـ بصدق ـ عن محدودية تلك الحروب ؛ من حيث الزمان ؛ إذ لا تدوم أكثر من يوم واحد في الغالب. [1] وحتى إن طال أمدها ؛ أكثر من يوم ؛ فإنها تستمر بشكل متقطع ؛ إذ يتباعد الزمن بين معركة وأخرى ؛ بحيث تلبس شكل الإغارة ، أو الغزو الطويل النفس. وهو ما توضحه الحروب

[1] أنظر كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: 15، ص ص: 338 ـ 431. وكتاب أيام العرب في الجاهلية.

المتقطعة المعارك، والمتباعدة زمنياً؛ مثل: حرب **داحس والغبراء، وحرب البسوس**. وهكذا فإن الحروب التي تنشب بين القبائل؛ تكون في معظمها محدودة زمنياً، وقاصرة من حيث الشمولية، وفقيرة في الوسائل والمعدات، وساذجة في الأساليب القتالية المتبعة. أما أسباب تلك الحروب؛ فلا تعدو أن تكون: **إما بحكم الظروف الطبيعية القاسية**؛ التي تحيط بالمجتمعات القبلية؛ ومنها العوامل الاقتصادية القاهرة، أو **بحكم عومل اجتماعية** أخرى.[1]

ـ ***أما السبب الأول:*** فيتجلى من خلال البيئة المحيطة ببعض القبائل الصحراوية؛ التي تضطرهم ـ بحكم الجفاف وانحباس الغيث ـ إلى الزحف طلباً للكلأ والماء نحو المناطق الخصبة، المحتلة من قبل الآخرين. فيصطدمون ـ عندئذ ـ بقبائل أخرى تعيش في تلك المناطق الخصبة؛ وهنا تنشب الحرب بين الطرفين. وهذه الظاهرة معروفة في البلاد المغربية؛ منذ حقبة تاريخية قديمة جداً؛ حيث كانت القبائل الصحراوية في الجنوب؛ المعروفة باسم "**جدالة**" أو **كدالة** في صراع مستديم مع قبائل الشمال. وقد استفحل أمر هذه القبائل ـ بالخصوص ـ في العهود: **الرومانية والوندالية والبيزنطية**.

أما العصر الإسلامي فمحشود بالشواهد الموثقة؛ بخصوص هذه الظاهرة. حيث تتكلم المصادر التاريخية المغربية ـ بكاملها ـ عن القبائل التي ترعى في المناطق الجنوبية؛ وكيف تقلق غيرها من قبائل الشمال؛ أين التلول الخصبة، والسهول الحية بزرعها الوفير، ومائها الدافق؛ فتشن عليها الغارات تلو الغارات؛ حيث كانت تلك القبائل الصحراوية تضغط باستمرار على سكان الشمال، وتسعى لامتلاك أراضيه الخصبة. وقد

[1] راجع المفصل، ج: 5، ص ص: 333 ـ 334.

تنجح بعض القبائل في الحصول على إقطاع معين من قبل الدولة ؛ على حساب قبائل أخرى مغضوب عنها. كما حدث **لبني يلومي وبني وامانوا** في عهد المرابطين، ؛ **وبني عبد الواد وبني توجين** في عهد الموحدين، **وأعراب بني هلال وبني سليم** في عهد ما بعد الموحدين ؛ مع دول: بني أبي حفص، وبني عبد الواد، وبني مرين. ويدخل في هذا الاعتبار ما ينشأ بسبب: **الطمع، والجشع، والحسد** ؛ حيث تلجأ قبيلة عيشها حسن ؛ ولكن أغراها الطمع والجشع في خيرات قبيلة أخرى. فتغير عليها ؛ بغرض انتزاع ثرواتها منها ؛ فتصطدم القبيلتان في حرب دامية. وقد حدث كثير من هذا في بلاد المغرب ؛ "طوال تاريخها القديم والوسيط.

ـ ***أما السبب الثاني:*** فينشأ من جراء نَزَعات فردية أو جماعية ؛ تفرز أمراضاً ؛ مثل: الحسد، والتنافس الذي يحصل بين سادة القبائل وأعيانها. وقد يحدث ـ أيضاً ـ بسبب زواج امرأة، [1] أو حظوة لدى سلطان أو أمير، أو ثروة ينالها أحدهم ؛ كما يحدث ـ كذلك بسبب إهانة، أو طلاق امرأة ذات حسب ونسب، أو بسبب كلمة نابية جارحة... إلخ. وتدخل في هذا الاعتبار الفتنة التي وقعت بين بني **وجديجن الزناتيين وقبيلة لواتة**. حدث ذلك عندما اشتكت امرأة **وجديجنية** إلى أهلها ؛ عن إهانة لحقت بها ؛ من طرف أسرة زوجها **اللواتي** ؛ إذ قالت أنهم عيروها بالفقر. وبسبب هذه الإهانة ـ في اعتقاد الوجديجيين ـ اشتعلت الحرب بين القبيلتين ؛ فأزهقت ـ بسبب هذا العذر التافه ـ أرواح كثيرة. والغريب أن

[1] مثل الثورة التي قامت بها قبيلة هوارة ضد إمام الدولة الإباضية عبد الوهاب عبد الرحمن بن رستم؛ بسبب فتاة هي ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ كان قد خطبها أحد شيوخ هوارة؛ فأفسد عليه الإمام؛ عندما خطبها لنفسه. وكانت هذه الفعلة بمثابة الجذوة التي أشعلت النار في الهشيم. أنظر سير الأئمة الرستميين، ص: 22. والأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137.

هذه الحرب جذبت إليها قبائل أخرى؛ تحالفت مع **وجديجن كمطماطة**، **وبني يفرن، ومغراوة**.[1]

وثمة سبب اجتماعي آخر للحروب القبلية وهو **الثأر**؛ الذي يعتبر من أهم خاصيات المجتمعات القبلية بصورة عامة.[2] وقد رسخت هذه الخاصية في المجتمعات القبلية المغربية؛ وبنيت ـ أساساً ـ على مبدأ أن ((**الدم لا يغسل إلاّ بالدم**)).[3] ومن هذا المنطلق يمكن تصور الأهوال والحروب التي اشتعلت بسبب **الثأر**. فقبيلة القتيل تَهُبُّ بأكملها لنصرة أسرة الضحية، والسعي للأخذ بثأره.؛ وفي المقابل تتصدى لهم قبيلة القاتل بجميع وحداتها؛ للدفاع عن العضو الذي ينتمي إليها؛ بفعل **الحَمِيَّة والعصبية**، والغيرة على القريب؛ حتى وإن كان ظالماً؛ وبهذا تنشب الحرب المفضية إلى مزيد من القتل بين الطرفين. ومع هذا فقد يحدث أن تلجأ بعض الفئات إلى وسائل أخرى كتعويض على الضرر؛ مثل: **الدية**؛ التي تفرض على أهل القاتل، أو اللجوء إلى **القصاص**؛ بواسطة سلطة مركزية قاهرة للجميع. وهذه الوسيلة الأخيرة نادرة، وقليلة الحدوث في المجتمعات المغربية.

ب ـ الصلات السلمية: لقد ألزمت الظروف الصعبة ـ التي تحياها القبائل ـ نشوء بعض الأعراف والتقاليد؛ التي تسمح للفئات القبلية بالتعاون والتكاتف؛ طلباً للأمن والعدل. والقبائل في بلاد المغرب لا تختلف ـ في هذا الأمر ـ عن القبائل العربية في المشرق. إذ عرفت هي الأخرى بعض المبادئ والأنساق التي تتجلى في مختلف العلاقات السلمية: **كالتجارة والأحلاف، والمصاهرة**... إلخ.

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 237 ـ 238.

[2] للتوسع في هذا يستحسن الرجوع إلى كتاب علم الاجتماع البدوي، ص ص: 310 ت 319.

[3] المفصل، ج: 4، ص: 398.

ـ ***فالتجارة:*** بين القبائل تقوم ـ في غالب الأحيان ـ على المقايضة والمبادلة؛ حتى وإن كانوا ـ في حالات ما ـ يتعاملون بواسطة النقود والعملات المختلفة. وبفضل التجارة؛ تنتقل القبائل من مقاطعاتها إلى أسواق قبائل أخرى للبيع والشراء؛ دون خوف أو حرج؛ خاصة في أوقات السلم والمهادنة. ومن الأمثلة على الأسواق التي تروج فيها التجارة ببلاد المغرب السوق التي تقام في بلاد **جزولة** وتدوم شهرين كاملين؛ يتكفل رعاتها بإطعام الناس مجاناً مهما كان عددهم، كما يسهرون على ضمان أمنهم وسلامة سلعهم وأموالهم؛ إذ تصل عقوبة السارق في سوق جزولة إلى حد القتل في الحال. وخلال قيام السوق تعقد هدنة؛ تحترمها القبائل كافة. وتقوم كل عشيرة في المنطقة بتعيين مائة من الرجال بقائدهم لحراسة السوق، وتنفيذ العقوبات الضرورية ضد المجرمين؛ ثم يقول فيها الوزان: ((**ويعاقب الجناة بحسب أهمية جرائمهم. يقتل السارقون على الفور؛ فيطعنون برمح قصير، وتترك أشلاؤهم للكلاب... ورغم النفقات الكثيرة التي ينفقها أهل السوق فإن بيع البضائع يدر عليهم مبالغ النفقات مضاعفة مرتين؛ لأن سكان الناحية كلها يأتون إلى هذه السوق؛ بل حتى سكان بلاد السودان؛ فيقومون بأعمال تجارية مهمة. وأخيراً فإن الجزوليين ذوي العقول البدائية عرفوا كيف ينظمون ـ بطريقة عجيبة ـ سوقهم من ناحية الطمأنينة والأمن**)).[1] ومن بين الأسواق الكثيرة التي تعقد في بلاد المغرب سنوياً أو أسبوعياً؛ تقام سوق في أحد أرباض فاس كل يوم خميس؛ ترتادها قبائل عديدة من بلاد المغرب لعرض مواشيها، واقتناء ما يحتاجون إليه من بضائع محلية أو مجلوبة من الخارج. ويقوم التجار بنصب خيامهم،

---
[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 145 ـ 146.

وعرض سلعهم. يقول فيها الوزان: ((**غير أن الشيء الذي لا أريد أن أغفله؛ هو أنني لم أر في أي مكان آخر ـ سواء في إفريقيا كلها أو آسيا أو إيطاليا ـ سوقاً توجد فيه بضائع بهذا القدر؛ وذلك شيء يستحيل تقديره**)) [1].

ـ ***أما الحلف***: [2] فمعناه العهد الذي يعقد بين طرفين أو أكثر؛ ويتم هذا الحلف بأن يتعاهد المتحالفون؛ مقسمين بأن يتعاضدوا ويتعاونوا في السراء والضراء. وقد يتم ذلك بإتباع طقوس معينة؛ كأن يغمس المتحالفون أيديهم في سائل: **كالدم أو الماء أو الرُّب** [3] **أو الطيب**؛ ثم يقسمون يميناً على الوفاء بالعهد، والصدق فيه؛ فيبرمون بذلك ميثاقاً مقدساً بينهم. وقد يحدد عقد الحلف بزمن دائم ومستمر، أو لفترة زمنية مؤقتة؛ بغرض تحقيق هدف معين ثم تنفك عراه.

وقد يحصل الحلف بين قبيلتين أو أكثر؛ حيث يلتجئ الضعفاء إلى الالتصاق بغيرهم من القبائل القوية بواسطة الحلف. وربما تحالفت قبيلة قوية مع قبيلة قوية أخرى؛ بغرض شن حرب على أعداء أشداء، أو بهدف حماية أنفسهم، والذود عن حماهم وأوطانهم؛ ضد عدو شديد المراس. ولا يتطلب من الدارس لتاريخ المغرب مجهوداً كبيراً لكي يكتشف هذا الأمر؛ لأن المصادر التاريخية تزخر بالشواهد التي تؤكد قيام أحلاف قبلية متنوعة. [4] وقد أورد لسان الدين ابن الخطيب مثالاً عن الكيفية التي تم بها الحلف بين بعض قبائل المغرب؛ حيث قال: ((**وشاع عنهم معاقدة بقبر الولي القطب المقصود التربة أبي العباس** [أحمد بن جعفر]

---

[1] نفسه، ص: 279.

[2] للتوسع أنظر كتاب النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، ص ص: 155 ـ 167. والمفصل، ج: 4، ص ص: 370 ـ 388. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 90 ـ 98.

[3] الرُّب: عصير بعض الثمار؛ ويكون خاثراً.

[4] أنظر على سبيل المثال كتاب العبر، وكتاب القبائل العربية في المغرب.

السبتي. ولقد حدث أنهم احتفروا أفحوصاً، واستدعوا الجاماً يجعلونه في أعناقهم عند القسم سجية جاهلية)). [1]

ـ ***أما المصاهرة:*** فلها أثر كبير في عقد الصلاة السلمية بين القبائل؛ لأن العادة جرت بأن يتزوج سادة القبائل، وبعض الأمراء والسلاطين من بنات قبائل مؤثرة؛ بغرض عقد صلات قربى ورحم؛ فيضفي ذلك الأمر عليهم قوة بعد قوتهم؛ فتتعزز عصبيتهم؛ عن طريق ربط عرى الأرحام، وتمتين وشائج القربى مع القبائل الأخرى؛ ذات القوة والنفوذ؛ فتغدوا بذلك سنداً لهم، وعوناً يستنجدون به عند الحاجة. وقد عمل بمبدأ المصاهرة هذا رسول الله r . وقد انتشرت هذه السنة في بلاد المغرب؛ بين سادة القبائل، والسلاطين، والأمراء وبين القبائل المختلفة. [2]

ويعتبر مبدأ المصاهرة هذا من أهم العوامل التي ساعدت على إدماج وصهر العرب بالأمازيغ؛ حيث تشابكت الأنساب واختلطت؛ بفضل المصاهرة التي حدثت عبر السنين المتوالية. وقد عرفت هذه العادة ببلاد المغرب منذ القدم. فهذا **عزربعل القرطاجي**؛ يزوج ابنته **سوفونيسب** إلى الإغليد **سيفاكس**؛ طمعاً في عقد روابط القربى بينهما؛ من أجل الوقوف معاً في وجه الرومان. [3] كما عمل بها ـ مثلما قلناه ـ إمام الدولة الرستمية عبد الوهاب بن عبد الرحمن؛ حين تزوج من ابنة شيخ لواتة. وقد عمل بهذا المبدأ حكام بني مرين؛ قبل قيام دولتهم وخلالها؛ إذ أصهروا إلى قبائل عربية عديدة؛ بل بالغوا في تزويج أبنائهم الأمراء من بنات القبائل العربية؛ لضمان وقوفها في صفهم. وعرفت هذه

---

[1] نفاضة الجراب، ص: 305. القبائل العربية في المغرب، ص ص: 248 ـ 249.

[2] تزخر كتب التاريخ الخاصة ببلاد المغرب بالأمثلة التي تؤكد مدى فعالية المصاهرة في نصرة الأصهار من أعضاء القبائل. أنظر في ذلك كتاب العبر.

[3] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 104.

العادة ـ أيضاً ـ في الدولة الحفصية ؛ وأهم مصاهرة تمت فيها هي مصاهرة السلطان أبي العباس أحمد بفتاة من عرب المحاميد.

وثمة أمثلة كثيرة على هذا. ولكن لم تأت المصاهرة أكلها في الحالات جميعها ؛ حيث لم تمنع حدوث خلافات، وفتن عديدة ؛ منها على سبيل المثال: المصاهرة الحاصلة بين **يوغرطا وبوكوس الأول** ؛ إذ لم تمنع هذا الأخير من خيانته وتسليمه للرومانيين.[1] وفي العصر الإسلامي ؛ لم تفد **المعز ملك بني زيري** مصاهرته ببناته الثلاث من شيوخ بني هلال: فارس بن أبي الغيث، وعائذ بن أبي الغيث، والفضل بن أبي علي المرادي.[2] كما لم تمنع المصاهرة بين **الملك المنصور بن الناصر الحمادي وماخوخ** شيخ قبيلة بني **ومانوا** الزناتية من حدوث حروب بينهما ؛ إذ انضمت قبيلة **ماخوخ** هذا إلى صفوف **المرابطين** أعداء **الحماديين** ؛ فزحف إليهم **المنصور** ؛ ولكنه هزم أمامهم ؛ فلم يجد وسيلة للانتقام سوى قتل زوجته ؛ وهي أخت **ماخوخ**.[3]

3 ـ العلاقات بين القبيلة والدولة الحاكمة :

العلاقات بين القبائل والدولة الحاكمة في بلاد المغرب تتحدد بمدى ولاء القبائل للدولة. وبهذا يمكن تصنيف قبائل المغرب إلى: **قبائل مناصرة وتابعة للدولة، وقبائل خاضعة للدولة، وقبائل مشاغبة ومتمردة عليها**. وبما أن بلاد المغرب تزخر بالقبائل المختلفة ؛ فإن عددها من كل صنف لا يمكن حصره. وعلى هذا ؛ فقد تعرضت الدولة في هذه الديار لهزات كثيرة ؛ كان السبب فيها القبائل المشاغبة والمخالفة. وبهذا يصطدم

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 161.
[2] العبر، مج: 6، ص: 34.
[3] نفسه مج: 7، 115.

الدارس لتاريخ المغرب، ودوله بالأحداث اللامتناهية؛ التي تتسبب فيها القبائل. بحيث يكاد تاريخ هذه البلاد أن يكون عبارة عن تاريخ للقبائل وكفى.

إن العلاقات بين الدولة والقبائل في بلاد المغرب تتميز ـ في الغالب ـ بالتمرد والخيانة والغدر والعصيان؛ لأن الثقة معدومة بين المؤسستين؛ والفاصل فيها ـ دوماً ـ هو العنف والقوة والقهر. وتلجأ الدولة ـ بالطبع ـ إلى ضرب القبائل بعضهم ببعض؛ ليخلو لها الجو، وتتمكن من السيطرة عليهم. غير أن هذه السياسة التي تعتمد على قبائل معينة دون الأخرى في العمليات الحربية؛ جعلت الدولة في موقف ضعيف؛ لأنها ـ باعتمادها على القبائل ـ تراخت عن إنشاء جيش دائم ومستقل عن التبعية للقبائل؛ بحيث تكون له القدرة على ضرب أي طرف يحاول التمرد والعصيان؛ حتى وإن كان ذلك من طرف القبائل المناصرة للدولة. ونتيجة لموقف الدولة الضعيف تجاه بعض القبائل القوية، وطمعاً في ضمان ولاء تلك القبائل؛ فقد لجأت الدولة إلى منح مقاطعات معينة للقبائل المرغوب في ولائها؛ كما أعفتهم في الغالب من الإتاوات والمغارم؛ بل سمحت بعض الدول الضعيفة إلى القبائل المناصرة لها باستخلاص الضرائب والإتاوات من القبائل الصغيرة المتواجدة في أراضي الدولة المذكورة. وبذلك سميت القبائل المناصرة "**بقبائل المخزن**" وسميت القبائل الخاضعة والمقهورة **بالقبائل الغارمة**. أما الصنف الثالث فهي **القبائل المتمردة**؛ ومجالها القفار الواسعة؛ بعيداً عن الدولة وأنصارها؛ ومع هذا فهي ـ دوماً ـ تتصيد الفرص المواتية للإغارة والغزو؛ فتنقض على فريستها كالقضاء القاتل؛ حيث تكتسح الدولة وتوابعها؛ فتنجح أحياناً وتفشل في أخرى.

أ ـ قبائـل المخـزن: بمـا أن الدولـة في بـلاد المغـرب تتكـون في الأسـاس بواسطة مجموعـة مـن القبائل المتحالفة ؛ إذ تسقـط دولـة سابقـة وتقيـم دولـة الحلـف القبـلي الجديـدة ؛ فـإن القبائـل المتحالفـة تصبـح صاحبـة الدولـة ؛ فتسـمى بذلـك باسـم "**قبائـل المخـزن**" ؛ أي قبائـل الدولـة. وهـذه القبائـل تكـون في غالـب الأحيان معفية مـن الضرائـب والمغـارم المختلفـة. بـل تحـظى بفوائـد عديـدة ؛ منهـا بعـض العطايـا والجرايات الـتي تخصص لرؤسائهـا، ثـم تمنـح إقطاعـات عديـدة تستغلهـا القبيلـة في فلحهـا والـرعي فيهـا. كـل ذلـك في مقابـل تخصيـص عـدد مـن الرجـال والفرسـان لـكي ينضمـوا إلى جيـش الدولـة، ويبقـوا في خدمتهـا. وقـد أشـارت المصـادر التاريخيـة إلى عينـات مـن الأحداث الـتي خدمـت فيهـا القبائـل المغربيـة الدولـة ؛ مثـل: القبائـل الليبيـة الـتي استعانـت بهـا **قرطـاج** لطـرد "**دوريـوس**" ابـن ملـك **إسبرطـة** الإغريـقي ؛ وذلـك حـوالي عـام 510 ق. م. [1]

وعندمـا أقـام **مسنيسـا** دولتـه ؛ سـارع إلى منـح الأراضـي الخصبـة للقبائـل الـتي وقفـت معـه، وانتصـرت لـه ضـد **سيفكـس وقرطـاج**. ((**وكـان مـن الواجـب ـ مـن دون شـك ـ إقـرار القبائـل ؛ بتمليكهـم الأراضـي، وحمايتهـم مـن غـزوات البـدو**)). [2] وفي منتصـف القـرن الثـاني الميـلادي قامـت رومـا بتشكيـل بعـض الوحـدات العسكريـة المكونـة مـن أبنـاء القبائـل المغربيـة المناصـرة للدولـة ؛ ((**فأنشـأت بذلـك بعـض الفيالـق مشتملـة فقـط عـلى عناصـر إفريقيـة بحتـة ؛ مثـل: "*Ala Numidica*" و"*Cohors Maurorum* " في نوميديـا وسريـة "المزالمـة" "*Cohors Musulamiorum*" في موريطانيـا. وحـوالي سنـة 150 م رأت رومـة أن سلطتهـا قـد تدعمـت ؛ بحيـث أمكنهـا الاعتمـاد عـلى الجنـد البربـر وحدهـم في توطيـد الأمـن. غيـر أن الظـروف**

[1] تاريـخ إفريقيـا الشماليـة، ج: 1، ص: 89.
[2] نفسـه، ص: 135.

الخاصة التي فرضتها محاربة بدو الصحراء في القرن الثاني حملت الأباطرة على أن يعهدوا بحماية جبهة واد جدي الجديدة إلى إضافيين شاميين ؛ من تدمر خاصة "*Palmyre*" ؛ وكانوا قد مرنوا حسب الخطة التي تقتضيها التخوم الصحراوية)). [1]

وعندما قامت دولة الأدارسة اعتبرت قبائل أوربة، وبعض الأحياء من: زناتة، وزواغة، ولواتة، ولماية، وسدراتة، وغياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة؛ [2] بين القبائل الحليفة للدولة. كما اعتبرت عشائر من: لماية، ولواتة، ومزاتة، وهوارة، وزناتة؛ حلفاء للدولة الرستمية. [3] وهكذا؛ لكل دولة قبائلها المخزنية؛ التي تعتمد عليها. والأمثلة كثيرة على هذا. ومن أراد التوسع فكتب التاريخ المغربي تزخر بالأمثلة.

ب ـ *القبائل الغارمة*: وهي القبائل الضعيفة الخاضعة لقهر الدولة، وتسلط حكامها، والمستسلمة للأحكام الصادرة عنها. وقد تعمل الدولة على ترضية رؤساء هذه القبائل المستسلمة؛ من أجل استخلاص الضرائب منها، أو تجنيد بعض أبنائها عند الحاجة إليهم. ومع هذا فقد تلجأ هذه القبائل المقهورة أحياناً إلى الثورة والعصيان.

وهذا الصنف من القبائل عرف منذ القدم؛ إذ أخضعت بعض القبائل المغربية من قبل **القرطاجيين**، وأجبرت على دفع الضرائب؛ كما جند أبناؤها في الجيوش البونيقية. وعلى الرغم من عصيان تلك القبائل وثوراتها على **قرطاج**؛ إلاَّ أنها فشلت في التخلص من نيرها. وقد تجلى ذلك من خلال الانتفاضة التي قامت بها القبائل الليبية ضد قرطاج في منتصف القرن السادس ق. م. ولكن تلك الانتفاضة قمعت بواسطة القائد

---

[1] نفسه، ص: 192.
[2] دول الخوارج والعلويين، ج: 1، ص: 141.
[3] نفسه، ج: 1، ص: 67.

القرطاجي **ملكو أو ملقيس** *Malchus*.[1] كما أن الثورة التي عرفت **بثورة المرتزقة** ؛ ما هي إلاَّ ثورة قامت بها القبائل المغربية المقهورة. والدليل على ذلك ما لوحظ من حماس استقبلت به تلك الثورة من قبل المغاربة ؛ وفي هذا يقول ش. أ. جوليان : ((**وإلى هؤلاء** [أي المرتزقة] **الذين نغلت قلوبهم عليها** [أي قرطاج] **انضم الليبيون ؛ وقد أضنتهم الحرب من بدايتها. ثم إنه وقع حجز نصف الصابة، وزج في السجن بجميع من عجزوا عن الدفع، وصلب** 3000 **من إخوانهم الذين فروا من الجندية ؛ لأنهم أبوا أن يخدموا قضية ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. فنشأت أزمة عن هذا الحقد المشترك على الظالم ؛ طبعت طيلة ثلاث سنين وأربعة أشهر بطابع الحرب الطبقية ؛ وقد ضحت النساء البربريات بحليهن في سبيل الحرية، وظهر قادة في صفوف الثوار، ولم تعرف الحرب هوادة. و"ماتوس" الليبي هو الذي أشعل نار الثورة ؛ فاستجاب لندائه الحضر والبدو ؛ وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً من الرجال يحدوهم نفس الحماس**)).[2]

وفي العصر الروماني ؛ لم تتوقف ثورات القبائل المغربية التي ترزح تحت السيطرة الرومانية. ومنذ أن زالت الدولة الوطنية، وقامت مكانها مؤسسات تابعة للدولة الرومانية ؛ لم يتوانى المغاربة عن التمرد والعصيان ؛ وعلى الرغم من تنصيب **يوبا الثاني** على **موريطانيا القيصرية** ؛ فإن ذلك لم يخفف من الاضطرابات ؛ بل زادت في عهده وعهد ولده حدة الثورات وحرارة التمرد ؛ إذ في زمنهما ثارت قبائل **المزالمة وجدالة** بقيادة **تكفارناس**. ودامت ثورات القبائل المغربية طوال حكم **تيبريوس** [14 ـ 37م] **وقاليقولا** [37 ـ 41م] **وكلوديوس** [41 ـ 54م]. ((**أما دوميتيانوس (81 ـ 96) فقد اضطر إلى مواجهة ثورات عديدة**

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 91. وهنيبعل، ج: 1، ص: 50.
[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 98 ـ 99. أنظر أيضاً هنيبعل، ج: 1، ص ص: 183 ـ 204.

وخاصة في موريطانيا وعلى ساحل سيرتا الكبرى؛ حيث انتقم الناسامون *Nasamons* **ممّا كانوا يقاسونه من صنوف الاغتصاب؛ فقتلوا جامعي الضرائب "85 ـ 86"))**. [1] هذا بالإضافة إلى الاضطرابات التي نشبت في موريطانيا الطنجية.

وفي عهد **هرديانوس** (117 ـ 138) اندلعت ثورة في موريطانيا سنة 118 دامت سنوات عديدة: ((**وبلغت من الشدة في عهد أنطونان الورع (138 ـ 161) ما جعل القوم يطلبون النجدة من سوريا وإسبانيا وبنونيا لتخليص المنطقة الشمالية حتى الأطلس "144ـ152". وبلغت الثورة منطقة أوراس حيث دخلت الجيوش الرومانية لأول مرة على ما يظهر**)). [2] وتواصلت الثورات بعد ذلك في عهد **مرقس أوريليوس** (161 ـ 180) وعهد **كوموديوس** (180ـ 192) وعهد سبتيموس سواريوس (193ـ 211) وعهد سواريوس الإسكندر (222 ـ 235). وقد حرصت الدولة على استرضاء رؤساء القبائل المغربية الغارمة؛ بتخصيص رواتب مالية ثابتة لهم، وخلع المعاطف الحمراء عليهم؛ لتزكيتهم وتثبيتهم على رأس قبائلهم؛ طمعاً في ضمان ولاء تلك القبائل للدولة، وحرصاً على تسكين ثورتها. [3]

ومع هذا لم تتمكن روما من نزع فتيل ثورة القبائل المغربية؛ إذ كانت تلك القبائل لا تترك أي فرصة مواتية للانتفاض على الدولة الرومانية: ((**فالبربر ـ حتى المتأثرون منهم بالرومان ـ لم يبقوا أعواناً؛ بل رعايا؛ كل أملهم أن يزحزحوا عنهم وصاية السيد المستبد. فقد أشعل سكان الجبال ـ طبعاً ـ نار الحرب؛ لكن تبلورت حولهم مقاومة مسلحة كادت تعم في وقت من الأوقات إفريقية كلها... اندلعت الثورات البربرية**

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 182.
[2] نفسه، ص: 182.
[3] نفسه، ص ص: 201. 202.

من عهد الإسكندر [سافاروس 222 ـ 235م] **؛ ولم تنفك نارها مشتعلة منذ ذلك التاريخ.. وامتدت الثورة سنة 253م إلى نوميديا وموريطانيا القيصرية)).** [1] لم تتمكن روما من إطفاء تلك الثورات بشكل نهائي ؛ إذ أنها كلما أخمدت ثورة اشتعلت الأخرى بجانبها ؛ فكانت بذلك كالنار التي اشتعلت في الهشيم ؛ ودام ذلك الحال إلى عام 262 م تقريباً.

وما أن ظهرت بوادر الانفراج حتى اشتعلت نار الثورة من جديد في حدود سنة 289 م ؛ وظلت في اشتعالها حتى سنة 298 تقريباً. وفي سنة 372 م أعلنت القبائل الخماسية بقيادة **فيرموس** العصيان ؛ واختارت التمرد على إرادة الدولة الرومانية ؛ وقد دام ذلك التمرد إلى عام 375 م ؛ بعد أن تمكن الرومان من تقسيم صفوف الثوار، وتحطيم روح المقاومة فيهم ؛ بواسطة الإغراءات والوعود بالعطايا والمناصب. وفي عام 396 م ثار **جلدون** بالقبائل المتحالفة معه ؛ ولكنه وجد أمامه أخيه **مقزيل** بدلاً من القائد الروماني ؛ كما خذله رؤساء القبائل الحليفة : ((**وتوخت روما سياسة تعتمد على الخلافات بين قواد البربر. وكما أن جلدون أوحى إلى تيودورز بالخطة لمقاومة** [أخيه] **فيرموس ؛ فإن مقزيل البربري قاد هو بنفسه الجيوش التي أرسلتها رومة ضد أخيه جلدون ؛ وانتصر مقزيل بسهولة بحيدرة** *Ammaedara*. **ولا بد أن يكون شيوخ القبائل الذين اشتريت ضمائرهم قد تخلوا عن القتال والحرب على أشدها)).** [2] والغريب أن **مقزيل** ـ هو الآخر ـ كان مصيره الاغتيال من طرف الرومان ؛ مكافأة له منهم على خدماته لهم. كل هذه الثورات مصدرها القبائل الخاضعة للحكم الروماني ؛ أي القبائل الغارمة التي تدفع الضرائب بشكل أو بآخر للرومان.

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 269 ـ 270. 273.

[2] نفسه، ص: 306.

ولما احتل **الونداليون** بلاد المغرب ؛ تغاضوا بعض الشيء عن القبائل المغربية التي كانت خاضعة للدولة الرومانية ؛ بسبب انشغالهم في الحرب ضد الرومانيين. بل اعتمد ملكهم **جنسريق** على المغاربة في حروبه. ((**ويؤكد بروكوب أنه استمال قلوب البربر بتشريكهم في غاراته الإيجابية بعد أن أذعن إلى سلطته قادتهم**)). [1] ومع هذا لم ينجح خلفاؤه في الاحتفاظ بولاء القبائل المغربية المستقرة في التراب الذي يسيطر عليه **الوندال** ؛ لأن **جنسريق** ـ في الحقيقة حتى وإن شغل بعض المغاربة بالحروب التي أشركهم فيها إلاَّ أنه ـ لم يترك للقبائل المغربية سوى الأراضي الضعيفة التي لا تنتج إلاَّ محاصيل قليلة. بالإضافة إلى أنه أثقل كواهلهم بالضرائب المجحفة. [2]

وهذا الأمر زاد في الضغوط على الفلاحين الذين أخذوا يتصيدون الفرص المواتية للانتقام واسترداد حريتهم وحقوقهم ؛ وجاءت ـ بالفعل ـ الفرصة بعد موت **جنسرين** ؛ حيث أخذت وطأة الدولة تخف بعض الشيء عنهم ؛ بسبب ضعفها واضطراب حالها : ((**الأمر الذي نتج عنه اضطراب في النظام الاجتماعي. واستغل العَمَلَة الفلاحيون القلاقل التي حدثت في القرن الخامس لشق عصا الطاعة ، وإعلان التمرد ؛ بعد أن قاسوا ما قاسوا من استغلال الملاكين الفاحش ، وتعسف رجال السلطة... انتظمت صفوف المعدمين البرابرة بنوميديا في قبائل مستقرة أذعنت لأمراء أقوياء أصبحوا في القرن الموالي خصوماً أشداء في وجه بيزنطة وتجاوزت الثورة حدود نوميديا. وقد ذكر "بروكوب" أن الموريين استولوا على موريطانيا حيث نهبوا وقتلوا الكاثوليك والوندال من دون ميز**)). [3]

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 333.
[2] أنظر المرجع نفسه، ص: 329.
[3] نفسه، ص: 347.

وبحلول العهد البيزنطي بقي الحال على ما كان عليه. ولم تجد أوامر "**البريفي** *préfet du prétoire*" للولاة بجعل نهاية لجشعهم، وترك النهب الذي يتعرض له السكان الأصليين؛ إلا أنهم تمادوا في استنزاف الناس واستغلالهم، واغتصاب ثرواتهم، ومصادرة أملاكهم. وعلى هذا: ((**فإن البيزنطيين واجهوا منذئذ حرباً مزمنة ضد القبائل. أما جيشهم الذي كانت تُعْوِزُهُ روح الانقياد ويشكو ضعف القيادة في كثير من الأحيان فإنه كان عاجزاً عن صد هجمات خيالة البربر الذين لم ترهبهم الحصون**)). [1]

أما في العهد الإسلامي فالأمثلة واضحة وكثيرة؛ عن العصيان والثورات التي كانت تصدر عن القبائل الخاضعة للدولة، والملزمة بدفع الضرائب لها. وأصدق دليل على ذلك ما ذكره ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة**"؛ حيث قال: ((**فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات. فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً. وعادوا بعد ذلك للثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة. قال ابن أبي زيد: "ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة، ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلاّ لعهد موسى بن نصير فما بعده**)). [2]

وحتى بعد استقرار كلمة الإسلام في هذه الديار؛ فالقبائل لم تستقر أحوالها الاقتصادية والاجتماعية؛ حيث بقيت الثورات مشتعلة؛ بين القبائل والدول: الإدريسية والرستمية والمرابطية. ولما حلت الدولة

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 365.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 646 ـ 647.

الموحدية تجلت صورة قبائل المخزن من جهة والقبائل الغارمة من جهة أخرى ؛ هذا بالإضافة إلى القبائل التي لم تتمكن الدولة من إخضاعها. وأهم مثال على الاضطرابات ما قامت بها قبائل بني هلال في ديار إفريقية ؛ من عصيان ومقاومة لنفوذ الدولة الموحدية ؛ وما واجهوه من موقف حازم من قبل عبد المؤمن بن علي أمير الدولة الموحدية. حيث أنه بعد إخضاع قبائل إفريقية والمغرب الأوسط ؛ الزمهم بدفع الخراج للدولة : ((**في هذه السنة** [أي 554 هـ الموافق لـ 1159م] **أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقيا والمغرب... من برقة إلى بلاد نون من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً ؛ فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعارى** [الجبال] **والأنهار والسبخات والطرقات والحزوق** [الأماكن الضيقة] **؛ وما بقي سقط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق. فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب**)). [1]

وبهذا اعتبرت القبائل الملزمة بدفع هذه الضريبة قبائل غارمة ؛ على خلاف قبائل الموحدين المناصرين للدولة. وبسقوط الدولة الموحدية ؛ بسبب الثورات المتكررة، وعوامل أخرى ؛ سارت الدول التي ورثت تراثها ـ مثل : الدولة الحفصية، والدولة العبد الوادية، والدولة المرينية ـ على النهج نفسه ؛ من حيث تصنيف القبائل إلى : مناصرة للدولة، وغارمة، ومتمردة. ولكن بظهور بوادر الضعف على تلك الدول اغتصبت القبائل القوية في بلاد المغرب حق الاستفادة بالضرائب المأخوذة من القبائل الضعيفة ؛ فازدادت تلك الدول ضعفاً على ضعفها ؛ بسبب تقلص الموارد المالية ؛ الأمر الذي عجل بسقوطها نهائياً.

---

[1] روض القرطاس، ص: 129.

جـ ـ *القبائل المتمردة*: هذا الصنف من القبائل ليس نصيراً للدولة، ولا خاضعاً لها؛ بل يعاديها، ويعاملها معاملة الند للند. ففي عهد الدولة **البونيقية** واجهت حملات عديدة قامت بها القبائل المغربية المستقلة عن سلطانها؛ من بينها تلك التي واجهها القائد القرطاجي **ملكو**؛ حيث يقول جورج مصروعة: ((**وحاربت قرطاجة بعدئذ بعض القبائل الإفريقية التي اجتذبها الثراء الكنعاني؛ فجاءت تغزو القصور القائمة على الشاطئ والمستودعات خارج الأسوار؛ ولا سيما بعد أن تضاعف عدد القطاجيين، وضاقت المدينة بسكانها. وقد استفحل شر هذه القبائل؛ حتى أن قرطاجة اضطرت أن تجرد حملة عسكرية ضخمة قيادة ملكو**)). [1]

ويبدو أن **مصروعة** لم يتعمق في بحث أسباب غزوات القبائل المغربية؛ لأن اقتصاره ـ في تفسير ذلك ـ على طمعهم في الثراء الكنعاني..**!** فيه قول. غير أن ثمة عوامل أخرى؛ ربما كانت وراء تلك الغزوات. من ذلك ما ورد في المصادر التاريخية أن القرطاجيين التزموا ـ عند قدومهم لبلاد المغرب ـ بتقديم ضريبة للمغاربة؛ السكان الأصليين في هذه الديار؛ ((**وواصلت قرطاج دفع الضرئب السنوية لليبيين طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر**)). [2] وهنا؛ ألا يكون انقطاع تلك الضريبة، وإخلال قرطاج بالتزاماتها ـ حينما شعرت بنمو قوتها ـ هو سبب هجمات القبائل المغربية..؟

المهم أن قرطاج كانت تسيطر على شريط ساحلي ضيق من بلاد المغرب؛ والذين كانوا ضمن ذلك الشريط من العشائر المغربية يدخل في سياق القبائل الغارمة، أما القبائل التي تملأ البلاد المغربية طولاً وعرضاً؛ فلا سلطان لقرطاج عليها. وبالخصوص تلك القبائل التي تجوب

---

[1] هنيبعل، ج: 1، ص: 50.
[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 87.

الصحـراء؛ مثـل **جدالـة والقرامونـت والنسامـون** وغيرهـا؛ فكلهـا تعتبـر قبائـل مستقلـة عـن الدولـة؛ إن لـم تكـن معاديـة لهـا. أمـا الدولـة الرومانيـة؛ فقـد عانـت كثيراً مـن تلـك القبائـل. خاصـة منـذ انكشـاف نواياهـا وأطماعهـا فـي الاستيـلاء علـى أجـزاء مـن دولـة ورثـة **مسنيسـا**. لـذا فـإن مقاومـة القبائـل المغربيـة واكبـت عمليـات بنـاء **اللمـس** فـي مراحلـه كلهـا.

ومـا الثـورات الـتي تناقلتهـا المصـادر التاريخيـة؛ سـوى تعبيـر عـن مقاومـة السكـان الأصلييـن للاستعمـار الرومـاني؛ الـذي كـان يلتهـم أراضـي القبائـل المغربيـة الخصبـة يومـاً بعـد يـوم؛ وكلمـا تقـدم **اللمـس** فـي عمـق الأراضـي المغربيـة؛ كلمـا انتفضـت مجموعـة جديـدة مـن القبائـل الثائـرة. فمنـذ البدايـة؛ سعـت رومـا إلـى الاستحـواذ علـى أراضـي المغاربـة الخصبـة، وتحويلهـا إلـى أمـلاك عموميـة، ومـا بـقي منهـا فـي أيـدي أصحابهـا فرضـت عليهـم ضريبـة ثابتـة سميـت بضريبـة المهزوميـن. [1] **((وكانـت رومـا كلمـا احتلـت مقاطعـة ضبطـت مساحتهـا. ولعلهـا ـ كعادتهـا ـ شرعـت حالمـا احتلـت البـلاد فـي تقسيمهـا إلـى قطـع مربعـة؛ مساحتهـا خمسـون هكتـاراً تقريبـاً. وهـذا هـو المقيـاس الـذي استعملـه فلاكـوس** *Flaccus* **وڤراكـوس** *Gracchus* **سنـة** 122 **ليوزعـا قطـع الأرض علـى المعمريـن)).** [2]

وإذا استثنينـا الحـروب الـتي شنهـا حفـدة **مسنيسـا** علـى الرومـان؛ لأنهـا كانـت حـروب دولـة ضـد دولـة؛ فـإن أهـم الحـروب الـتي أضـرت بالرومـان وأزعجتهـم؛ هـي الـتي شنتهـا ضدهـم قبائـل **المزالمـة** الأوراسيـة، وقبائـل **جدالـة** الصحراويـة. ومـا ثـورة **تكفارنـاس** إلاَّ عينـة منهـا؛ إذ وقفـت خلفـه قبائـل **المزالمة** المتمـردة، وقبائـل **جدالـة** المتحفـزة للحـرب فـي كـل الأوقـات؛ بالإضافـة إلـى بعـض القبائـل **المورطانيـة** بقيـادة "**مازيبـا**": **((اتخـذ أغسطـس**

---

[1] تاريـخ إفريقيـا الشماليـة، ج: 1، ص: 150.

[2] نفسـه، ص: 148.

عدة تدابير إدارية وعسكرية ؛ غير أنها لم تمنع شقاً من الموريين من الانضمام إلى ثورة النوميدي "تكفارناس" *Tacfarinas* سنة 17 بعد المسيح)). [1] المهم أن ثورة قامت بها فئات من عدة قبائل مغربية ضد احتلال أراضيهم، وانتقاماً ممن اغتصبها، وممن أجبروهم على النزوح عنها نحو الجبال والصحاري. وإذا كانت الثورة التي تزعمها **تكفارناس** قد دامت زهاء السبع سنوات ؛ فإن ثورة القبائل المغربية لم تنته بمقتله ؛ بل ظلت مشتعلة طول ثلاثين سنة متتابعة. [2] واستمرت الثورة في عهد **قاليقولا** ، ثم امتدت ثورة **الموريين** في ولاية **كلوديوس** باتجاه جنوب **نوميديا** ؛ فأنهكت الجيش الروماني وقادته. المهم ؛ أنه إذا ما أحصينا عدد الثورات والحروب التي قامت بها القبائل المغربية ضد الدولة الرومانية ـ سواء منها القبائل الغارمة الخاضعة للدولة أو القبائل المتمردة التي لا سلطان للدولة عليها ـ لوجدنا أن الثورات القبلية تحدث بمعدل مرة في كل سنة. وبذلك فالدولة الرومانية كانت في حالة استنفار دائمة تقريباً.

وبقدوم الونداليين ضعفت الضغوط على القبائل المغربية ؛ إذ اتسع نطاق حريتها ؛ حيث تمكنت من إنشاء دول عبر البلاد المغربية. [3] ومع هذا ؛ لم يتمتع الونداليون بالهناء التام ؛ حيث تعرضوا لهجمات القبائل المغربية المنصبة من جبل أوراس، [4] والوافدة من الصحراء بجمالها :

---

[1] نفسه، ص: 173.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 177.

[3] ((تعددت في مورطانيا الدويلات المستقلة الفسيحة أحياناً .وكان يعيش فيها جنباً إلى جنب الرومان والبربر تحت سلطة نفس الأمراء. وعلى هذا النحو نتصور مملكة مازونة Masuna وهو معاصر تراسموند الملقب بـ" ملك القبائل المورية والرومان"... ولم يتأخر قائد بربري من الأوراس عن تلقيب نفسه بالإمبراطور حوالي سنة 477 ـ 476 كما يشهد بذلك نقش آريس Arris ـ الذي درسه كاركوبينو ـ ويبدو أنه احتفظ بهذا الاسم طيلة أربعين سنة من دون أن ينازعه أحد... ويظهر أن الحكومة الوندالية لم تكن صارمة إزاء تعدد الإمارات المستقلة)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 348.

[4] ((ونزل سكان جبال أوراس إلى السهول يستبيحون المدن الزاهرة. فأصبحت تبسة Theveste وتيمقاد Thamugadi وقصر باغاي ولمباس ـ بعد أن خلت من سكانها وانكسرت شوكتها ـ أثراً بعد عين؛ ولم يقف سيل التخريب والتدمير إلاّ على حدود قسنطينة)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 347.

((أخذ يتوافد من جهة الشرق خصوم جدد أشد بأساً، وأبعد خطراً؛ هم الجمَّالة الرُّحَّل المنحدرون من طرابلس؛ يقودهم أمير داهية يدعى كاباوون *Gabaon*؛ فاصطدم تراسموند بخطتهم الحربية الجديدة؛ أي خطة القبائل الجمالة المعهودة)). [1]

ولم يتغير الوضع الأمني كثيراً في العهد البيزنطي؛ إذ استمرت القبائل المغربية الخاضعة للدولة في عصيانها وانتفاضاتها؛ وكذلك الحال بالنسبة للقبائل المستقلة؛ المجبولة على التمرد والهجوم على حدود الدولة كلما سنحت الفرصة لذلك. **((وعلاوة على قبائل نوميديا المستوطنة فإن القبائل الرحل الصحراوية الليبية أخذت تواصل هجماتها؛ وإذا أمكن لسليمان** [القائد البيزنطي] **أن يستأصل القبائل المستوطنة فإن قواده فشلوا أمام القبائل الرحل، وقضى نحبه** [أي سليمان] **وهو يقاتلهم. ومن ذلك الوقت أصبحنا أمام فريقين من البربر سيكون لهما دور في تاريخ المغرب: المزارعون المستقرون والرعاة الجمالة الذين انتهوا إلى الجزء الشرقي والجنوبي من الأوراس)).** [2]

أما في العهد الإسلامي فقد بقيت بعض القبائل الأمازيغية غير خاضعة للدولة الأموية ممثلة بولاتها في القيروان؛ إذ انحصر نفوذ والي إفريقية على الجزء الشمالي من تونس، وبلاد الزاب. أما المغربين: الأوسط والأقصى فلم يعودا من ممتلكات الدولة الأموية أو العباسية؛ لأن هاتين المقاطعتين وقعتا تحت سيطرة القبائل الثائرة؛ **كبرغواطة**، في

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 348 ـ 349. وقد لخص ش. أ. جوليان الوضع لحكم الوندال في بلاد المغرب بقوله: ((ولم ينته الخطر البربري بهذه الصورة المرضية. فبعد أن بسط الموريون نفوذهم على موريطانيا الطنجية والقيصرية باستثناء عاصمتها وموريطانيا السطيفية ونوميديا الجنوبية؛ هاجموا جنوب المزاق؛ تحت إمرة "أنتلاي" الذي كان قائد القبائل المستقرة في الأراضي الكائنة بين جهة الشطوط وأحواز قفصة Capsa وأسفرت المعركة عن انهزام الوندال)). نفسه، ص: 350.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 366.

تامسنا **والصفرية** بسجلماسة، **والإباضيين** الذين استولوا على محيط طرابلس، وجبل نفوسة وجنوب المغرب الأوسط. وظل هذا الوضع حتى قيام الدولة الفاطمية؛ التي بقيت في حروب سجال بينها وبين القبائل المتمردة عليها من زناتة وغيرها. وفي كل عهد من العهود شهدت بلاد المغرب قبائل لا تخضع لأي دولة؛ بل تؤرق استقرارها وتزعجها. فالدولة المرابطية وقفت ضدها قبائل **برغواطة، ومصمودة**؛ بالإضافة إلى بعض قبائل **زناتة وصنهاجة**. أما الدولة الموحدية؛ فقد وجدت في بعض قبائل زناتة مناوئاً وخصماً شديد المراس؛ بالإضافة إلى صنهاجة وقبائل بني هلال. ولما سقطت الدولة الموحدية تآمرت قبائل عديدة ومتنوعة ضد الدول التي ورثت تراث الموحدين. وهكذا لم تشهد هذه الديار ـ منذ العهد البونيقي ـ لحظات تتمتع فيها بالهناء والاستقرار والسلم. وذلك راجع إلى التركيبة الاجتماعية التي جعلت من القبلية هي صاحبة السيادة في هذه الديار.

4 ـ العلاقات خارج نطاق الدولة الحاكمة:

فإذا رأى بعضهم ـ في الأشكال السابقة من العلاقات ـ شيئاً من الشرعية؛ فإن هذا الصنف من العلاقات يعتبر مخالفة صريحة للأعراف والشرائع المتبعة. خاصة عندما تعقد علاقات مريبة بين القبائل وبعض الدول المعادية. وفي بلاد المغرب بعض الأمثلة الحية لتلك العلاقات؛ التي عقدت بين القبائل المغربية وبين دول خارجية معادية.

وهذا ـ طبعاً ـ ليس مقتصراً على بلاد المغرب؛ بل حدث مثله الكثير في البلاد العربية بالمشرق؛ حيث أعطت القبلية لنفسها الحق بعقد اتفاقات ومعاهدات مع دول خارجية. ومرد هذا التصرف كله ـ كما يبدو ـ إلى نزعات تطفح بـ: **الأنانية، والجشع، والهلع، والحسد، والتنافس**

البشع. وقد يحدث انقسام القبائل ـ في بلد واحد أيضاً ـ نتيجة لاختلاف عقائدي، أو لأسباب موضوعية ومعقولة.

أما في بلاد المغرب فتنكشف الأدوار السلبية للقبلية؛ في علاقاتها المريبة مع أطراف خارجية معادية؛ مثلما ظهر أيام البونيقيين؛ حينما اشتركت بعض القبائل المغربية بقيادة الإغليد الليبي **إلماس** *Ylmace* مع ملك **سرقسطة** الإغريقي **أغاثوكليس** *Agathocles* سنة 310 ق.م؛ ضد الدولة الحاكمة في **قرطاج**. [1]

كما يظهر ذلك؛ عندما نرى أن بعض القبائل وقفت في صف **القرطاجيين**؛ ضد أهلهم وبني جلدتهم؛ خلال ثورة المرتزقة ـ أو ثورة المزارعين ـ التي قادها الثائر المغربي المدعو "**ماتو**" أو "**ماتوس**"؛ تلك الثورة التي زعزعت أركان قرطاج؛ وكادت أن تسقطها. ولكنها فشلت نتيجة لعدة عوامل؛ منها وقوف بعض القبائل المغربية ـ بقيادة القائد المغربي "**نارافاس**" إلى جانب القرطاجيين. [2]

أضف إلى ذلك وقوف القبائل المغربية؛ بقيادة كل من **سيفاكس وماسينيسا** ـ بشكل تبادلي ـ مع **روما** ضد الدولة الحاكمة في **قرطاج**. غير أن هذا وقع قبل قيام الدولة النوميدية الكبرى بزعامة **مسنيسا**. [3] وفي هذا

---

[1] ذكر ذلك ديودور الصقلي؛ حين قال بأن الإغليد إلماس كان ضمن حلفاء أغاثوكليس الذي هاجم قرطاج. أنظر: *Aguellids et Romains en Berberie, p*: 12.

[2] بقيت هذه الثورة طوال ثلاث سنين وأربعة أشهر وقد وصفها صاحب كتاب هنيبعل؛ نقلاً عن المؤرخ الإغريقي پوليب *Polybe* بقوله: ((لم يكن "ماتو" الليبي جندياً قصير النظر، وحشي الطباع؛ كالقسم الأكبر من رفاقه... كان حلم "ماتو" أن يدمر قرطاجة، ويزيل سلطانها؛ لينشئ على أنقاضها دولة كبيرة؛ تقوم على اتحاد القبائل الإفريقية... وهذا ما جعل القبائل المغلوبة على أمرها، والبلدان الخاضعة للقوة تلبي نداء "ماتو"، وترسل إليه الرجال، والخيول والمؤن. ويقول "بوليب": أن نداء "ماتو" أضرم حماسة كاسحة؛ ولا سيما بين النساء؛ اللواتي تعرين من حليهن، وأرسلنها إلى قادة الثورة الثلاثة: "ماتو، وسبانديوس، وأوتاريت")). هنيبعل، ج: 1، ص ص: 183 ـ 184. أنظر أيضاً التفصيل كاملة في الكتاب نفسه في الفصل 16. ص ص: 183 ـ 204. وكتاب تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 98 ـ 100. وكتاب مدنية المغرب العربي، 202 ـ 209.

[3] وقد أشار ش. أ. جوليان إلى هذا بقوله: ((وقد كان أجرى [أي شيبيون الإفريقي] محادثات إيجابية مع الإغليد سيفاكس؛ أمير مازيسولة أو نوميدي الغرب، ومع الإغليد مسينيسا؛ ابن ملك ماسولة أو نوميدي الشرق؛ الذي اضطره سيفاكس إلى أن يكون من الأنصار، ومستعداً

السياق يمكن إدراج تعاون **بوكوس الأول ـ إغليد موريطانيا** ـ حينما وقف بقبائله ؛ مع **الرومان** ضد صهره **يوغرطا** ؛ حيث سلمه بنفسه إلى أعدائه ؛ ولم يشفع فيه لا الحلف المعقود بينهما ، ولا قرابة المصاهرة التي تربطهما. [1] وثمة شواهد كثيرة في العهد الروماني ؛ وقفت خلالها بعض القبائل ـ تحت قيادة زعمائها ـ إلى جانب **الرومان** ضد أبناء جلدتهم ؛ من ذلك موقف رئيس قبائل **تيتري** المدعو **إقناسن** *Ignassen* ؛ حين عمل ضد الإغليد **فيرموس** ؛ الذى تخلى عنه بعد أن كان معه ؛ بل قبض عليه بغرض تسليمه للرومان ؛ ولكنه انتحر قبل تحقيق ذلك ؛ فما كان من **إقناسن** سوى إرسال جثته إلى أعدائه. [2]

كما قامت مجموعة من الفرسان المورطانيين بقتل الزعيم القبلي حليف **فيرموس** ؛ المدعو **فراكسن** *Fraxen* أو **إيفاريسان** *Ifarissen* ؛ نيابة عن **الرومان**. [3] وهكذا فقد تحققت السيادة الكاملة **للرومان** على بلاد **المغرب** ؛ بفضل سياسة "**فرق تسد**" التي انتهجتها مع زعماء القبائل المغربية. وفي هذا الأمر كتب ش. أ. جويان : ((**فلم تكن روما لتهمل شأن القبائل البربرية ؛ التي شكلت ـ كم من مرة ـ خطراً داهماً عليها. لذا فقد كانت تزكي قواد البربر ؛ بخلع المعطف عليهم ، وتكسب ولاءهم ؛ بمنحهم جِرَايَاتٍ قارة**)). [4]

دائماً لقيادة القبائل الثائرة. غير أن سيفاكس تزوج من سوفونيسب الجميلة أخت عزروبعل جسكون؛ التي كان لها الأثر البالغ عليه؛ فحملته على التحالف مع قرطاج؛ ورُدَّ مسنيسا إلى أقصى سيرتا الصغرى. فلم يبق لشيبيون بعد هذه الخيبة المزدوجة إلاّ الاعتماد على قواه الخاصة... ولكن مسنيسا الذي استمالته قرطاج بوعودها الكثيرة؛ انضم إلى العدو والمعركة على أشدها. واكتفى سيفاكس بمفاوضة الرومان حول مشروع للسلم)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 104.

[1] أنظر في هذا: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 161. ومدنية المغرب العربي في التاريخ، ص ص: 282 ـ 283. *L'Algerie dans l'Antiquite, p:* 89. و *Aguellids et Romains en Berberie: pp*: 67-68.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 303. *Aguellids et Romains en Berberie: pp:* 110.

[3] نفسه، ص: 274.

[4] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 201.

وفي العصر الإسلامي لم يختلف الأمر كثيراً؛ إذ انقسمت القبائل الأمازيغية على بعضها؛ بسبب دوافع عقائدية؛ فمنها من ناصر المسلمين ووقف معهم ضد قبائل أمازيغية، أخرى رفضت الدخول في الإسلام.[1] وتقول المصادر أن حسان بن النعمان ـ في بداية الفتح ـ قد ضم إلى صفوف المسلمين اثني عشر ألفاً من الأمازيغ؛ بغرض محاربة القبائل الواقفة خلف الكاهنة.[2] كما انضمت أعداد كبيرة منهم إلى الجيش الإسلامي في زمن موسى بن نصير؛ الذي جهز جيشاً منهم وبقيادة الأمازيغي طارق بن زياد لفتح الأندلس.

وأسوأ الشواهد على تعاون القبائل المغربية مع الأجانب ضد أهلهم، وإخوانهم في الوطن والعقيدة؛ هو ما ظهر في عهد ما بعد الموحدين؛ إذ تعممت ـ تقريباً ـ هذه الظاهرة السلبية. على أنه يستحسن التنبيه إلى أن هذا الأمر لم يقتصر على القبائل في بلاد المغرب فحسب؛ بل انتشرت أيضاً في ديار الأندلس؛ بين الفئات المتناحرة هناك؛ والمسماة بالطوائف.

المهم أن بلاد المغرب قد شهدت ظاهرة سلبية؛ جعلت قبائل عديدة تعقد صلات مشبوهة؛ مع الأعداء الطامعين في الاستيلاء على البلاد المغربية بأكملها. لقد انطلقت هذه العلاقات المخزية ـ منذ البداية ـ في شكل معاملات تجارية. وبما أن: الأنانية، والشراهة، والجشع من صفات القبلية؛ فقد تطور الأمر بالقبائل والدول الخارجية المعادية إلى مستوى من التجاوزات والأخطاء؛ جعل تلك القبائل تغمض أعينها عن احتلال مواقع في الأرض المغربية؛ اتخذت ـ في الظاهر ـ كمراكز تجارية قارة

[1] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص ص: 186 ـ 187.

[2] رياض النفوس، ج: 1، ص: 54. البيان المغرب، ج: 1، ص: 38. تاريخ إفريقيا والمغرب، ص: 64. المغرب الإسلامي، ص: 67.

بالسواحل؛ ومن تلك المراكز التجارية ـ المزعومة ـ انطلقت عمليات الغزو، والاحتلال لمناطق عديدة من بلاد المغرب. وانتهى الأمر ـ كما هو معلوم ـ باحتلال المدن الكبرى؛ المطلة على البحر الأبيض المتوسط، مثل: **طنجة، وسبتة، ومليلة، ووهران، وبجاية، وجربة، وطرابلس،** ثم المدن المطلة على المحيط الأطلسي مثل: **أزمور، وأسَفي، وأصيلا،** ...إلخ.

وتكلم الوزان عن بعض المواقف الشاذة؛ لبعض الفئات من المجتمعات المغربية؛ منها ما قاله عن مدينة أسفي؛ وكيف احتلت من قبل البرتغاليين؛ ومفاد الحكاية أن أسفي تعرضت لمؤامرة محكمة؛ قام بها التجار **البرتغاليون**؛ الذين أغروا ملكهم باحتلال أسفي؛ بحجة أن أهل البلد منقسمون. فتمكنوا من تحقيق ذلك بمساعدة أحد الرؤساء المغاربة المدعو **يحيى بن تعففت**؛ بعد أن قدموا له الهدايا المجزية. فسهل لهم بناء دار حصينة على شاطئ البحر؛ اعتبرت بمثابة رأس جسر؛ سهل عليهم احتلال المدينة بالتدريج.

وبعد اختلاق بعض الأعذار "**المفبركة**"؛ جاء الأسطول البرتغالي محملاً بخمسة آلاف من الجنود المشاة، ومائتين من الفرسان؛ مدعمين بالمدفعية الثقيلة. فهرب السكان من المدينة؛ ولم يبق بها سوى حليف البرتغاليين **يحيى بن تعففت** ومن تبعه. فكوفئ ذلك الحليف الوفي للبرتغاليين بأن أرسل لمقابلة ملك البرتغال في **لشبونة**؛ فخصص له إيراداً يكفيه، ومنحه بعض الخدم هدية إليه؛ ثم أعاده ليكون في خدمة القائد البرتغالي في ضواحي **أسفي** وباديتها؛ نظراً لجهل القائد البرتغالي لعادات أولئك السكان؛ وحاجته لمن يعرف كيف يسوسهم.

ويقول الوزان أنه قابل رئيس تلك البوادي في إحدى سفاراته ؛ سنة 920 هـ الموافق لـ 1514م. فلقيه بالقرب من **مراكش** ؛ حينما كان منشغلاً في جمع الضرائب لفائدة البرتغاليين ؛ فوجده ـ في تلك النواحي ـ رفقة خمسمائة فارس برتغالي، وفوق الألفين من الفرسان الأعراب. [1]

تلك صورة قاتمة للصلات المنحرفة التي كانت تعقد بين أطراف ؛ شغلها الشاغل هو انتهاز الفرص المواتية ؛ لتحقيق أغراض خاصة ؛ حتى وإن كانت على حساب الأهل والأقرباء والجوار. وفي هذا السياق ذكر الوزان أيضاً خبر خراب مدينة **تَدْنِسْتْ** بالمغرب الأقصى فقال: ((**وقد خربت مدينة تَدْنِسْتْ عام 918 للهجرة** [الموافق لـ 1512 م]، **وفر سكانها ؛ بعضهم إلى الجبال، وبعضهم إلى مراكش ؛ لأن جيرانهم الأعراب تواطئوا مع قائد جيش ملك البرتغال المقيم بأسَفي. وكان هؤلاء الأعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى ؛ فاتفق السكان جميعهم وغادروها. وقد شاهد كاتب هذه السطور مدينة تدنست بعد خرابها ؛ وقد تهدم السور كله وكذلك المنازل ؛ ولم يعد يسكنها غير البوم والغربان ؛ وذلك عام 920 هـ**[الموافق لسنة 1514م])). [2]

ومن جملة الحكايات التي تؤكد الانقسام الحاصل داخل القبائل المغربية ـ في ذلك الوقت ـ خبر يشير إلى ارتباط بعض الأعراب بصلة حلف، أو تبعية مع البرتغاليين ؛ بينما يقف أعراب آخرون ضد البرتغاليين. ويؤكد هذا خبر هجوم ثلاثمائة فارس برتغالي ؛ معززين بفئة من الأعراب على بلدة **أَنْمَايْ** (سيدي رحال حالياً). بينما تقف ـ في الوقت ذاته ـ مجموعة أخرى من الأعراب ضد البرتغاليين، وأتباعهم الأعراب المنحرفين.

---

[1] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 149 ـ 151.
[2] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 99 ـ 100.

وثمة حكاية أخرى ؛ تشير إلى وقوف ألفين من الأعراب التابعين لحوز **يحيى بن تعففت** ـ السابق الذكر ـ إلى جانب البرتغاليين ؛ في حربهم ضد جيش ملك **فاس** ؛ الذي كان يدافع عن مدينة **بُولَعْوَانْ** ؛ الأمر الذي أدى إلى قتل ثمانمائة من رماة **دولة فاس**. [1] ومدينة **أزموز** استولى عليها البرتغاليين [سنة 919 هـ الموافق لـ 1513م] بتواطؤ من طرف اليهود الساكنين بها. [2] وما وقوف أعراب بني عامر، وبعض أحياء زناتة إلى جانب الأسبان في وهران ؛ سوى عينة عما يمكن أن يدين بعض القبائل المغربية المتحالفة مع قوى أجنبية معادية. وقد استفز تصرف بني عامر هذا شاعرية العلامة أبي العباس سيدي أحمد ابن أبي ملي السجلماسي فقال: [3]

فمن مبلغ عني قبائل عامر
ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمّي من صناديد راشد
بتيجانها مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم في العرب من كل ماجد
طويل القنا أهل الوفا والمغافر
وطلحة والأحلاف في عرف هذه
وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بني يعقوب والحامي الفتى
بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الإسلام في كل موطن
وفي كل ناد سالف ومعاصر

[1] نفسه، ص ص: 137. 155 ـ 156.
[2] وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 157 ـ 158.
[3] بهجة الناظر، ص ص: 32 ـ 34.

ويا سادة العربان من آل هاشم

وغيرهم بالله ما صبر صابر

ويا معشر الأتراك يا كل عالم

وكل وليّ حافظ للأوامر

أناشدكم بالله ما عذر كلكم

لدى الله في وهران أم الخنازر

أذلكم الجبار كيف رضيتم

بسبي العذارى من بنات الأكابر

فلا همة تعلو بكم عن دنية

ولا غيرة تدعوكم للمآثر

ولا ذمة ترعونها في نبيكم

ولا حرمة تحمونني بالبواتر

عليكم إكَاف [1] الذل أين فحولكم

أما أبصروا في السبي غير الحرائر

أضيم الملوك أم تغلب ظالم

عليكم رماكم في جوار الكوافر

على أن ما قامت به هذه القبائل من مواقف سلبية لا يمكن تعميمه على القبائل كافة ؛ إذ أن بعض القبائل الأخرى ـ الأمازيغية منها والعربية ـ حمت السواحل المغربية في كل مكان ؛ منها تلك القبائل التي وقفت في وجه **الإسبانيين** بمدينتي: **بجاية والجزائر**، [2] وتلك التي قاومت أطماع صاحب صقلية ؛ عندما هدد ـ مراراً ـ سواحل إفريقية. ومع هذا فقد

[1] الإِكَاف بكسر الهمزة: البردعة.
[2] وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 38. 51.

تمكن ـ رغم مقاومة القبائل العربية ـ في تلك الديار من احتلال عدة مدن **كطرابلس، وقابس، صفاقص، وجربة، والمهدية، وبونة**.. [1]

ولما أراد **عبد المؤمن بن على** الزحف نحو إفريقية ؛ احتشدت **القبائل العربية والصنهاجية** لمقاومته ؛ فسارع **روجار** صاحب صقلية لانتهاز الفرصة قصد التحالف مع تلك القبائل ؛ حيث عرض عليهم المساعدة ؛ بإمدادهم بخمسة آلاف فارس من الإفرنج : ((**فشكروه وقالوا: "ما بنا حاجة إلى نجدته، ولا نستعين بغير المسلمين**)). [2] كما قامت القبائل **العربية والأمازيغية** بأعمال في غاية الأهمية ؛ ضد الحملة الصليبية التي شنها **لويس التاسع** الفرنسي على **تونس**. [3]

إلى جانب هذا فقد ذكرت المصادر أدواراً مشرفة وفعالة لقبائل كثيرة وقفت إلى جانب **الدولة الموحدية** ؛ حينما عزم عبد المؤمن بن علي على الجهاد في الأندلس. فحشد الجيش، واستنفر قبائل المغرب كله : ((**وفي سنة ثمان وخمسين** [وخمسمائة] **خرج أمير المؤمنين من مراكش إلى الأندلس برسم الجهاد. وكان خروجه في يوم الخميس الخامس من ربيع الأول من العام المذكور؛ فوصل إلى رباط الفتح ؛ فكتب إلى جميع المغرب والقبلة وإفريقية والسوس وجميع القبائل ؛ يستنصرهم إلى الجهاد ؛ فأحابه خلق كثير؛ فاجتمع له من عساكر الموحدين، والمرتزقة من قبائل العرب وقبائل زناتة أزيد من ثلاثة مائة ألف فارس، ومن**

---

[1] راجع كتاب رحلة التجاني، ص ص: 74. 98 ـ 102. 126. 333 ـ 341. وكتاب العبر، مج: 6. ص ص: 329 ـ 333. 336. 341 ـ345. 364. 697 ـ 698. 836 ـ 837. 849. 902 ـ 905. 958. ووصف إفريقيا، ج: 2، ص: 62. والقبائل العربية، ص ص: 122 ـ 128.

[2] الكامل في التاريخ، ج: 9، ص: 41.

[3] العبر، مج: 6، ص ص: 663 ـ 671. وإتحاف أهل الزمان، ج: 1، ص: 206. والحلل السندسية، ج: 4، ص ص: 1032 ـ 1034. والقبائل العربية، ص ص: 122 ـ 124.

جيش المطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل ؛ فضاقت بهم الأرض، وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا)). [1]

وقد تناقلت المصادر القصيدة التي بعثها عبد المؤمن إلى قبائل بني هلال في إفريقية ؛ يستحثها فيها على الإسراع بالقدوم إليه بغرض الجهاد. وقد لجأ عبد المؤمن إلى أسلوب كفيل بالتأثير في قبائل الأعراب ؛ وهي لغة الشعر المشحون بالمديح والإطراء، والطافح بالإغراء والوعود الجذابة. ومن خلال كل ذلك يتبين أن **الدولة الموحدية** ؛ لم تكن لها سلطات قاهرة على أولئك الأعراب ؛ وكل ما يمكنها هو الحرص على استرضائهم بقدر الامكان. وجاء في القصيدة : [2]

أقيموا إلى العلياء هُوجَ الرَّواحِلِ
وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصواهل
وقوموا لنصر الدِّين قَوْمَة ثائرٍ
وشُدُّوا على الأعداء شَدَّة صائل
فما العِزُّ إلاَّ ظهْرُ أجْرَدَ سابحٍ
يفوتُ الصَّبا في شَدِّهِ المتواصل
وأبيضَ مَأثورٍ كأنَّ فِرندَهُ
على الماء منسوجٌ وليس بسائل
بني العمِّ من عُليا هلال بن عامر
وما جمعت من باسلٍ وابنِ باسلِ
تعالوا فقد شُدَّتْ إلى الغَزْوِ نِيَّةٌ
عواقبُها منصورة بالأوائل

[1] روض القرطاس، ص ص: 131 ـ 132.
[2] المعجب، ص ص: 225 ـ 226.

هي الغزوةُ الغَـرَّاءُ والموعِدُ الـذي

تنجَّـزَ من بعد المَـدى المتطـاوِلِ

بها تُفْتَـحُ الدُّنيا، بها تُبلَـغُ المُنَى

بها يُنصَـفُ التحقيقُ من كلِّ باطـل

أهَبْنـا بكم للخيرِ واللهُ حَسْبنـا

وحَسْبُكُمُـو واللـهُ أعْـدلُ عـادل

فمـا هَمُّنـا إلاَّ صـلاحُ جَميعِكـم

وتسْرِيحُكم في ظلِّ أخضرَ هاطل

وتسويغُكـم نُعْمَى تـرِفُّ ظِلالُهـا

عليكُـم بخيرٍ عاجلٍ غيـرِ آجـل

فلا تتوانـوا فالبِـدارُ غَنيمَـةٌ

وللمُدْلِـج الساري صفـاءُ المناهـل

ويبـدو أن استعمـال الشعـر في استنهـاض الهمـم للجهـاد كـان متبعـاً في ذلـك الوقـت. فهـذا **إبراهيـم بـن سهـل الإسرائيـلي** بعـث بقصيـدة يستنفـر بهـا شيـوخ القبائـل العربيـة بالمغـرب للجهـاد، حاثـاً عـلى إنقـاذ **إشبيليـة** مـن خطـر الاحتـلال؛ قـال فيهـا:[1]

ورداً فمضمـونُ نجاحُ المصدرِ

هي عِـزَّةُ الدنيـا وفـوزُ المحشـرِ

نادى الجهـادُ بكم بنصر مُضْمَـرٍ

يَبْـدو لكـم بيـن القنـا والضُّمَّـرِ

[1] الذخيـرة السنيـة، ص ص: 74 ـ 76.

خَلُّوا الديارَ لدارِ عِزٍّ وارْكبوا

غبْرِ العجاجِ إلى النعيمِ الأخْضَرِ

ثم يضيف:

يا مَعْشَرَ العرْبِ الذين توارَثوا

شِيَمَ الحَمِيَّةِ كابراً عن أكبرِ

إنَّ الإله قد اشترى أرْواحَكم

بيعوا ويَهْنِئكم وفاءُ المُشتَرِي

أنتم أحَقُّ بِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّكُمْ

وبِكُمْ تَمَهَّدَ في قديم الأعْصُرِ

ثم يقول:

لو صُوِّرَ الإسْلامُ شَخْصاً جاءكم

عَمْداً بِنَفْسِ الوامِقِ المُتَحَيِّرِ

ولَوْ أنَّهُ نادَى النَّصيرَ لَخَصَّكُمْ

وَدَعاكُمُ يَا أسْرَتِي يَا مَعْشَرِي

غير أن هذه القصيدة لم تترك أي أثر في شيوخ تلك القبائل؛ لأنها لم تجد دولة تتكفل بالدعوة والتنظيم. ومع هذا فقد استجابت القبائل المغربية ـ في وقت آخر ـ إلى دعوة أمير الدولة المرينية حين عزم على الجهاد في الأندلس؛ وفي هذا يقول صاحب كتاب الذخيرة السنية: ((**ثم كتب** [أي الأمير يعقوب بن عبد الحق] **الكتاب... إلى أشياخ بني مرين وأمراء العرب ورؤساء قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وزناتة يستنفرهم إلى الجهاد؛ ثم ارتحل إلى قصر المجاز... وأخذ في تجويز المجاهدين إلى الأندلس... فكان رحمه الله يجوز في كل يوم قبيلة**

من بني مرين وطوائف المطوعين وقبائل العرب من سفيان والخلط والعاصم وبني جابر والأثبج وبني حسان ورياح والشبانات)). [1]

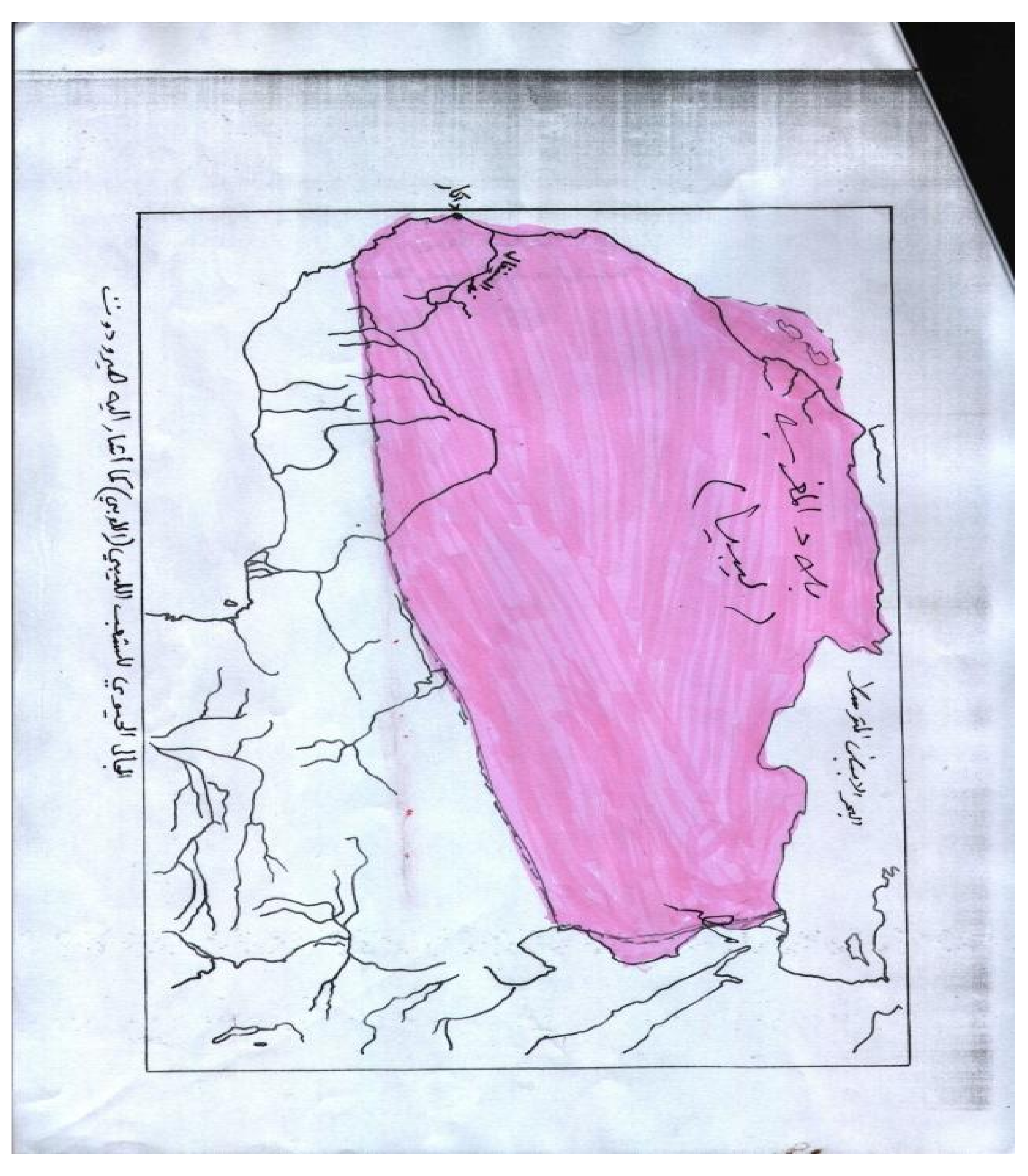
وجل هذه القبائل لم يكن للدولة فيهم سلطة قاهرة ؛ وإنما هم أحلاف للدولة عندما تهادنهم ، ولا تتحرش بهم ؛ وبالمقابل فقد يصبحون خصوماً خطرين عندما تستفزهم الدولة أو تتطلع لكبح حريتهم.



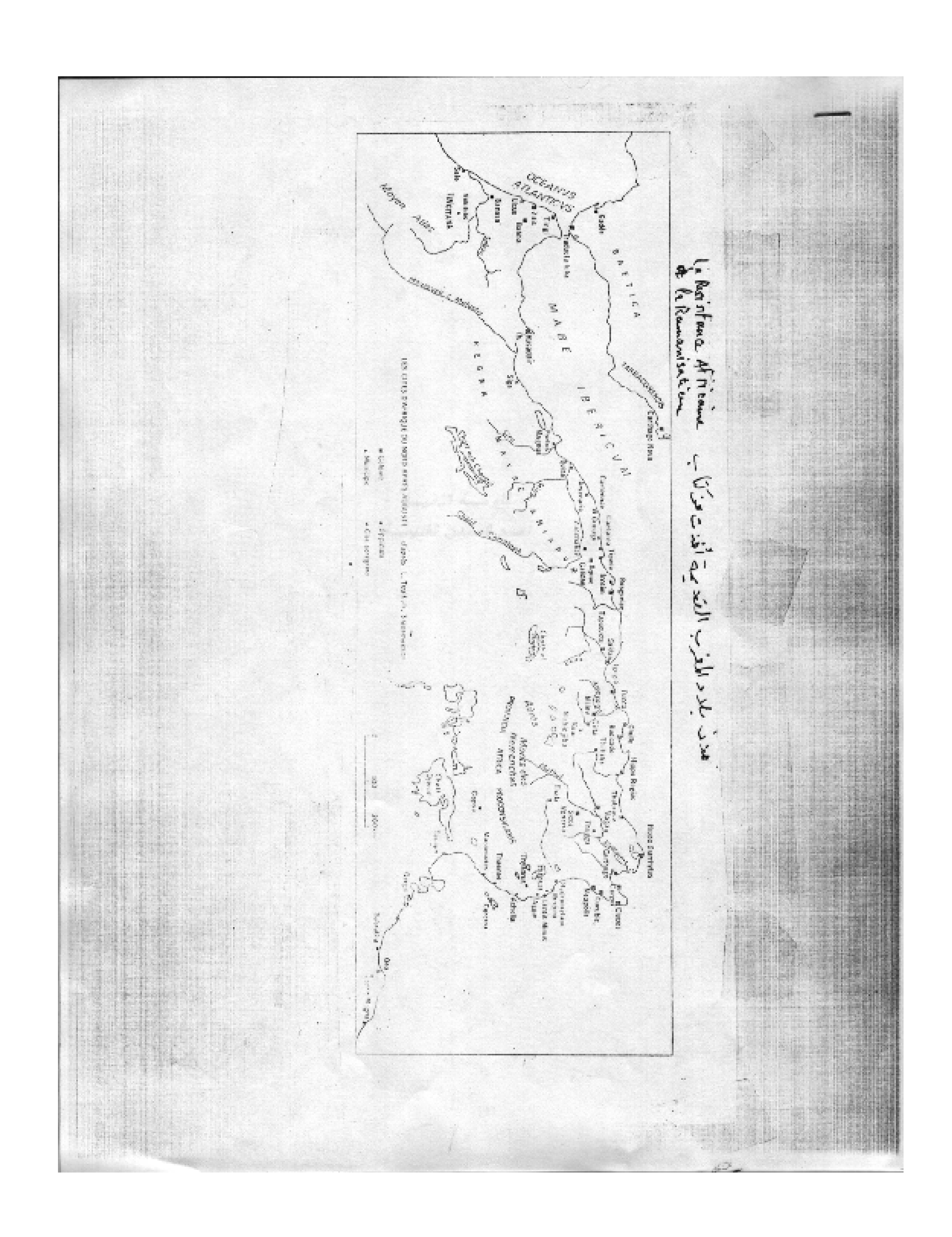
انتهى الكتاب بحمد الله وحفظه

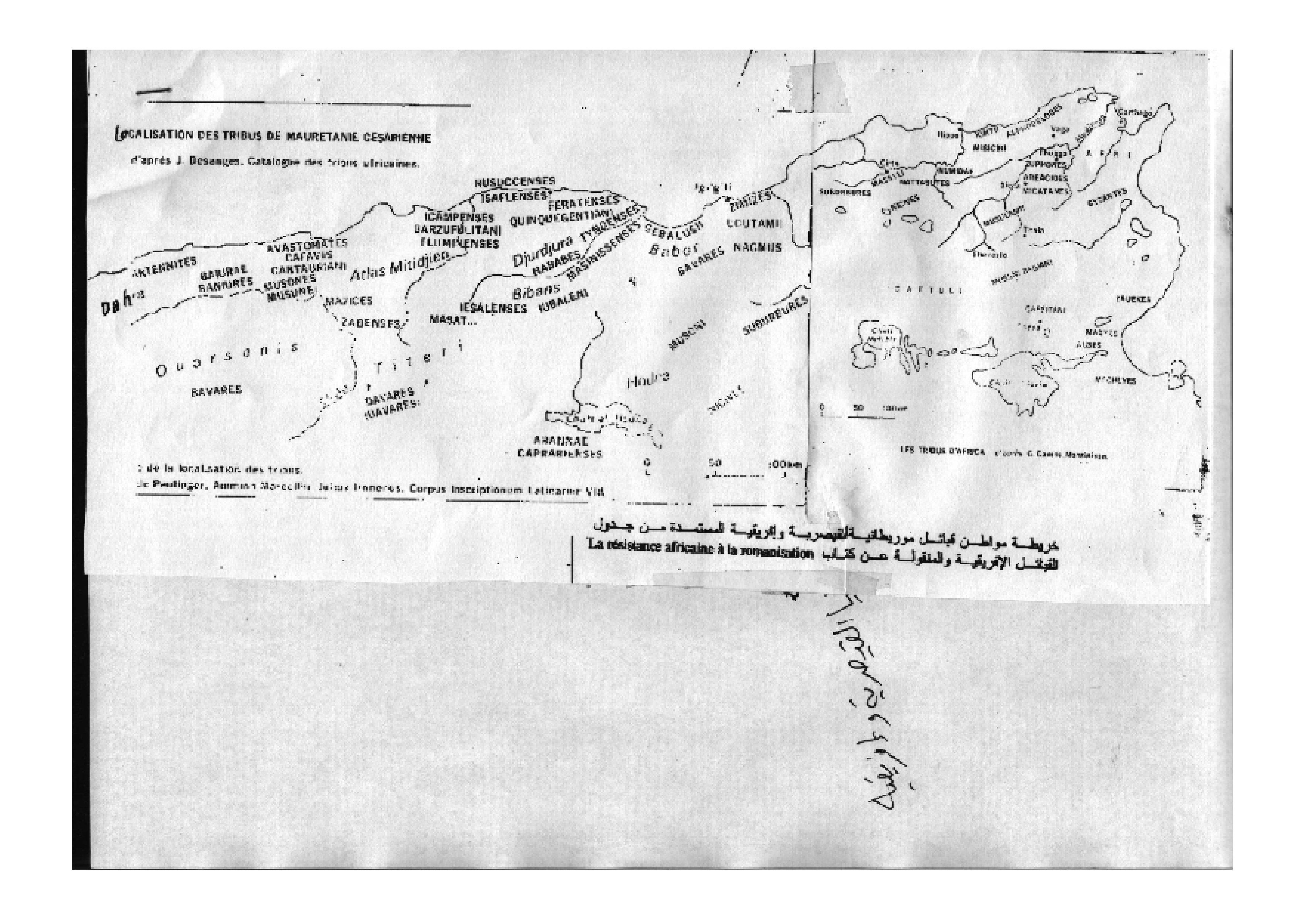
[1] الذخيرة السنية، ص: 166.

لوائح توضيحية



اللوحة الأولى المجال الحيوي لليبيين القدماء





خريطة مواطن قبائل موريطانيا القيصرية والإفريقية المستمدة من جدول القبائل الإفريقية والمنقولة عن كتاب La résistance africaine à la romanisation

...يا القيصرية والإفريقية

المصادر والمراجع العربية:

- إبراهيمي؛ ك: (تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر)؛ ترجمة محمد البشير الشنيتي ورشيد بورويبة؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1982م.
- ابن أبي زرع؛ علي بن عبد الله، أو عبد الحليم ابن صالح: (الأنيس المطرب بروض القرطاس)؛ مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. ثم نسخة مطبوعة؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال بالسويد، 1359هـ/1943م.
- ابن الأحمر؛ إسماعيل بن يوسف (ت: 807هـ/1406م): (روضة النسرين في أخبار بني مرين)؛ تحقيق جورج مارسي، وغوثي بوعلي باريس 1336هـ/1917م.
- ابن بطوطة؛ محمد بن عبد الله اللواتي (ت: 779هـ/1377م): (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)؛ تحقيق علي المنتظر الكتاني، مؤسسة الرسالة ببيروت، 1395هـ/1975م.
- ابن تومرت؛ محمد بن عبد الله المهدي (ت: 424هـ/1129م): (أعز ما يطلب)؛ تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1406هـ/1985م.
- ابن حزم؛ علي بن أحمد الأندلسي (ت: 456هـ/1063م): (جمهرة أنساب العرب)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون. ثم كتاب (المفصل في الملل والأهواء والنحل)، ج:1، 1317هـ، ج: 2ـ3، 1320هـ، المطبعة الأدبية بمصر، ج: 4، 1321هـ، مطبعة التمدن بمصر، ج: 5، 1321هـ، مطبعة الموسوعات بمصر.
- ابن حمادوش؛ عبد الرزاق الجزائري: (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال) (رحلة ابن حمادوش الجزائري)؛ تحقيق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1989م/1403هـ.
- ابن الخطيب لسان الدين؛ محمد السلماني (ت: 776هـ/1374م): (أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام)؛ (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب بالدار البيضاء، 1884هـ/1964م.

- ابن خلدون؛ عبد الرحمن (ت: 808هـ/1405م): (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)؛ دار الكتاب اللبناني ببيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م. ثم (مقدمة ابن خلدون)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1384هـ/1965م، وج: 2، 1386هـ/1966م، وج: 3، 1387هـ/1967م، وج: 4، 1388هـ/1968م.

- ابن خلدون؛ يحيى (ت: 780هـ/1378م): (بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد)؛ تحقيق ألفرد بل، والغوثي أبو علي، مطبعة فنطانة الشرقية بالجزائر، ج: 1، 1321هـ/1903م، وج: 2، 1328هـ/1910م. ثم النسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية بالجزائر، 1400هـ/1980م.

- ابن سعيد؛ علي بن موسى (ت: 685هـ/1274م): (كتاب الجغرافيا)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1403هـ/1982م. ثم (المغرب في حلى المغرب)؛ بمشاركة آخرين؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1384هـ/1964م.

- ابن سودة؛ عبد السلام: (دليل المؤرخ في المغرب الأقصى)؛ دار الكتاب بالدار البيضاء، 1380هـ/1960م.

- ابن صاحب الصلاة؛ عبد الملك (كان حيا سنة 594هـ/1198م): (تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم من الوارثين، وظهور المهدي بالموحدين على الملثمين وما في مساق ذلك من خلافة أمير المؤمنين وأخيرا (بعض) الخلفاء الراشدين)؛ تحقيق عبد الهادي التازي، ج: 2، دار الأندلس للطباعة والنشر ببيروت 1383هـ/1964م.

- ابن عبد الحكم؛ عبد الرحمن بن عبد الله: (ت: 257هـ/871م): - فتوح مصر والمغرب؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي بالقاهرة، 1961م.

- ابن عذاري؛ محمد المراكشي (ت: 669هـ/1272م): (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، ببيروت، 1967م.

ـ ابن عميرة؛ محمد: (دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي)؛ المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1984م.

ـ ابن منصور؛ عبد الوهاب: (قبائل المغرب)؛ المطبعة الملكية بالرباط، 1388هـ/1968م.

ـ أبو زكرياء؛ يحي بن أبي بكر الورجلاني (ت: 471هـ/1078م): (كتاب سير الأئمة وأخبارهم)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1405هـ/1984م.

ـ أبو ضيف؛ مصطفى أحمد عمر: (القبائل العربية في المغرب) (في عصر الموحدين وبني مرين)، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1403هـ/1982م.

ـ أحمد صفر: (مدنية المغرب العربي في التاريخ)، دار النشر بوسلامة، تونس 1959م.

ـ إحسان النص: (العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي)، دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1963م.

ـ إدارة الشئون الاجتماعية والشباب بجامعة الدول العربية: (النمو الحضري في الوطن العربي)، المؤتمر الرابع عشر للشئون الاجتماعية بطرابلس ليبيا، 1971م.

ـ الإدريسي؛ محمد بن عبد الله الحمودي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/1164م): (مقتبس من نزهة المشتاق) (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1983م.

ـ إدنا مجوير: (الماضي يبعث حياً)؛ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1953م.

ـ إدوارد جيبون: (اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها)؛ ترجمة محمد علي أبو درة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ودار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر، 1969م.

ـ أرنولد توينبي: (تاريخ الحضارة الهلينية)؛ ترجمة رمزي عبده جرجس ومحمد صقر، المكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1963م.

ـ أسد رستم: (الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب)، دار المكشوف ببيروت، ط: 1، 1955.

ـ اسماعيل؛ العربي: (دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة)، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1983م. ثم (كتاب دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية)، الشركة الوطنية للنشر وتوزيع بالجزائر 1980م. ثم كتاب (المدن المغربية)، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1984م.

ـ ألفرد؛ بل: (الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم)؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي ببيروت 1181م.

ـ أنجلز؛ فريدريك: (أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة)؛ ترجمة أديب يوسف، دار الفارابي ودار الكتاب العربي بدمشق، 1958م.

ـ أندريه إيمار، إدوار بروى، أرنست لابروسّ، روبير شنيرب، رولان موسنييه، موريس كروزيه: (تاريخ الحضارات العام)؛ ترجمة فريد. م. داغر، يوسف سعد داغر، فؤاد.ج. أبو ريحان، منشورات عويدات ببيروت وباريس، ط: 1، 1964، 1965، 1966، 1968، 1968، 1970، ط: 2، 1981م.

ـ إيف لاكوست ووأندري بارنيان وأندرؤي نوشي: (الجزائر بين الماضي والحاضر)؛ ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1984م.

ـ إيف لاكوست: (العلامة ابن خلدون)؛ ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون ببيروت، ط: 1، 1974م.

ـ الباروني؛ سليمان (ت: 1359هـ/1940م): (مختصر تاريخ الإباضية).

ـ البكري؛ عبد الله بن عبد العزيز (ت: 487هـ/1094م): (المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب) (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك)؛ تحقيق ماك قوكين دي سلان *MAC GUCKIN DE SLANE*، مكتبة أمريكا والشرق بباريس *Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris*، *1965*م.

- البلاذري؛ أحمد بن يحي (ت: 279هـ/892م): (فتوح البلدان)؛ تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.
- بورويبة؛ رشيد: (ابن تومرت)؛ ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1982م. ثم كتاب (الدولة الحمادية وحضارتها)، ديوان المطبوعات الجامعية، والمركز الوطني للدرسات التاريخية. ثم كتاب (قسنطينة)، وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، 1978م. وكتاب (كتب مندثرة)، وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، 1981م.
- بوزياني؛ الدراجي: (نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد الزيانية)، ديوان المطبوعات الجامعية 1993م. ثم كتاب (القبائل الأمازيغية)، دار الكتاب العربي بالجزائر، ط: 2، 2003م. ثم كتاب (دول الخوارج والعلويين)، دار الكتاب العربي بالجزائر، 2002م. ثم كتاب (العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية)، دار الكتاب العربي بالجزائر، 2003م.
- بونار؛ رابح: (المغرب العربي تاريخه وثقافته)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1969م.
- البيذق؛ أبو بكر بن علي الصنهاجي: (كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين)؛ تحقيق ليفي بروفنسال *E. Lévi- Provençal*، مكتبة المستشرقين *Librairie Orientaliste* بباريس 1928م. ثم نسخة أخرى بتحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزئر، 1394هـ/1974م.
- التجاني؛ محمد عبد الله (كان حياً سنة 717هـ/1317م): (رحلة التيجاني)؛ الدار العربية للكتاب بليبيا وتونس 1981م.
- التنسي؛ محمد بن عبد الله التلمساني (ت: 899هـ/1493م): (نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم مما مضى من الزمان)، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، ثم نسخة مطبوعة تحت عنوان (تاريخ بني زيان ملوك تلمسان)؛ تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1405هـ/1985م.

ـ الجزائري؛ محمـد بن عبد القـادر: (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القـادر)، دار اليقظة العربية ببيروت 1384هـ/1964م.
ـ جواد علي: (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)، دار العلم للملايين ببيروت ومكتبة النهضة ببغداد، ط: 1، 1968، 1969، 1970، 1971، 1972م.
ـ جودت؛ عبد الكريم: (العلاقات الخارجية للدولة الرستمية)، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1984م.
ـ جورج غيرستر: (الصحراء الكبرى)؛ ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والنشر ببيروت، ط: 1، 1961م.
ـ جورج مصروعة: (هنيبعل)، دار الثقافة ببيروت، ط: 2، 1963م.
ـ جوليان؛ شارل أندري: (تاريخ إفريقيا الشمالية)؛ ترجمة محمد مزالي والبشير ابن سلامة، الدار التونسية للنشر بتونس والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1978م ـ 1983م.
ـ جون. أ. هامرتن: (تاريخ العالم)؛ ترجمة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم بمصر، مكتبة النهضة المصرية، ط: 2.
ـ جون ولسون: (الحضارة المصرية)؛ ترجمة أحمد فخري، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1955م.
ـ الجيلالي؛ عبد الرحمن: (تاريخ الجزائر العام)؛ دار الثقافة ببيروت 1400هـ/1980م، ثم (تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، لمدية، مليانة)، مطبعة صاري بدر الدين وأبنائه بالجزائر 1392هـ/ 1972م.
ـ جيمس هنري برستد: (انتصار الحضارة) (تاريخ الشرق القديم)؛ ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1962م/1382هـ.
ـ حاجيات؛ عبد الحميد: (أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1394هـ/1974م.
ـ حاطوم؛ نور الدين وآخرون: (موجز تاريخ الحضارة)، مطبعة الكمال، 1965م/1385هـ.

ـ حركات؛ إبراهيم: (المغرب عبر التاريخ)، مطبعة دار السلمي بالدار البيضاء بالمغرب 1384هـ/1965م، ثم (كتاب النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين)، مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء.
ـ الحميري؛ محمد بن عبد المنعم (ت: 727هـ/1326م): (الروض المعطار في خبر الأقطار) (معجم جغرافي مع مسرد عام)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت 1975م.
ـ خشيم؛ علي فهمي: (سفر العرب الأمازيغ)، دار نون للطباعة والنشر والتوزيع بطرابلس ليبيا، ط: 1، 1995م.
ـ خوجة؛ حمدان بن عثمان الجزائري (ت: 1255هـ/1840م): (المرآة) (لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر)؛ تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة بيروت 1972م، ونسخة أخرى بعنوان: (مرآة الجزائر)؛ حققها رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1394هـ/ 1974م.
ـ دبوز؛ محمد علي: (تاريخ المغرب الكبير)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة 1963م ـ 1974م.
ـ رابح لحسن: (أضرحة الملوك النوميد والمور)، دار هومة بالجزائر، 2004م.
ـ الرقيق القيرواني؛ إبرهيم بن القاسم (ت: بعد 417هـ/1026م): (تاريخ افريقية والمغرب)؛ تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي بتونس 1968م.
ـ زاهر رياض: (الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى)، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1968م.
ـ الزركشي؛ محمد بن إبراهيم اللؤلؤي: (كان حيا سنة 894هـ/1488م) (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية)؛ تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس 1966م.
ـ زريق؛ قسطنطين: (في معركة الحضارة)، دار العلم للملايين ببيروت، ط: 1، 1964م.
ـ زناتي؛ محمود سلام: (الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقية)، دار النهضة العربية ببيروت، 1969م.

ـ السلاوي؛ أحمد بن خالد الناصري: (ت:1315هـ/1897م) (الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى)؛ تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء بالمغرب، 1954ـ1956م.

ـ الشنيتي؛ محمد البشير: (سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا)، الشركة الوطنية للنشر والوزيع بالجزائر، 1982م.

ـ الشهرستاني؛ محمد بن عبد الكريم (ت: 548هـ/1153م): (الملل والنحل)، دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت 1395هـ/1975م.

ـ الصفدي؛ هشام: (تاريخ الرومان)، دار الفكر الحديث بلبنان، ط: 1، 1967م/1386هـ.

ـ الطالبي؛ محمد: (الدولة الأغلبية) (التاريخ السياسي)؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي ببيروت 1985م.

ـ الطمار؛ محمد بن عمرو: (تلمسان عبر العصور) (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1405هـ/1984م. ثم كتاب الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1404هـ/1983م.

ـ العامري؛ محمد الهادي: (تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الإزدهار والذبول)، الشركة التونسية للتوزيع بتونس 1974م.

ـ العبدري؛ محمد بن محمد البلنسي (كان حيا سنة 688هـ/1289م): (ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة الى بلاد المشرق) (الرحلة المغربية)؛ تحقيق أحمد بن جدو، كلية الآداب بالجزائر.

ـ عبد اللطيف أحمد علي: (التاريخ اليوناني) (العصر الهللادي)، دار النهضة العربية ببيروت، 1974، 1976م. ثم (التاريخ الروماني) (عصر الثورة)، الدار نفسها، 1973م.

ـ عبد الوهاب؛ حسن حسني: (ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية)، مكتبة المنار بتونس 1966ـ1972م.

ـ علام؛ عبد الله: (الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي)، دار المعارف بمصر 1971م.

ـ عويس؛ عبد الحليم: (دولة بني حماد صفحة رائعة من تاريخ الجزائر)، دار الشروق ببيروت 1400هـ/1980م.

ـ فرج؛ محمود فرج: (إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين)، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1977م.

ـ فون مالتسان؛ هاينريش: (ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا)؛ ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1976، 1979، 1980م.

ـ القلقشندي؛ أحمد بن علي (821هـ/1418م): (صبح الاعشى في صناعة الإنشاء)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة 1383هـ/1963م.

ـ لبيب عبد الستار: (الحضارات)، دار الشرق ببيروت، 1969م.

ـ لويس ممفورد: (المدينة على مر العصور)؛ أشرف على الترجمة إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1964م.

ـ مجهول: (الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية)؛ تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل بالجزائر 1339هـ/1920م.

ـ محمد سليمان أيوب: (جرمه من تاريخ الحضارة الليبية)، دار المصراتي بطرابلس ليبيا، ط: 1، 1969م.

ـ محمد السويدي: (بدو الطوارق بين الثبات والتغير)، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1986م.

ـ محمد الصغير غانم: (التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط)، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1979م.

ـ محمود درويش: (صور من حضارة مصر القديمة)، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1954م.

- المراكشي ؛ عبد الواحد بن علي التميمي (كان حياً سنة 621هـ/1224م): (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1368هـ/1949م.
- المشرفي؛ عبد القادر الجزائري (ت: 1192هـ/1778م): (بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانين بوهران من الأعراب كبني عامر)؛ تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة ببيروت.
- معمر؛ علي يحي: (الإباضية في موكب التاريخ) (الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا)، مكتبة وهبه بالقاهرة.
- المقري؛ أحمد بن محمد التلمساني: (ت:1041هـ/1631م): (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر ببيروت 1388هـ/1968م.
- منير بوشناقي: (المدن القديمة في الجزائر)، وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، 1078م.
- الميلي؛ مبارك بن محمد: (تاريخ الجزائر في القديم والحديث)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1396هـ/1976م.
- الناضوري؛ رشيد: (المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ببيروت، 1977م/ 1397هـ.
- النجار؛ عبد المجيد: (المهدي بن تومرت) (حياته وآراؤه وثورته الفكرية والإجتماعية وأثره بالمغرب)، دار الغرب الإسلامي ببيروت 1403هـ/1983م.
- نجيب ميخائيل إبراهيم: (مصر والشرق الأدنى القديم) (مصر)، دار المعارف بمصر، ط: 4، 1965م. ثم (سوريا)، الدار نفسها، ط: 2، 1964م. ثم (العراق وفارس)، الدار نفسها، ط: 2، 1967م.
- نعيم قداح: (حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، ط: 2، 1975م.

ـ النويري؛ أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733هـ/1332م): (نهاية الأرب في فنون الأدب)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر 1954م.
ـ هـ.ج. ولز: (معالم تاريخ الإنسانية)؛ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ط: 2، 1965، 1961، 1965، 3، 1967م.
ـ الورثلاني؛ الحسين بن محمد (ت: 1193 أو 1194هـ/1235 أو 1236م): (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) (الرحلة الورثلانية)؛ تصحيح محمد بن أبي شنب، دار الكتاب العربي ببيروت 1394هـ/1974م.
ـ الوزان؛ الحسن بن محمد الفاسي، الشهير بليون الأفريقي (ت: بعد 957هـ/1550م): (وصف إفريقيا)؛ ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ببيروت 1983م.
ـ ول ديورانت: (قصة الحضارة)؛ ترجمة زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ط: 2، 1965، 1967، ط: 3، 1968، 1972.
ـ وليام لانجر: (موسوعة تاريخ العالم)، ترجمة مجموعة من الأساتذة، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1962، 1963، 1966، 1968، 1969، 1971م.
ـ ياقوت الحموي؛ أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت: 626هـ/1228م): (معجم البلدان)، دار صادر ببيروت 1397هـ/1977م.

المراجع باللغة الأجنبية :

- ***Abdelbasit Ben Khalil*** *et Adorne):* ***Deux Récits de voyage inedits en Afrique du Nord****, Paris, 1936.*

- ABOU OBEID EL-BEHRI*: -* ***Description de l'afrique septenrionale****. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.*

- BEL - ALFRED*: -* ***La religion musulmanes en Berbérie*** *(Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.*

- ***BOURDIEU. PIERRE****: - Sociologie de L'Algérie. Presses Universitaires de Paris, 1970.*

- ***BOUSQUET (G.H.): - Les Berberes****. Presses Universitaires de france 1967.*

- ***BRAHIMI; (C): - Initiation a la Préhistorique de L'Algérie.*** *S. N. E. D. Alger, 1978.*

- ***BREMOND. C.R*** *(Général): -* ***Berbères et Arabes****, Payot, Paris, 1950.*

- ***BRUNSCHVIG ROBERT****: -* ***La Berbérie Orientale Sous Les Hafsides*** *(Des Origines à la fin du XVème siécle) Librairie D'Amérique et D'Orient, Andrien Maisonneuve, Paris, 1982.*

- ***Claude Blanguernon****: LE HOGGAR, ARTHAUD, Paris, 1955.*

- ***GAUTIER. (EMILE .F.): - Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)*** *Payot , Paris, 1952.*

- ***JEAN LEON LAFRICAIN****: -* ***Description de L'Afrique.*** *Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.*

- ***KADDACHE; MAHFOUD****: -* ***L'Algérie dans L'ANTIQUITE, L'Algérie Medievale.*** *S. N. E. D. Alger.1982.*

- LEVI-PROVENCAL*: -* ***Documents inédits. D'Histoire Almohade****,*

- ***MARCAIS GEORGES****: -* ***La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,*** *Editions Montaigne , Paris. 1946. et -* ***Les Arabes en Berbérie****, (du XIéme - au XIVéme siécle). Constantine et Paris. 1913.*

- Marcel Benabou*: la résistance africaine à la romanisation, François Maspero, Paris, 1976.*

- ***Mhamed Fantar, François Decret****: L'AFRIQUE DU NORD DANS L'ANTIQUITE, PAYOT, PARIS, 1981.*

- ***Mhamed Fantar****: CARTHAGE, la prestigieuse cité D'ELLISSA, Maison Tunisienne de l'Edition, 1970.*

- ***MOULOUD GAID****: AGUELLIDS ET ROMAIS EN BERBERIE. S N E D, ALGER, 1972.*

- ***ROBER MONTAGNE****: -* ***Les Berbéres et Le Makhzen Dan Le Sud Du Maroc.*** *Librairie Félix Alcan. 1930.*

فهرس المحتويات